قضايا فكرية

مقالات في النظرية الجماهيرية



بقلم: أ. د. مصطفى الزائدي

أكاديمية الفكر الجماهيري

قضايا فكرية

مقالات في النظرية الجماهيرية

بقلم الأستاذ الدكتور

مصطفى الزائدي



حقوق النشر

الكتــــاب: قضايا فكرية " مقالات في النظرية الجماهيرية"

الناشــــر: أكاديمية الفكر الجماهيري

المؤلــــف: أ.د. مصطفى الزائدي

الطبعــــة: الأولى

سـنة النـشر: 2011

رقـم الإيـداع: دار الكتب الوطنية . بنغازي . ليبيا
755/2010

ردمــــك: الوكالة الليبية للرقم الدولي الموحد
978-9959-68-107-2

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

اللجان الثورية 143

المقدمــة ..

الديمقراطية هي التعايش السلمي للأفراد ..

ذلك أن المجتمعات تتكون من مجموعة أفراد أحرار متساوون في كل شيء .. لكن كـلاً مـنهم يعمل لتحقيق ذاته وإشباع حاجاته ..

إن التاريخ الإنساني يسجل حالة صراع دائمة بين الأفراد الأحرار ومحاولات بعضهم لتنظيم المجتمعات وفرض التعايش بينهم، فكان لابد من أداة للحكم تتولى عملية التنظيم.

وكلما كانت أداة الحكم أكثر سطوة وقسوة كان التنظيم أكثر إحكامـا، لكـن مأسـاة الأفـراد كانت أشد وطأة. من ميزات الدكتاتورية، أحكام تنظيم المجتمعات- لكن ذلـك يـتم بإلغـاء الأفـراد تقريباً.

ومن هنا يكون الرباط الشرطي بين الدكتاتورية والقمع.. السؤال المطروح هل يمكـن إيجـاد آلية لتنظيم المجتمعات بعيداً عن أهوال الدكتاتورية؟.

النظرية الجماهيرية تقدم الإجابة العملية عن هذا السؤال التاريخي الهام الـذي يطرحـه النـاس في كل مكان وفي كل وقت.. نعم يمكن ذلك لو أصبح الناس هم أداة تنظيم أنفـسهم.. بـأن يـصبح الفرد.. كل فرد هو أداة حكم من خلال تبني فكرة السلطة الشعبية بإشراك مجموع الأفراد ليـصبحوا هم أداة الحكم..

وتقترح النظرية الجماهيرية الآلية العملية لذلك إذ ينـتظم الأفـراد في مـؤتمرات شـعبية تـؤول إليها كل صلاحيات أدوات الحكم في التشريع والتخطيط ووضع السياسة ومتابعة تنفيذها.. وتكوّن لجان شعبية تنفيذية تتولى تحت مسؤولية المؤتمرات الشعبية وبإشرافها تنفيـذ الـسياسات التـي يقرهـا الناس العاديون في المؤتمرات الشعبية.. عندئذ يتحقق التعايش السلمي الطوعي بين الأفـراد.. ومـن خلال ذلك فقط يتمكن الأفراد من التعبير عن أنفـسهم بحريـة، وتحديـد احتياجـاتهم والمـساهمة في

صنع التشريعات والبرامج التي تحققها لهم دون الحاجة إلى الدخول في صراع من أي نوع مع الآخرين لفرض مطالبهم.. إنها وسيلة سهلة وبسيطة وعملية وقابلة للتطبيق الفوري تحتاج فقط إلى شرارة لإطلاقها من خلال تبني المؤمنين بها للثورة الشعبية والدعوة لها وهذا أمر قادم لا محالة.. فالعالم يتقلب ولم يتغير وفقط يمكن تغييره إلى وضع أفضل بتبني المشروع الجماهيري.

*****

نهاية العهد الرأسمالي

أوكتافيا وحرية التعبير!!

طُردت أوكتافيا نصر محررة القضايا العربية في محطة الـسي إن. إن الفـضائية الأمريكيـة لمـدّة تقارب من ربع قرن من عملها في المحطة الإخبارية العالمية التـي تـدعي الـدعوة إلى حريـة التعبـير!! ونقل الأحداث كما هي!!.. لأن أوكتافيا عبرت عن حزنها وأسفها لوفاة السيد محمـد حـسين فـضل الله ليس من خلال عملها في المحطة بل في موقع تويتر الإلكتروني.. وبالرغم من أن الـسيدة أوكتافيـا نصر فقدت عملها لكنها بينت حقيقة ما يسمى حرية التعبير التي يدّعيها الغرب بـالرغم مـن حجـم التضليل الإعلامي الذي يمارسه.. والأكاذيب التي ينشرها.. والدعاوى الزائفة بأن الفرد في الغـرب يستطيع أن يقول ما يشاء دون تبعات مادية أو معنوية، فذلك حق مقـدس لا يجـوز المـساس بـه ولا يمكن أن يعاقب بسبب آرائه ومعتقداته.. لكن طرد أوكتافيا نصر من عملها لمجرد أنها أظهرت أسفاً وعبرت عن حزن لوفاة رجل تعرفه لكونها لبنانية الأصل يفضح دعاوى المؤسسات الغربيـة تلـك.. ويكشف أن حريـة التعبـير عنـدهم تعنـي فقـط حـق الإسـاءة إلى الآخـرين والاسـتهتار بثقافـاتهم ومعتقداتهم والتطاول على رموزهم، لكن التطرق -ولو تلميحاً- لأمور تفضح ممارسات الغـرب أو الحديث عن أشياء مغايرة لمحتوى المشروع الغربي أو تمجيد شخصيات معروفـة بمواقفهـا المعارضـة له.. حتى لو كان أسفاً عاطفياً لمـوت شـخص مـا.. أمّـا الجـرم الـذي لا يغتفـر فهـو الحـديث عـن الصهيونية وممارساتها الإرهابية ولو تلميحاً.. ذلك يستوجب عندهم العقاب في الحال دون تأخير أو تأجيل.

المؤسسات المسيطرة في الغرب لا تعير أي اهتمام للرأي العام، ولا تحسب له أي حـساب، ولا تهتم بما سيقال هنا ويكتب هناك.. المهـم بالنـسبة لهـم عـدم اخـتراق المحظـورات وتجـاوز الخطـوط الحمراء... فلم يغفر للسيدة هيلين توماس عمرها الذي جاوز التسعين ولا عملها بإخلاص وإتقـان ومهنية لعقود في المؤسسات الإعلامية في مركز صنع القرار الأمريكـي البيـت الأبـيض.. ولم يعطهـا ذلك الحق لأن تقول لمرّة واحدة ما تعتقـده وأن تعـبر عـن رأيهـا صراحـة في طبيعـة الـصراع العـربي الصهيوني.

البعض قد يحاول البحث عن الأعذار للنظام الغربي ويعطيه الحق فيما فعل، فهؤلاء ينحدرون من أصول عربية وإن كانت ثقافتهم غربية، فربما لهم شبهات إرهابية بشكل ما، لكنهم لن يجدوا تبريراً لإقالة الجنرال الأمريكي ستانلي ماكريستال.. الذي كان ينظر له في الغرب كقائد أسطوري للقوات الأمريكية التي تكابد الهزيمة النكراء في معركة أفغانستان.. فليس من حقه أيضاً أن يعبر عن رأيه وأن ينتقد أداء بعض السياسيين في الإدارة الأمريكية في التعامل مع الأزمة الأفغانية، فهو عارف ببواطن الأمور، مطلع على تفاصيلها.. يعي جيداً مآلها.. ويعني ما يقول.. فلم يكن هنالك مجال للانتظار.. كان عليه أن يرحل على الفور وأن يأتي العقاب حاسماً وصارماً..

المهم هذا قليل من كثير.. فالذاكرة لا تسعفنا لنستشهد بمصير مئات الكتاب والمحللين والمثقفين الذين يعانون الأمرين من جراء الجهر بآرائهم في الغرب القائم على أكذوبة حرية التعبير.. لأنهم يقضون في صمت ودون ضجيج حيث لا يسمح للمؤسسات الإعلامية أن تتناقل أخبارهم وتذكر الناس بأقوالهم وأفعالهم.. فليس أمامنا إلا بعض من الأمثلة الساخنة لأنها لازالت حاضرة في الأذهان لم تتمكن المؤسسات من إخفائها بعد.. المهم في الأمر أنهم لا يهتمون بالخدمات الجليلة التي قدمها أولئك الأفراد للنظام الغربي وجهودهم المضنية التي بذلوها للترويج له في المنطقة.. ولا شك في أن السيدتان هيلين توماس وأوكتافيا نصر عملتا ما في وسعهما لتقديم المشروع الغربي إلى العالم باعتباره نموذجاً يحتذى ومثلاً يقتدى.. وأسلوباً وحيداً لممارسة الحرية والديمقراطية.. ولن يتمكنا من تبيان حقيقته إلا بعد أن اكتوتا بنيرانه.

السؤال متى سيدرك الإعلاميون من أصول عربية وإسلامية الذين يعملون لدى مؤسسات الغرب أنهم مستغفلون.. مجرد تجار صغار لبيع بضاعة فاسدة وأنهم قد لا يجدون الوقت المناسب لاكتشاف حقيقة النظام الغربي، لأنهم عندئذ سيجدون أنفسهم ملقون في سلة المهملات.

قد يجد المرء العذر لبعضهم، فربما هم لا يعرفون حقيقة الحريات والحقوق التي يتبجح بها الغرب فوقعوا في مصيدة التضليل.. لكن العملاء والجواسيس الذين يقدمون خدماتهم للعدو عن سابق إصرار، ولا يتورعون في الإتيان بأي أمر مهما كان مرعباً.. حتى تخنقهم يد العدو التي لا تفرق بين عربي وآخر.. وآخر من تحترم الجواسيس والعملاء.

ولنا في تناول وسائل الإعلام لمصير أشرف مروان خير دليل.. فالوقائع تشير إلى أنه ربما كان عميلاً للموساد، عندما فقد أهميته التجسسية لصالحهم.. قاموا بإلقائه من شرفة شقته دون رحمة ولا شفقة.. يعيب بعض الصحفيين العرب على أجهزة الأمن البريطانية عدم جديتها في التحقيق بشأن مقتله.. وكأنهم يجهلون أن النظام الأمني في الغرب هو جزء لا يتجزأ من النظام الأمني الصهيوني.. بالرغم من أن الساسة الغرب لا يجدون غضاضة في التبجح بأن أمن بلادهم من أمن دولة الكيان.

المهم مات أشرف مروان أو قتل لكنه في كل الأحوال اختفى بين الأنقاض ولم يغن عنه ماله الذي جمع... ولم يغفر له حجم المعلومات التي قدمها للعدو.. لكن العبرة في قضية أشرف مروان تقدم إلى أولئك الذين لا يزالون يعملون لمصلحة العدو.. وإلى أولئك المغفلين الذين يروجون لمشاريعه في المنطقة وفي العالم.. متى تراهم يرون الأمور على حقيقتها ومتى تنقشع الغشاوة المزورة عن أنظارهم أم هم عميٌ صمٌ بكمٌ فهم لا يفقهون؟.

*****

همسات بين الضجيج

لن نذهب بعيداً .. في زمن الصخب .. يقول المرء كلاماً بصوت خافت .. كيف صارت حياة الناس .. وما هي الأحداث الجسام التي تحرك الجماهير.. مباريات كرة القدم حدثاً عالمياً يلهب مشاعر الصغار والكبار.. مواطن كيني انتحر لأن فريق أرسنال الإنجليزي خسر مباراة .. ما علاقة هذا بذاك .. كيف صار فوز أو خسارة الأرسنال مسألة حياة أو موت للناس في كينيا .. التي تعاني الفقر والتخلف ومآسي الصراع على السلطة.. مشجعون مهووسون .. لا يترددون في تقديم أرواحهم .. وأجسادهم ثمناً لفوز فريق ما.. مع أن مشاهدة مباريات كرة القدم لا تضفي أي شيء مادي أو معنوي على حياة الناس.. وهي... كرة القدم تتبدل كل يوم .. كل الفرق تفوز لتخسر.. وتخسر لتفوز وهكذا.. عدد لاعبي كرة القدم في النوادي الكبيرة يعد على الأصابع.. هم نفس اللاعبين تقريباً اليوم في هذا الفريق وغداً في فريق آخر.... من يشجع الناس إذاً ... اللاعب أم الفريق... أم أن الأمر سيان.. لكن شيء ما وراء الحدث.. هناك من يروج لأهمية ما بين الأحداث .. حتى ولو كانت مجهولة..من الذي يصنع من الحبة قبباً عديدة... ويجعل من حدث عابر أحداثًا جسام.. الناس اليوم حبيسي حالة من الضجيج... والصخب لن تجد فيه موطأً للغة العقل والتمعن والتفكر .... حالة تتجرد فيها الأشياء لتقدم كحقائق دون براهين .. محتوى الخطاب السائد أمر بين أمرين... في أغلب الأحيان... لعبة كرة القدم .. أو لعبة الانتخابات.. وكلاهما لعب .. فائز وخاسر... وتبادل للأدوار بنفس اللاعبين.. في كل يوم يحشر الناس في مكان ما من العالم في طوابير الانتخابات... التي ما إن تنتهي حملاتها الانتخابية حتى يطعن في نزاهتها وصدقية نتائجها .. فيدعي المراقبون .. ومراقبو المراقبين .. ثم تعاد الكرّة من جديد ..وبنفس الآليات .. كل يوم عندنا انتخابات مادة مثيرة للكلام ..سيتحدث الناس عن الديمقراطية ..وأهمية الديمقراطية .. في عالم مملوك للأفراد أو الشركات... تحت إمرة حكومة خفية.. ويحشد الوعاظ لتقديم دروس الإرشاد.. انتخبوا الأصلح .. الرجل المناسب في المكان المناسب .. كم من البرامج والمقالات والتحليلات ..وكل صنوف المديح والهجاء ..وأمامهم سترى آلاف الملصقات الورقية والقماشية والإلكترونية ..

انتخبوني أنا أصلحكم.. أعطوني أصواتكم من أجلكم ومن أجل مستقبلكم .. وهم إنما يدعون لأنفسهم ولتحقيق مآربهم هم دون غيرهم....لكن النتائج في أغلب الأحيان محسوبة مسبقاً.. ولن تفرز الأصلح .. وبمجرد إعلانها تبدأ الطعون .. ويستمر الحال على ما هو عليه إلى جولة انتخابية أخرى التي يتنافس فيها في أغلب الأحيان نفس الأسماء ونفس الوجوه.. وبنفس الشعارات.. ويخرج نفس الوعاظ .. لكن المشجعون المؤيدون لهذا المرشح أو ذلك لا يترددون في تقديم أرواحهم وأجسادهم ودمائهم ثمناً لفوزه في الانتخابات.. فيحدث الصدام ويقتل الناس البلهاء.. وتسيل الدماء... وتتحول المعركة الانتخابية في أحيان كثيرة إلى معركة حقيقية .. وقودها الأبرياء.. حيث يصعد الفائز ويهبط الخاسر على جثث الموتى.. لكن صوت خافت وسط هذا الضجيج ينتشر عبر الأرجاء... ما هذا الصخب ماذا حققت هذه المعارك الوهمية التي تصنعها الدعاية.. ويسيرها المرابون والمقامرون والسماسرة .. ويستفيد من نتائجها قلة تكدس المال أو السلطة.. ماذا قدمت للإنسانية والحضارة .. هل مكنت من حياة كريمة للأفراد والمجتمعات .. من يقف خلف آلة الدعاية الضخمة التي تصور تلك الأحداث وكأنها حقيقة تجري في ساحات القتال أو البناء.. من يقف خلف أندية كرة القدم .. ومن يروج لها .. ومن يكتنز عوائدها.. أسئلة بديهية تطرح نفسها .. لكن نظرة عابرة على الأرقام الفلكية التي يتقاضاها اللاعبون عند انتقالهم من ناد إلى آخر .. توضح ماهية القوة الخفية التي تقف خلف النوادي .. وتصنع الضجيج المصاحب لها .. وهي التي تصنع اللاعبين وتروج لهم ..إنها تجارة رابحة لكنها غامضة...

نفس القدر من الأسئلة يطرح حول الانتخابات ...عن من يسيرها ....ومن يقف خلف المرشحين ...ومن أين لهم الأرقام الفلكية لتنظيم حملاتهم الانتخابية ومن المستفيد من فوز هذا أو ذاك.. نفس اللعبة ونفس اللاعبين لكن ضجيج يخفي الحقيقة .. فلابد من الهمس إلى أولئك الغارقون في أحلام اليقظة .. التائهون خلف سراب الصحاري الحارقة.. هاتوا آذانكم.. اسمعوا صوت الحق.. هذه ألعاب مكشوفة .. مصممة لتنفيذ عمليات غسيل مبرمج للعقول حتى تعمى الأبصار عن الحقيقة .. وتحت عتمتها يتسلل اللصوص لسرقة آمال وطموحات الناس .. بعض الحذاق يبحثون عن أرباح لتجني لهم .. لا يهمهم أمرنا كثيراً.. ولا يهم عندهم أي فريق يفوز وأي فريق يخسر المهم أعداد المتفرجين في المدرجات.. أو المتابعين عبر الشاشات المرئية.. والباحثين عن

القنوات المشفرة.. أولئك أناس يبنون مجدهم على حساب عقولنا.. هذا ليس وقت للمزاح إنها ساعة الجد... لأن الثمن في أحيان كثيرة دماء تسيل منّا.. كيف لمواطن كيني أن يدفع حياته حتى يستفيد ذلك المرابي في لندن.. هذه الكؤوس العديدة تعني شيء واحد ...مليارات الدولارات في جيوب بعض الأشخاص .. وهذه الحملات الانتخابية.. نتيجتها معروفة أفراد قلّة في قبة البرلمانات .. وهي قبب من ورق.. هذا وقت تصغي فيه الآذان.. لهمس الحق .. كفانا دجلاً .. كيف نموت أو نحيا لأن فريق فاز أو آخر قد خسر.. مع إن اللعب في ملعبنا.. وعلى أجسادنا .. والمقامرة حول مستقبلنا .. حول مستقبل الأجيال القادمة منا .. حول هويتنا .. عواطفنا.. حول كل الأشياء المتعلقة بنا.. فالكرة التي تقذف هنا وهناك هي أجسادنا.. لكن الضجيج لن يستمر إلى الأبد .. ستكون ساعة ميلاد قادم .. سيجد الوعي طريق ما إلى الأذهان.. وستبنى مدرجات جديدة من نوع خاص .. حيث يمارس الناس جميع فنون اللعب.. لكنه سيكون لعبًا على المكشوف وبدون أثمان أي كانت .. غداً سيكون الصبح..ولن يجد أولئك اللصوص أضواء كاشفة تغطي ساحات الملاعب .. فيختبؤن خلفها .. لأن نور الصبح أكثر وهجاً من أضواء مصنعة .. سيعم نوره كل شيء ..

وغداً سيولد جيل جديد يجيد اللعب أمام الأضواء وليس خلف الكواليس والأبواب المغلقة .. لن ترجع خيوط الضوء إلى قلب الشمس ....لقد امتدت ....ومنها يولد كل يوم نجم جديد .. الكون يتكون لحظة همس .. بعد لحظة صمت .. وحتى الانفجار الأعظم إن صحت النظرية.. حدث لحظة سكون رهيب.. سيصير الهمس صوتاً مسموعاً مهمّا علا الضجيج في أوساط الليل.. فإن الناس.. تحس بأن شيء ما يقال عبر الأثير.. ستتردد موجاته لتطرق المسامع.

*****

ترانيم اليوم القادم

بين خيوط النور.. تظهر في شرفة المجد .. تطل على الناس .. تلقي موعظة ..عن اليوم القادم.. تطلق الوعد.. وتنشر الأمل بين الناس المكتوب عليهم البقاء في الماضي أو بين الأنقاض .. أو تحت الخرابات المدمّرة بأقدام مدنسة بالوحل أو خلف جدران محروسة بالجهل .. تكشف لعبة تصنيف الناس .. إلى بشر فوق .. وبشر في الأسفل محكوم عليهم الطاعة والسمع.. تطل يافعة الطول .. باسمة الثغر في يداها الموشحتان بلون الجنة .. صولجان ذهبي مرصع بأحجار نادرة.. تضعه فوق الرؤوس التي كانت منكوسة بالظلم .. فترتفع مع شعاع النور الهامات لتعانق الشمس.. ترسم صورة الغد أصلية بلون مخلوط من لون الذهب ولون العشب .. تتجه الأبصار إليها في عجب.. قادمة هي مع الفجر.. يلتحم بها الركب .. ترفع الأشرعة مع الريح في رحلة مقدسة إلى اليوم القادم .. جاءت بشائره .. تلتهب المشاعر منه .. وتنبهر الأبصار به .. سيكون ميلاد من نوع آخر .. وإن كان به عسر .. فاليوم القادم ليس كمثل الأيام السابقة المكسوّة بالحزن والخوف والقلق .. هو يوم قريب من اليوم الآخر.. ليس فيه مكان للزيف .. ولا الكذب.. ستسقط ورقة التوت عن القول والفعل .. ويعرف الناس أن من قال أن الناس سواسية في الماضي والحاضر.. امرئ يمارس هواية الكذب كمثل السياسيين الجاثمين فوق الأعناق.. يكتمون الأنفس ..

ومن قال أن الناس مجرد أرقام في حساب الربح أو ضمن أوراق اللعب في دور الميسر.. امرئ يجيد الكذب كبعض الكتاب الذين يصيغون حروفاً بلا معنى أو يكتبون قصائد المدح في أصنام من اللحم والعظم .. تخجل الكلمات أن تذكرهم.. فكيف يقول قائل فيهم قولاً من قبيل أنهم أصحاب الحكمة والكرم ويصبغ عليهم أوصاف الرجولة والمروءة والشهامة وهي منهم براء..

ومن يزمر ويطبل ويهلل لهذا الآتي من بين ركام النظام المنهار في رحلة الشؤم الثانية بعد نيكسون .. يحاول درء الأخطار ... مدفوعاً بالخوف من قرب النهاية المروعة لهم.. يحدث الناس رياءً

.. يبيع كلاماً بلا معنىٰ يتلقفه السفهاء فيجعلون منه إنجيلاً جديداً أو تلموداً آخر يضاف إلىٰ الكتب المزورة الموصوفة بالقداسة.. يخاطب الجهلاء بالحكمة والموعظة .. تسمعه فتحسبه بشراً .. وترىٰ الأفعال فتجد ملايين الضحايا في بغداد وكابول وطابور الموتىٰ بالجوع في غزّة.. يبرر الإثم بلغة اللطف ويصب الزيت علىٰ النار .. يقذف الوعود كرشاش يقذف الرصاصات دفعة واحدة .. يعمد حجته في بوخنفالد عند المحرقة المزعومة .. ليس سوىٰ امرئ يجيد الكذب كمثل أولئك المحللين المعهود إليهم مهنة التضليل تحت شعار حرية الرأي المرفوع اليوم عنواناً للحرية.. وتتآلف لأجله الجمعيات والمنظمات التي تقبض الثمن مسبقاً.. وتعقد حوله الندوات والمؤتمرات .. وتصاغ البيانات .. عن الرأي والتعبير .. حتىٰ تصير مقياساً لحديث الناس المتخمين والجوعىٰ .. يغط البعض في أحلام وردية حول المساواة والحرية... لكن قائلنا يقول لهم .. اكتب ما شئت وقل ما شئت فأنت إنما تخاطب نفسك ... تأكد أنك لن تجد عيناً تقلب الحرف الذي تكتب إلا إذا استساغته أو وجدت فيه لمحة صدق ما حول أمر تبغضه.. أو راءت بين السطور قصص أطفال مكتوبة للكبار فقط .. كم من الناس المحسوبة بأعداد المليارات .. يمتلك حرية القول والكتابة والحديث عن هموم الناس وآلام الماضي وآفاق القادم من التاريخ .. يقول الأطفال كيف تكون حرية التعبير التي يقولون عنها قولاً صادق.. وعدد الناس المسموح لهم بممارسة هذه الحرية المكذوبة ضئيل في نسبة أعداد البشر وتعداد مشاكلهم وأهدافهم وآمالهم وآلامهم .. إنها غطاء بلون مموه لممارسة الكبت وقمع الأصوات وكم الأفواه وصم الأذان.. و يقول الأطفال كم من الأوراق والأقلام والإذاعات نحتاج لو يسمح للناس فعلاً حق التعبير فيكتبون ويقولون عن كل الأشياء في خواطرهم ..الأطفال ببراءتهم يعرفون الأشياء علىٰ حقيقتها ويعبرون عنها بطريقتهم .. فهم عنوان مضبوط للإنسانية ... الأطفال ليسوا مخلوقات قصّر كما يوصفون في دفاتر الأحوال المدنية.. هم أكثر عقلاً من العقلاء الذين يتحدثون عن المستقبل بلغة الماضي.. من يعتمدون الكذب منهاجاً للدعوة الباطلة من الأصل..

المعرفة فرضت نفسها رغماً عن أدوات التجهيل وصارت حقاً مكتسباً .. لم يعد وجود لأشياء تعد من الأسرار المقدسة.. اليوم يتم الاستغناء عن خدمات الكتبة والمحللين والمنظرين والسياسيين

والمطالبين بحقوق الناس ومدعي الدفاع عن القيم.. سيتحولون إلى طابور طويل من العاطلين.. يضاف إلى ملايين المطرودين بسبب إفلاس الشركات الرأسمالية الكبرى .. اليوم يحتاج الناس إلى برامج معقدة لإعادة التأهيل.. حتى يلتحق أولئك القابعين في الماضي بمسيرة الغد الآتية رغم أنوف مكابرة كذباً.. لقد أشرقت الشمس فرأى الناس الصورة واضحة دون الحاجة إلى مناظير مكبرة .. ودون الحاجة إلى مراجعة دواوين الشعراء وأوصافهم.. وقصصهم الخيالية.. المحسوبة على لحظات عشق وهمية يصنع منها الشعراء خيالا.. الآن تصاغ حقيقة مقدسة من حقائق الكون.. سيعلن الإنسان بملء الفم .. أنا موجود هنا .. سأحضر مباشرة .. لن أتاخر عن الركب .. هذه مسيرة مظفرة .. نعرف جميع محطاتها المقبلة.. لن أسمح لك أيها الآخر أن تمارس الإقصاء معي.. لن أبقى ظلاً في الظل .. الآن ساعة من ساعات القدر التي يولد فيها الناس جميعاً .. تشبه لحظة البعث لأن الجنة الأرضية صارت معروضة يراها البشر بأعينهم .. سيسعون إليها .. ولن يجد الغاوون من صنف الشياطين من يستمع لمواعظهم إنها لحظة ميلاد اليوم القادم..

*****

التداول على السلطة

يُعرِّف شارل دباش التداول على السلطة بكونه " مبـدأ ديمقراطـي لا يمكـن وفقـه أن يبقـى حزب سياسي في السلطة إلى ما لا نهاية ويجب أن يعوض بأحزاب سياسية أخرى".

أما جان لوي كرمون .. فيعتبر أنه " ضمن احترام النظام السياسي القـائم يـدخل التـداول في الأدوار بين قوى سياسية في المعارضة أدخلها الاقتراع العام إلى السلطة ، وقوى سياسية أخرى تخلت بشكل ظرفي عن السلطة لكي تدخل في المعارضة " ..

ولعل المتأمل لهذين التعريفين يـرى التركيـز عـلى الجانـب الـوظيفي للتـداول .. أي طريقـة دخول وخروج أدوات السلطة وفقاً لهذا التعريـف فـإن التـداول يتطلـب آليـات وأدوات محـددة .. ومنها:

- وجود أحزاب سياسية حقيقية ومختلفة تتداول على السلطة.

- وجود انتخابات حرة ونزيهة تمكن الأحزاب المختلفة من التداول على السلطة.

ولا يتطلب التداول تغيير كافة مؤسسات الإدارة بالكامل بل الاكتفاء بتغيير قيادات بعـضها .. لأن ثبات المؤسسات وخاصة المهمة منها مثل الجيش والأمن والمؤسسات الاقتـصادية والمـوظفين الكبار والمؤسسات القضائية.. وغيرهم ضمان لاستقرار الدول، مع أنها أهم ركائز الـسلطة لقـدرتها على التدخل المطلق في شئون الأفراد والدولة.. ولا يمكن تـصور دولـة مـا دونـها مؤسـسات الأمـن والقضاء والاقتصاد .. أي أن التداول يستثني أهم مؤسسات الدولة.. لكن الـسؤال الذي أطرحـه .. ما هو حجم التداول الحقيقي على السلطة ؟ ..

لو تتبعنـا التـداول عـلى الـسلطة في الـدول الغربيـة لوجـدنا في بريطانيـا يتـداول العماليـون والمحافظون على السلطة دورياً منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ولم يتمكن أي حزب آخر من الوصول

إلى السلطة .. واقتصر المشهد السياسي فيها على صراع دائم بين الحزبين وبالرغم من هذا التداول النظري إلا أن سياسة بريطانيا ثابتة لم تتغير على الصعيدين الداخلي والخارجي .. وفي ألمانيا يتداول الديمقراطيون المسيحيون والاشتراكيون منذ عام 1969 .. مع وجود فترات قصيرة يتكون فيها تحالف بينهما على الحكم .. ويتم في تلك الفترات التداول عبر حزب وسيط صغير .. " الحزب الحر أو حزب الخضر" .. ولم يتمكن أي حزب آخر من المشاركة الفعلية في التداول .. وبالتأكيد ألمانيا المكبلة باتفاقيات الحرب العالمية الثانية وما نتج عنها من محدودية لدور الدولة الألمانية على الأصعدة الداخلية والخارجية .. لم تتغير سياستها على الإطلاق .. سواء كانت السيادة للديمقراطيين المسيحيين من اديناور .. إلى كول .. أو للاشتراكين من فيلي برانت إلى هلموت شميدت و جيرهارد شرودر.

في فرنسا بدأ التداول فقط عام 1981 عندما حقق الاشتراكيون والشيوعيون فوزاً في الانتخابات .. وتمكنوا من إزاحة الأحزاب اليمينية عن السلطة لأول مرة في تاريخ الجمهورية الفرنسية .. وسرعان ما سقط المد الاشتراكي ليعود اليمين بقوة إلى السلطة .. وللمرء أن يتساءل هل غيَّر ميتران كثيراً من سياسات ديستان أو أن ساراكوزي تغير كثيراً عن جاك شيراك .

في إيطاليا تمكن اليسار من تحقيق أول تداول على السلطة عام 1986 بعد أن هيمن اليمين على الحكم لمدة 40 عامًا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.. ومع أن الأزمة السياسية الإيطالية أكثر وضوحاً على الخارطة الأوربية إلا أن التداول على السلطة ظل محدود جداً .

في سويسرا لم تحدث حالة تداول على السلطة .. وإنما يتم استيعاب الأحزاب المعارضة في مؤسسات السلطة التشريعية والحكومة .. يلاحظ الأستاذ أندري أستاذ العلوم السياسية في جامعة لوزان أنه تاريخياً لم يتأسس النظام السياسي السويسري على التداول على الحكم ولكن على إدماج تشكيلات سياسية معارضة وقوى صاعدة ..

منذ ولادة الدولة السويسرية 1848 اقتصر تشكيل الحكومة على الراديكاليين .. أما الأحزاب الثلاثة المتبقية فالتحقت بالسلطة في الفترة ما بين 1891 و 1959 .. أي على مدى أكثر من

قرن هيمن وسط اليمين على الديمقراطية شبه المباشرة في سويسرا .. أما الاشتراكيون الذين يتواجدون كأقلية في البرلمان وفي الحكومة .. فلا يحلمون بحدوث تغيير كبير في يوم من الأيام .. يمكنهم من تكوين سلطة خاصة بهم في إطار مفهوم التداول.

مما تقدم يتبين أن أهم الدول الغربية التي تروج للتداول على السلطة هي في واقع الأمر لا تطبق هذا المفهوم لفترات طويلة .. فكرة التداول حديثة العهد من الأساس فقد بدأت تمارس عملياً بعد الحرب العالمية الثانية .. لكن التداول ظل محدود جداً .. فالأحزاب التي هيمنت على الساحة السياسية في أوروبا الغربية محدودة في عددها " حزبان فقط " ، وفي أغلب الدول الأوروبية المقسمة نظرياً بين يمين محافظ .. ويسار اشتراكي فإن الأحزاب الاشتراكية لم تتمكن من تولي السلطة إلا لفترات محدودة .. في بلدان معدودة.

لنتعمق في الموضوع بشيء من الدقة.. هل هناك تداول حقيقي بين الأفراد على السلطة أما أن النخبة الحاكمة محدودة جداً في أكثر الدول ادعاءً للديمقراطية ، وهنا أشير إلى بحث قدمه أحد الليبراليين الليبيين .. يقول أن عدد من تولوا مهام قيادية في ليبيا بعد الثورة لا يتجاوز 250 اسم .. واستخدم ذلك البحث المشبوه والذي لا يستند إلى قاعدة البحث العلمية .. استخدم من قبل الكثيرين للنيل من السلوك الديمقراطي للثورة .. فالبحث قدم أسماء لمن تولوا أمانات اللجان الشعبية العامة .. دون الإشارة إلى أن الإدارة الشعبية القائمة وفق إطار سلطة الشعب .. هي مهمة اللجان النوعية سواء المحلية أو العامة ، وإن دور أماناتها هي عمليات إدارية تنسيقية وليست قيادية أو توجيهية .. لكن المهم في الموضوع أن البحث لم يقدم مقارنة مع الآخر .. لنراجع التداول على الوظائف القيادية في الدول الغربية .. أعضاء البرلمان .. ما هي نسبة التغيير فيهم الوزراء وقيادات الأحزاب .. أخذين في الاعتبار حجم الديمقراطية الغربية وعدد السكان وما إليها ..

أنا لن أقدم أرقام لأني لم أجري ذلك البحث .. أتمنى أن يتصدى باحثٌ ما لهذا الأمر ويتعمق في دراسته .. الأمر الأكثر أهمية من كل ذلك هو أن إفرازات الأحزاب من الأفراد الذين يتداولون على أدوات السلطة ثابتة تقريباً ولا تتغير بشكل جدي .. فنظرة عامة على أعضاء الكونجرس

الأمريكي أو الجمعية الوطنية الفرنسية .. أو مجلس العموم البريطاني .. أو الكنسيت الصهيوني يرى أن الأسماء هي الأسماء .. أغلبها تكتسب عضوية دائمة مدى الحياة .. فعلى سبيل المثال عضو الكونجرس الشهير لانتوز حصل على عضوية في الكونجرس منذ عام 1952 .. واستمر إلى ما شاء الله ..!! أما جوزيف بايدن الذي اختير أخيراً نائباً لأوباما فقد دخل المجلس 1971 وهو يعتبر من العناصر الجديدة في الكونجرس .. أما أوباما نفسه .. الذي يمثل الجيل الجديد في الكونجرس فتعود عضويته إلى العام 1996 عندما انتخب عن ولاية الينوي .. ومنذ ذلك الوقت وهو أصغر الأعضاء سناً في مجلس الشيوخ .. وبالتأكيد ستستمر هذه العضوية لعقود قادمة.

أما تيد ستيفان .. الذي يطلق عليه في ألاسكا العم تيد ، وهو نموذج للسياسيين الفاسدين في الولايات المتحدة .. فقد بقى عضواً بالكونجرس 40 عامًا منذ انتخابه عام 1968 .

إن متابعة دقيقة لكل أعضاء البرلمانات في الدول الغربية ستوضح أنهم ثابتون لا يتغيرون إلا قليلاً .. ونادراً ما يدخل أعضاء جدد إلى تلك المجالس .. أنا أستطيع القول بأن بضع مئات من الناس يسيطرون على سياسة العالم لفترات طويلة جداً من خلال تواجدهم المستمر وسيطرتهم على برلمانات الدول الغربية منذ الحرب العالمية الثانية .. إن فكرة التداول على السلطة فكرة نظرية بحتة لا تطبق على أرض الواقع .. إنها تغيير أدوار فقط .. فالانتخابات الحرة والنزيهة .. الشرط الأساسي للتداول لا توجد .. وقد بيّنا ذلك في مقال سابق .. جماعات المصالح الرأسمالية وجماعات الضغط اليهودية لها الدور الحاسم في نتائج الانتخابات تقريباً في كل دول العالم في القرن المنصرم .. وبداية هذا القرن المسيحي الجديد ..

من جانب آخر لا توجد أحزاب من الناحية العملية أنها مجرد تكتلات انتخابية لا أكثر ولا أقل .. ومع هذا فإن حجم التداول بين تلك الأحزاب الوهمية ضئيل جداً مقارنة بالضجة الإعلامية المثارة حول مفهوم التداول وأهميته للديمقراطية الغربية .. لكن واقع حال التداول لو نظر إليه من خلال نسبة التغيير في مؤسسات القرار السياسي في الدول الغربية فهو محدود من الناحية العددية فأعضاء تلك المؤسسات التشريعية والتنفيذية ثابتون لا يتغيرون .. إنها مؤسسات تكرس ديمومة

سيطرة أفراد بأسمائهم على السلطة .. أما المؤسسات الأكثر أهمية في بسط نفوذ الطبقة الرأسمالية على السلطة فلا تمتد لها يد التداول من الأساس .. وهي ثابتة ودائمة..

عندما تمكن الحزب الحر في النمسا من الفوز في الانتخابات وشكل تحالف مع حزب الشعب اليميني الأمر الذي أنذر من شبه تغيير في شكل المؤسسة الحاكمة في النمسا .. وهي بلد صغير محايد .. لا يؤثر كثيراً في السياسة الدولية .. تم حصار النمسا وتجميد عضويتها في مؤسسات الاتحاد الأوروبي حتى استبعد الحزب الحر عن المشاركة في السلطة بالرغم من تخلي رئيس الحزب آنذاك يورج هايدر عن منصبه .. واستقالته من الحزب.

إن فكرة التداول على السلطة وإن كانت مرفوضة من الناحية المبدئية حيث تُمكن قلة من التداول على حكم الكثرة .. فهي غير موجودة من الناحية العملية .. فماذا تراهم يريدون أولئك الذين يرددون الشعارات كالببغاوات .. لا يعقِلون ما يقولون..

*****

نهاية الديمقراطية الحزبية

العمود الفقري للديمقراطية التي يريد الغرب فرضها على العالم هي الحزبية .. حيث حرية إنشاء الأحزاب وتعددها وتداول السلطة بينها هو السمة السائدة في العالم اليوم.. وهو الصوت الطاغي على كل الأصوات حتى إنه يمكن اختزال الحالة السياسية في عملية صراع مستمر بين الأحزاب.. فكيف بدأت ظاهرة الأحزاب .. وما هي نشأتها وأهدافها وأين موضعها من الدساتير الحديثة التي تحكم العالم.. وبالرغم من الانتشار الواسع للأحزاب في العالم إلا أن الدراسات حولها محدودة جداً.

يقول ديفرجيه – وهو من أوائل من تعرضوا للأحزاب بدراسة جادة مقارنة حوالي سنة 1950 – إن الموضوع جديد وتكتنفه صعوبات.. وسبب ذلك أن تنظيم الأحزاب يرتكز أساسًا على عرف وعادات غير مكتوبة .. وحتى لو وجدت نصوص مكتوبة منظمة لكيفية سير العمل داخل الحزب فإنها لا تتعرض إلا للقليل من المسائل.. ونادرًا ما تعكس ما يجري من الناحية الواقعية لأنها نادرًا ما تطبق تطبيقًا جامدًا.. ومن ناحية أخرى فإن طريقة سير وحياة الأحزاب تكون عادة محاطة بغموض، وليس من السهل الحصول على معلومات من القائمين على الأحزاب لأنهم يتعمدون الاحتفاظ بأسرارهم وعدم البوح بها .. وفي رأي ديفرجيه يعني هذا أن النظام القانوني للأحزاب بدائي .. قوانينه وطقوسه سرية .. يحاول القائمون عليه جاهدين إبقاءه بعيدًا عن أنظار عامة أفراد الشعب .. بل إن معرفة أسرار ومناورات الأحزاب لا تتوفر إلا لدى المناضلين القدامى من كل حزب.. وهؤلاء ليس لديهم قدرة على تقديم صورة موضوعية لما يجري داخل الأحزاب.. كما أنهم يرفضون التحدث والإدلاء بالمعلومات التي لديهم..ومن هنا لا تتوفر معلومات من مصادر حزبية تكفي لإعداد دراسة موضوعية عنها..

أصل الأحزاب في الدول المتقدمة:

بدأت الأحزاب في الظهور مع الثورة الفرنسية بعد التحول التاريخي حيث صار الشعب يختار الملك .. وقد نشأت الأحزاب من خلال طرق مختلفة:

1 -أحزاب نشأت داخل البرلمانات ومن تنظيم الناخبين:

تتلخص هذه الطريقة في أن مجموعة برلمانية تتكون ثم تظهر جماعات منظمة من الناخبين les comités électoraux تسمى لجان الناخبين ويتبع ذلك إقامة علاقة دائمة بين هذين العنصرين.

وهذه الطريقة تتمشى مع طبيعة سير الأمور داخل المجالس النيابية وهو تعدد الآراء، وتجمع الأعضاء المتفقين في الرأي وظهور انقسامات داخل البرلمان، ثم تنظيم هذه الانقسامات في الرأي في شكل مجموعات برلمانية.

وقد يرجع الانقسام في الرأي إلى اختلاف الإيديولوجيات أو إلى اختلاف المصالح، والأمثلة على ذلك كثيرة.

بدايتها داخل الهيئة التأسيسية في فرنسا في سنة 1789 انقسمت آراء أعضاء الهيئة وتجمع ممثلو كل إقليم في مجموعة برلمانية.. ومن هناك بدأت فكرة اليسار واليمين.

2 -أحزاب نشأت من النقابات والكنائس والجماعات الدينية:

توجد أحزاب نشأت نتيجة لمساندة قوية من هيئات متعددة مثل النقابات والكنائس والجماعات الدينية والخلايا السرية.

ولعل أهم مثال على حزب نشأ من النقابات هو حزب العمال البريطاني فقد نشأ على إثر قرار اتخذه مؤتمر الانتخابات العمالية والذي أنشأ تنظيمًا من البرلمانيين Trades unions سنة 1899 من الناخبين .. ولعل هذه النشأة هي التي تفسر لنا العلاقة الوطيدة بين حزب العمال والنقابات حتى الآن.. ومن هنا يميز الفقه بين نوعين من الأحزاب الاشتراكية :الأحزاب الاشتراكية ذات النشأة النقابية وهذه تعتبر أحزابًا اشتراكية بمعنى الكلمة وأحزاب اشتراكية أنشأها برلمانيون مثقفون وهذه تعتبر أحزابًا اشتراكية نظرية وأقل واقعية من الأحزاب الأولى.

أما الكنائس والجماعات الدينية فأثرها هام في نشأة الأحزاب في أوربا.. فقد تدخلت الكنيسة الكاثوليكية في نشأة الأحزاب قبل سنة 1914 وفي نشأة الأحزاب الديمقراطية المسيحية المعاصرة.

لقد كانت الكنيسة وراء الحزب المحافظ الكاثوليكي في بلجيكا.. وكذلك الحال بالنسبة للحزب الديمقراطي المسيحي الإيطالي.. والحزب الديمقراطي المسيحي الألماني..وغيرها ومهما تعددت الأحزاب إلا أنها لا تعدوا كونها:

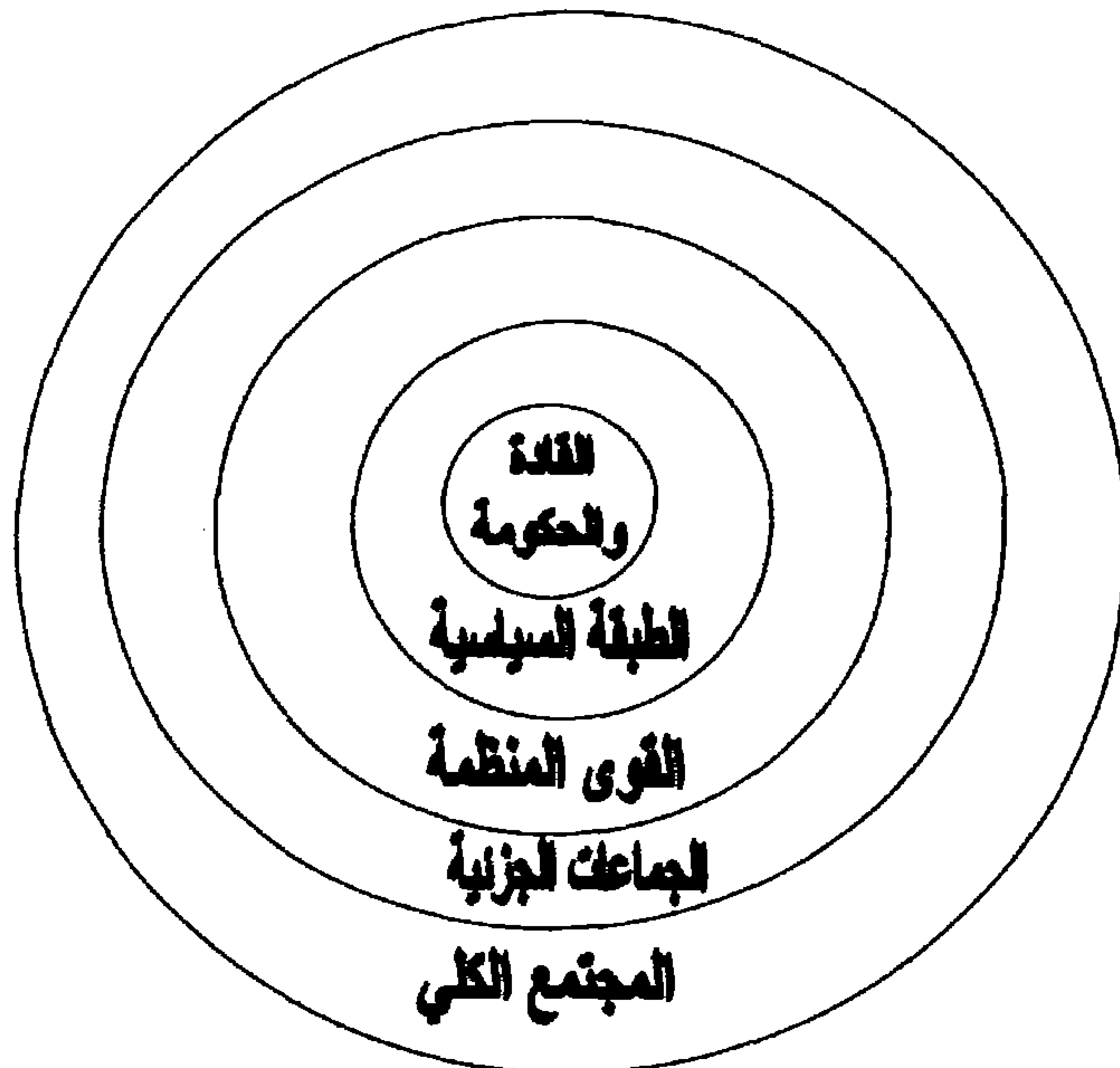
(أ) أحزاب القلة المختارة Les partis de cadres:

كانت أحزاب القلة المختارة أسبق إلى الظهور في الحياة السياسية ، وهي أحزاب تهدف إلى جمع الشخصيات البارزة ذات النفوذ، فهي تهتم بنوعية الأعضاء ولا تلتفت إلى كثرة عددهم La qualité leur impore plus que la quantité

(ب) أحزاب الجماهير les partis de masses :

ظهرت أحزاب الجماهير في الدول الغربية مع انتشار الاشتراكية ثم الشيوعية .. وقد كان للأحزاب الاشتراكية فضل ابتكار هذا الشكل من أشكال الأحزاب مع بداية القرن العشرين.. ثم نقلت الأحزاب الشيوعية والأحزاب الفاشية عن الأحزاب الاشتراكية هذا الشكل الجماهيري للحزب مع إدخال تعديلات غير جوهرية على النظام .. بل أن بعض الأحزاب المحافظة والليبرالية والمسيحية حاولت تقليد هذا الشكل متخلية عن نظام حزب القلة.

الأحزاب الجماهيرية الاشتراكية :تبنت أغلب الأحزاب الاشتراكية شكل الحزب الجماهيري، حتى أن حزب العمال البريطاني بدأ منذ سنة 1927 يقبل العضوية المباشرة في الحزب.. بحيث أصبح الحزب مركبًا من تشكيلين : أحدهما غير مباشر وهو التشكيل الذي أوضحناه والذي يقبل أعضاء من الأشخاص البارزين في نقابات أو جمعيات وتشكيل مباشر مكون من جماهير انضمت إلى الحزب دون اشتراط انتمائها إلى نقابات أو جمعيات.



الأحزاب السياسية في الدساتير :

بالرغم من أهمية الحزبية في النظام الغربي إلا أنها لا تظهر في الدساتير السائدة وهذا أمر يبدوا غريباً فعلى سبيل المثال لم يرد ذكر للأحزاب في دستور الولايات المتحدة سواء الدستور الأصلي الصادر من 1787 أو تعديلاته التي تزيد على عشرين تعديلاً .

في فرنسا المادة 4 من دستور 1958 الفرنسي تنص على أن "تسهم الأحزاب والجماعات السياسية في التعبير عن الرأي بالاقتراع وهي تتكون وتباشر نشاطها بحرية .. ويجب عليها احترام مبادئ السيادة الوطنية والديمقراطية" وهي المادة الوحيدة في الدستور الفرنسي التي ورد فيها ذكر للأحزاب السياسية.. أما بقية الدساتير فلا يكاد يعثر لها على أثر.. مع أنها صلب العملية السياسية التي تقوم عليها تلك الدساتير.

تمويل الأحزاب

من أهم الأسرار التي تحيط بالأعمال الحزبية عدم وضوح مصادر التمويل وغياب الشفافية بها .. وغموض آلية التصرف.. الأمر الذي أدى إلى عديد المسألات القانونية لقادة الأحزاب لن يكون آخرها استجواب عبد الله جول رئيس الجمهورية التركية .. أو استجواب هلموت كول أو الاتهامات الموجهة إلى جاك شيراك .. أو السؤال عن مصدر المليارات التي صرفها أوباما على حملته الانتخابية ..لكن المعلن أن مصادر التمويل هي :

1 - اشتراكات الأعضاء..وهي في العادة قيم رمزية ضئيلة لاتفي بمتطلبات العمل الحزبي.. وهي فقط لضمان استمرار انتماء الأعضاء إلى الحزب.

2 - تبرعات من الأشخاص أو الشركات بشرط أن تكون معلنة وأن تكون من مصدر مشروع إذ تجرم القوانين التبرع من عائد القمار أو أي تجارة غير مشروعة.. وهي المصدر الرئيسي للأموال التي تجنيها الأحزاب حيث تنظم حملات معلنة لجمع التبرعات في كل المناسبات.

3 - دعم مخصصات مالية من الدولة لصالح الأحزاب وفي أغلب الدول تحصل الأحزاب الكبرى المهمة على نصيب الأسد منها .. وعادة ما تكون تلك الأحزاب هي الحكومة لفوزها في الانتخابات أو متربصة بالحكومة أي أنها أداة السيطرة على السلطة.

4- التمويل الخفي.. وهو الدعم الخارجي السري في أغلب الأحيان للأحزاب خاصة في الدول النامية من قبل جهات ذات علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالحكومات الغربية.. حيث إن أغلب الأحزاب في العالم الثالث تمول من جهات غربية مشبوهة.. لخدمة أجندة الدول الغربية والدفاع عن مصالحها..

نهاية الحزبية :

لقد انتهى فعلياً عصر الحزبية.. ولن يمضي وقت طويل حتى تصبح من ضمن التاريخ الإنساني.. لقد ظهرت الحزبية عملياً عام 1850 م مع بداية تطور النظام السياسي والتحول نحو مشاركة الناس في اختيار حكامها ضمن منظومة النظرية الجمهورية.. ولعبت الأحزاب دوراً مهماً في ترسيخ النظام الجمهوري .. وساهمت بالتأكيد في تحقيق تحول نحو المشاركة الشعبية في السلطة .. لكنها تحولت بعد وقت ليس طويل إلى حجر عثرة أمام التحول الحقيقي نحو الديمقراطية.. فتجاوزتها الشعوب .. وبنظرة معمقة في المشهد السياسي اليوم في العالم .. ودور الأحزاب فيه.. ورغم محاولات التشبث العبثي بالحزبية كمكسب مهم للديمقراطية.. نلاحظ بوضوح الواقع السيئ للأحزاب السياسية في الدول الغربية التي أخذت في التلاشي بسرعة عالية لم يتوقعها الكثيرون حتى قبل عقود قليلة من الزمن.. وانهارت بنفس سرعة انهيار منظومة الاتحاد السوفيتي في التسعينيات .. حتى أننا لا نجد لها أثر عملي في كثير من البلدان الغربية التي لعبت فيها الأحزاب السياسية دوراً محورياً.. وحل محلها منظومة جديدة من المؤسسات ما يعرف اليوم بالمجتمع المدني في شكل جمعيات وجماعات قاعدية.. وهذا يفسر تناول وسائل الإعلام الغربية لحال الأحزاب اليوم .. وحجم التقارير والكتابات التي تجمع أن الأحزاب انتهت عملياً في الغرب .. ويمكن الاطلاع على شبكة

المعلومات الدولية وما تحويه من مواد إعلامية منشورة حول الموضوع .. إلا أنني أشير إلى تقرير للإذاعة الألمانية حول الأحزاب في ألمانيا نشر بتاريخ 11.9.2007 بينت أن التغيرات الدولية المحلية والدولية أدت إلى تضاءل عدد أعضاء الأحزاب الألمانية.. واهتزاز كبير في ثقة المواطنين فيها.. ولم تستثني الأحزاب العريقة " كالحزب الديمقراطي المسيحي والحزب الاجتماعي الديمقراطي " فهذه الأحزاب أصبحت تغير مواقعها ولم تعد هناك حدود اختلاف أيديولوجية تحدد المسافة الفكرية بينها .. فبرامجها في مجملها نسخة مكررة .. والسياسة الناتجة عن سيطرة الأحزاب تقريباً واحدة .. سواء كان تحالف كبير بين الأحزاب الكبرى وتحالف بين حزب كبير وآخر صغير.

يقول التقرير: الكثير من الألمان أصبحوا ينأون بأنفسهم عن الأحزاب الكلاسيكية.. ويتسائل التقرير هل هذه هي بداية النهاية للديمقراطية الحزبية ؟..

النائب الألماني عن حزب الخضر أوميدنوريبور.. يري أن الحالة السياسية السائدة اليوم هي عبارة عن أحزاب محبطة وديمقراطيون منهكون .. أما الدكتور ديتمار جورجن رئيس المؤسسة الليبرالية يقول في حوار له مع الإذاعة الألمانية 13.9.2007 .. أن مؤسسات المجتمع المدني الناشئة هي بديل للأحزاب السياسية.. وتضعها أمام اختبار صعب.. ويرى أن الشباب لا يعيرون أي اهتمام للأحزاب السياسية.

الأستاذ توماس ماير أستاذ العلوم السياسية في جامعة دورتموند الألمانية .. يرى أن بروز ظاهرة يمين الوسط .. ويسار الوسط .. يعني انتهاء الحد الإيديولوجي بين الأحزاب اليمينية واليسارية..

ويرى أن الأحزاب الكبرى في ألمانيا تعاني من أزمة العضوية .. أما في أمريكا .. فالأحزاب أصلاً غير موجودة بالمفهوم الأوروبي.. وتحولت إلى جماعات وكتل تصويتية متغيرة فمنذ انتخابات عام 2000 م أصبحت الانتخابات الأمريكية عبارة عن كتل تصويتية .. فالرئيس المنتخب لا يعتبر مرشح لحزب ما أو مدافعاً عنه .. وإنما يعبر عن مصالح كيانات اقتصادية عملاقة تنتظم فيما يعرف بجماعات المصالح .. الحزبان في أمريكا ليس سوى قناتين لتوصيل المرشح إلى الرئاسة بغض النظر

عن انتمائه الحزبي .. والمتابع للسياسة الأمريكية يرئ كيف أن أغلبية ديمقراطية في الكونجرس .. لم تغير توجهات سياسة الإدارة الأمريكية الجمهورية .. وحملات ماكين .. وأوباما .. لا تختلف فيما يخص المحاور الرئيسة للسياسة الداخلية والخارجية.. من دعم لدولة الكيان الصهيوني .. إلى المناداة بخفض الضرائب .. والحرص على السيطرة على مواقع الطاقة .. وغيرها . فهل توجد حياة حزبية .. بالمعنى السياسي والإيديولوجي للكلمة في الولايات المتحدة .. الحزب في أمريكا لا يعتمد على فئات اجتماعية معينة.. فهو يضم شرائح متنوعة .. ونجاح المرشح الحزبي لا يعتمد بالأساس على أعضاء الحزب .. فمركز الثقل ليس الأعضاء المنتمين للحزب .. وإنما الفئات والكتل التصويتية التي يلتمس المشرح أصواتها .. ويعدها بتحقيق مصالحها وعلى سبيل المثال .. منذ اغتيال كيندي 1963 م لم ينجح أي مرشح ديمقراطي في الوصول إلى الرئاسة من الشمال .. فكارتر وكلنتون من ولايات الجنوب التي تتميز بالاتجاهات الاجتماعية والدينية المحافظة .. ويجمع المحللون أن الحزب الجمهوري .. لا يحكم في الفترة من 2000 إلى 2008 وإنما يحكم تحالف المحافظين الجدد واليمين الديني الجديد .. في أمريكا لم يعد وجود فعلي للأحزاب حيث حل محلها جماعات المصالح والكتل التصويتية.

أما في بريطانيا حيث قاد توني بلير ثورة في حزب العمال لينهي التوجه اليساري وسيطرة نقابات العمال .. ويحوله إلى حزب جديد لا يختلف كثيراً عن حزب المحافظين .. وبالرغم من أن بلير الذي اجتاح الانتخابات النيابية في التسعينيات وفاز بأغلبية ساحقة لم يتمكن من الحفاظ على سيطرة حزبه لفترة طويلة .. و بدأ تصدع الحزب والانقسامات داخله .. واضطر للتنازل عن القيادة لبراون الذي يواجه الآن مصاعب حقيقية .. سببها انتهاء الحزب من الناحية العملية .. الأمر الذي شجع ديفيد ميليباند وزير خارجية بريطانيا للتخطيط للإطاحة ببراون وخلافته في حكم بريطانيا وهو يهودي الديانة .. بالتأكيد سوف يستخدم سيطرة اليهود على المؤسسات الاقتصادية والإعلامية في بريطانيا لاستخدام حزب العمال الذي لم يعد كذلك مطيه للوصول إلى حكم بريطانيا .. مايكل هاورد وهو يهودي أيضاً وصل إلى قيادة حزب المحافظين " المفترض أن المجتمع البريطاني بروستونتانتي " وهذا يبين التغيير المهم في بنية ذلك الحزب..

أما فرنسا .. فإن المعطيات السياسية السائدة تبين اندماج شامل بين يمين الحزب الاشتراكي ويسار الحزب اليميني .. وبروز قوة جديدة يمثلها ساركوزي وكوشنير .. وهي قوة ليست حزبية بالتأكيد وإنما هي نتاج سيطرة قوة اقتصادية وإعلامية معينة على الساحة السياسية .. لقد حاول لوبان تأسيس حزب يميني حقيقي خاصة بعد اضمحلال الحزب الشيوعي .. لكنه باء بالفشل لأن الإيديولوجية الحزبية لم تعد تستهوي الشباب .. هل يمكن تصنيف شيراك بأنه يميني .. وميتران يساري سواء في السياسة الخارجية أو الداخلية ؟..

الحقيقة الوحيدة أن مؤسسة الحزب العريقة في فرنسا .. لم تعد موجودة .. ويتم استغلال مؤسسات التواصل مع الجماهيرية لتمكين أفراد معينين من السيطرة على الحكم .. والحالة أكثر وضوحاً في إيطاليا .. فإن إيديولوجية المال وحدها مكنت بيرلسكوني من السيطرة على المشهد السياسي الإيطالي .. لا أحد في إيطاليا يقدم بيرلسكوني كممثل لليمين أو يمين الوسط .. هو فقط نتاج تمكن مجموعة المصالح من فرض إرادتها على إيطاليا .. والحال واحد تقريباً في كل أوروبا الأمر الذي أدى إلى اختفاء الزعماء الذين يتمتعون بشخصية كارزمية قيادية تسمح لهم بفرض توجيهات إيديولوجية معينة .. وحل محلهم موظفين ساميين يخضعون بالمطلق لسيطرة أصحاب المال والقوى المالية التي تسيطر على الإعلام .. وبكل بساطة لو ذهبت إلى أي مدينة أوروبية فلن يسترعى انتباهك المنظمات الحزبية .. ولن تستهويك المناشط الحزبية المنعدمة..

السلطة في الغرب هي سلطة الموظفين الذين يوجهون من قبل إفرازات أصحاب المصالح .. وهذا سبب كاف لعدم تغيير سياسات الدولة الغربية ليس لأنها مؤسسة وثابتة .. وتقوم على استراتيجيات كما يدعي البعض .. أو لأنها إفراز لاستقرار التجربة الحزبية .. إذ لو كانت الأحزاب تتداول على السلطة في الغرب كما يدعي أصحابها .. لما كانت السياسات الداخلية والخارجية ثابتة .. ولتغيرت جذرياً مع كل تداول جديد على السلطة .. على أساس أن الأحزاب الكبرى تطرح نفسها وكأنها متناقضة كلياً مع بعضها البعض .. عندما فاز حزب يميني في النمسا وتمكن من المشاركة في الحكم .. ثم فرض حظر أوروبي على النمسا حتى سقط ذلك الحزب أو أُسقط .. لكن التحليل الموضوعي لتلك الأحداث يبين أن الأحزاب سقطت أو أُسقطت بواسطة مؤسسات أو شخصيات دكتاتورية هي أشد عسفاً وجبروتاً من دكتاتوريات العالم الثالث.

في الوطن العربي:

في الوطن العربي .. لا توجد أحزاب أصلاً لنتحدث عن نهايتها .. فهي في معظمها ليست سوى مسميات أطلقت في إطار تقليد الدول الغربية.. الواقع في أغلب الدول العربية يختصر المشهد السياسي في شخص حاكم مفرد .. بمسميات متعددة وأجهزة أمنية تعمل على تأمينه وتتبعه شخصياً .. وعندما يتغير ذلك الحاكم بالقضاء والقدر .. يتغير جذرياً ولاء أجهزة الأمن .. أما التسميات الأخرى لأجهزة ومؤسسات الدولة فهم لا يتعدون كونهم موظفون بدرجات مختلفة لا يقدمون ولا يؤخرون سواء كانت صفاتهم رؤساء حكومات أو وزراء أو مدراء أو أحزاب أو نقابات ..

وهكذا حال الأحزاب التي ظهرت في الوطن العربي بعد نهاية الحرب العالمية الأولى صدفة .. ومن الطريف أن أهمها لم تكن سوى حركات جماعية بدأت كوفود تطالب المستعمر بتحقيق الاستقلال عن الدول التي انتصرت في الحرب .. ولقد احتفظ حزب الوفد المصري بهذه التسمية إلى اليوم .. خلافاً للحزب الدستوري الحر التونسي .. الذي تكون كوفد من الوطنيين التوانسة ذهب إلى باريس أسوة بوفد سعد زغلول .. وضم كلاً من عبد العزيز الثعالبي ، صالح فرحات ، محيي الدين القليبي ، أحمد توفيق المدني ، حمودة المستيري والحبيب زويتين .. وتحول بعد ذلك إلى حركة سياسية..

وحزب الاستقلال في المغرب .. الذي نتج عن وفد من عبد الرحيم أبوعبيد والمهدي بن بركة .. وآخرون ذهبوا ليطالبوا بالاستقلال وعودة الملك المنفي محمد بن يوسف الذي كان قد انضم إلى الحركة الوطنية .

لقد هيمن حزب الوفد المصري الذي تأسس عام 1924م .. بعد أن اعتقل سعد زغلول في مالطا عام 1919 م وما تبعها من انتفاضة شعبية هيمنت على الساحة المصرية من 1924 م إلى 1952 م .. أما الحزب الدستوري التونسي الجديد الذي أعلنه الحبيب بورقيبة بدل الحزب الدستوري التونسي الحر الذي أسسه عبد العزيز الثعالبي .. فقد تخلى عن مبدأ الاشتراكية عام 1969 م .. ثم سمح بتكوين أحزاب كلها خارجة عن عباءته تقريباً ..

أما الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية في المغرب الذي انشق عن حزب الاستقلال فقد تمكن من الصمود في الساحة السياسية المغربية لفترة طويلة.. لكن المرء لن يجد فارقاً أيديولوجياً يميزه عن حزب الاستقلال الذي تفرع منه.

هذه هي الأحزاب العربية التي توازي الأحزاب الأوروبية سواء الديمقراطية المسيحية أو الديمقراطية الاشتراكية .. أي ذات التوجه الليبرالي .. فهي تجمعات تضم عناصر تعمل في بعض الأحيان لمصالح وطنية .. وظهرت كنتاج لنضال الشعب من أجل الاستقلال .. وتمكنت بعد خروج المستعمر من بسط هيمنتها السياسية على البلاد العربية .. وحافظت على ما قام به الاستعمار من تجزئة وتبعية .. فمكنت للإقليمية .. ونظّرت للتشردم ، وهي لم تنتج عن تباين طبقي أو اختلاف إيديولوجي ، ولم تعبر على فئات اجتماعية محددة .. إنها مزيج من أفراد يختلفون على كل شيء .. ويجتمعون على الحكم .. الذي لم يصلوا إليه .. أما الأحزاب الإيديولوجية .. التي تبنت أطروحات نظرية للتعامل مع الواقع العربي على أسس قومية أو دينية .. فنظرة على تكوينها .. نرى أن حزب البعث العربي الاشتراكي الذي تأسس في سوريا في 7/ 4/ 1947 م بواسطة زاكي الأرسوزي وميشيل عفلق ونديم البيطار متأثرين بثورة رشيد علي الكيلاني في العراق ضد الإنجليز عام 1941 م .. ويقدم طرحاً هو عبارة عن مزيج بين القومية والاشتراكية والعلمانية .. ظهر كمحاولة لبناء الدول العربية الواحدة وحاول تعبئة الطاقات العربية الشابة تحت شعار الوحدة والحرية والاشتراكية .. إلا أن المجتمع العربي المؤسس اجتماعياً لم يستطع استيعاب الطرح البعثي كآلية لقيام الوحدة العربية، وكانت الثورة الناصرية الشعبية نهاية عملية لهيمنة البعثيون على المشروع القومي ، ولم يتمكن البعثيين من الصمود كحزب ذو إيديولوجية قومية محددة .. وكان لإتباعه أسلوب الانقلابات العسكرية للوصول إلى الحكم الضربة القاضية التي حولته إلى مؤسسة فاشية تتكون من الموظفين، وسقط البعثيون الحقيقيون أمام الانتهازيين ..

أما الأحزاب الشيوعية التي رأت في استيراد المشروع الماركسي حلاً أممياً لمشاكل الإنسانية .. فلم تجد قاعدة شعبية حقيقية ولم تتمكن من تكوين تواجد سياسي على الأرض .. وتحول شيوعيوا الأمس إلى أشرس المدافعين عن النظام الليبرالي اليوم.. ويمكن مراجعة الأسماء والمسميات التي لا مجال لحصرها ..

وعن الأحزاب الإسلامية .. التي تأسست من خلال جماعة الإخوان المسلمين بواسطة حسن البنا عام 1928 م في مصر كمجموعة للدعوة والإصلاح .. ما لبث أن تحول إلى أداة للبحث عن السلطة .. إن أعضاء الأحزاب الإسلامية قليل جداً مقارنة بأعداد المسلمين .. يقول د. عبد الستار المليجي القيادي في جماعة الأخوان المسلمين في حوار مع جريدة "المصري اليوم " بتاريخ 25/ 7/ 2008 م .. أن عدد أعضاء الجماعة في مصر لا يتجاوز 5000 فقط خمسة آلاف عضو لا غير.. منهم فقط 85 أعضاء مكتب الإرشاد الذي يعتبر القيادة الدكتاتورية المركزية للحزب.. فيه يختزل نظام الشورى لمجموع أعضاء الحزب .. يمكن القول أنه خرج بوجوه متعددة وبشعارات فضفاضة .. ويمارس أعمالاً متناقضة .. أولها تأييد الأنظمة القمعية القائمة .. ثم مقاومة ثورة 23 يوليو القومية .. وارتباطه بالنظام الرجعي الكهني العربي في الجزيرة .. ثم ارتمائه في أحضان الغرب .. وعقد تحالف خطير معه بحجة مقاومة المد الشيوعي .. إلا أن معركة أفغانستان قلبت الأمور وخلطت الأوراق فبعض الإسلاميون تبينوا أنهم قد خدعوا .. وتحولوا إلى قوة انتحارية تنتقم من الغرب وأدواته .. وانقسمت الأحزاب الإسلامية إلى مسميات عديدة والمشكلة التي تواجه الأحزاب الإسلامية أنها في واقع الأمر تطرح أن الناس الذين هم ليسوا أعضاء في الحزب.. هم ليسوا مسلمين .. مع أن أعضاء الأحزاب الإسلامية قليل جداً مقارنة بأعداد المسلمين ولم تتمكن من تأسيس مرجعية دينية أو سياسية .. فصار صراع الأحزاب الإسلامية وجرائم بعضها ضد الناس وصمة عار تسئ للإسلام والمسلمين .. إن الصراع في العراق بين الأحزاب السنية والشيعية وبين الأخوان المسلمين والوهابيين .. يبين أن تلك الأحزاب هي أسماء بلا مسميات .. إنها فقط واجهات لتقسيمات طائفية أو اجتماعية قديمة ..

الوطن العربي لا توجد به أحزاب .. إنها محاولة بائسة لتطبيق المشروع الغربي على الواقع العربي الاجتماعي .. وهي نسخة كربونية واحدة ضمن منظومة السلطة .. رغم تعدد الأحزاب في بعض الدول العربية إلى حد الإفراط .. ورغم انعدامها في دول أخرى .. فإن حال الوطن العربي واحد .. حاكم فرد .. ومحكومين ..

قد يقول قائل هذا تجني .. لكن مرجعيتي هي واقع حال الأحزاب العربية .. ووضعها الراهن .. برامجها المكتوبة .. أدائها السياسي .. قياداتها ..

فالأحزاب السياسية الرئيسة في الوطن العربي من حزب الاستقلال المغربي إلى حزب حركة التحرير الجزائري إلى الحزب الوطني المصري إلى تيار المستقبل اللبناني إلى حزب البعث السوري .. ليست سوى تجمعات اجتماعية تضم القوى السياسية الفاعلة في تلك الدول لضمان استقرار الدولة .. داخلها أقصى اليمين واليسار .. وهي أقرب للحركات الاجتماعية منها إلى الأحزاب السياسية.

في أفريقيـــــــا:

يقول السيد صالح كازابوي .. رئيس الحزب الديمقراطي التشادي المعارض أن عدد الأحزاب في هذا البلد الأفريقي الذي يعاني صراعاً دموياً على السلطة وأطماعاً دولية متباينة وصل إلى 100 حزب، وتم إجراء عدد من الانتخابات وفق النموذج الغربي وفي إطار مايسمى بالشفافية .. لكن حال تشاد بات على ما هو عليه .. سألته في ماذا تختلف هذه الأحزاب؟

الشيء القطعي أن هذه الأحزاب هي تسميات لمكونات اجتماعية .. ولا تحمل مفاهيم إيديولوجية مختلفة .. ولأن الأفارقة يستخدمون الحروف اللاتينية كرموز مختصرة للأحزاب فإن قائمة الحروف اللاتينية ربما لم تعد تكفي لتغطي هذا الكم الهائل من الأحزاب.

الموضة في أفريقيا هي تعدد الأحزاب .. ودعوة مراقبين لحضور الانتخابات .. لكن التدخل الأجنبي لا يترك الأمور تمر بهدوء .. فتحدث الكارثة .. وتتعرى الأحزاب الوهمية من ورقة التوت .. وتظهر الصراعات الاجتماعية والأثنية.. وتشتعل نار الفتنة .. وهذا هو حال القارة اليوم .. في كل أقاليمها من جنوبها إلى شرقها وغربها.

الدكتور. محمد عبدي جامع .. نائب المدير العام الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية لمنطقة الشرق الأوسط .. وهو صومالي يتحدث عن حالة الدمار والخراب التي يشهدها الصومال من جراء الصراع الحزبي على السلطة .. ويقول باستغراب : الصوماليون هم مجموعة أثنية واحدة .. وكلهم مسلمون .. وكلهم سنة ومعظمهم شافعية .. فلماذا هذا الصراع ؟ ومن يذكيه ؟ كيف يتسلل

الوهابيون إلى هذا البلد السني ليقسموه إلى مجموعة مؤمنة وهابية .. وكثرة سنية كافرة.. لأنها لا تطبق السنة النبوية بمنظور الوهابيين ؟ وكيف يمكن أن يندلع هذا الصراع الرهيب .. وهذه المذابح المريعة لبلد لم يشهد تاريخه أي نوع من النزاع بين قبائله ؟

الإجابة الشافية للدكتور. محمد عبدي جامع .. تتجه نحو الحزبية .. والصراع الحزبي .. علاوة على أطماع الدول الأجنبية.

الأحزاب في أفريقيا عموماً نوعان .. أحزاب وطنية ورثت حركة المقاومة ضد الاستعمار وقادت مرحلة التحرر الوطني .. وأجبرت بحكم الضغط الخارجي من الدول الاستعمارية السابقة إلى التحول إلى أحزاب .. والنوع الآخر .. أحزاب أسستها الدول الاستعمارية السابقة في إطار فرض النموذج الليبرالي بهدف استمرار سيطرتها على مستعمراتها السابقة .. وبين النوعين أعداد هائلة من الأحزاب التي يعتقد بعض أعضائها أن الحزب شيء حقيقي وليس وهم.

الأحزاب الأفريقية جميعاً تمول من مصدر واحد وهو الدول الاستعمارية السابقة.. وتلك الأحزاب التي تستدر أكبر قدر من التمويل تضع لنفسها موطأ قدم في السلطة.. ولأن مصالح الدول الاستعمارية تتناقض أحياناً فإن ذلك ينعكس على الأحزاب الأفريقية.

يمكن القول لا توجد اليوم أحزاب أفريقية ذات توجه إيديولوجي محدد سواء على الصعيد السياسي والاجتماعي أو الاقتصادي .. وإنما توجد مجموعات مصالح .. ترتبط بمصالح خارجية في أغلب الأحيان .

فالأحزاب الأفريقية تأسست وفق معطيات إقليمية حسب الحدود الاستعمارية .. وتأسست لتأمين مصالح الطبقة الحاكمة التي ورثت الاستعمار .. وتعمل بتمويل في معظم الدول الاستعمارية وهذا يفسر أسباب الصراعات المدمرة التي تعصف بالدول الأفريقية واحدة تلو الأخرى من جراء صراع مصالح الدول الاستعمارية .

ربما يصدق البعض أن الصراع في رواندا له أسباب عرقية تكمن في خلاف بين التوتسي والهوتو.. لكن ذلك لم يفسر الصراع في الكونغو ولا زيمبابوي ولا كينيا .. لقد تبين الآن دون مجال

للشك أن أيدي المستعمر كانت لاعب رئيسي في رووندا .. والأيادي الأمريكية ليست بعيدة عن صراع دارفور وجنوب السودان والبلجيكيين دائماً تظهر في الكونغو..

عندما كان صالح كازابوي يتحدث في محاضرة حول مستقبل تشاد كان يحلم أن يتطور نظام حزبي يمكن أن يشكل حلاً للمشكل التشادي لكنه غفل أن الصراع في تشاد ربما كانت وراءه دائماً مصالح دول أخرىٰ .. وينفذ بأدوات مختلفة.

في موريتانيا كان التهليل للتعددية الحزبية والانتخابات الديمقراطية منقطع النظير.. لكن بضع أشهر كانت كفيلة بفضح النظام الحزبي .. وتبيان حقيقة التعددية .. وصدقية الانتخابات النزيهة .. وماهية عشرات الأحزاب .. وارتباطاتها الداخلية والخارجية .. وأسباب هذا التحول الكبير للأحزاب من هذه الخانة إلىٰ تلك .. السلطة الموريتانية التي لم تكن سوىٰ ديكور لنظام حكم معين .. وللصراع مصالح بين دول ومجموعات.. وربما يقدم حجة مقنعة حول هذه العلاقة العار بين موريتانيا ودولة الكيان الصهيوني .. هل يمكن فهمها في غير إطار مصالح الدول الكبرىٰ في المنطقة .. وارتباط الأحزاب والمجموعات بدوائر الدول الاستعمارية ..

روبرت موجابي ذلك المكافح العتيد ضد العنصرية .. والعدو اللدود للإمبريالية الذي تمكن من قيادة الشعب الإفريقي في معركة تحرر بطولية فكان أول من أسقط العنصرية في أفريقيا .. وصار نموذجاً لمقاومة سياسة التمييز .. موجابي ربما توقع أن تبني الحزبية المتعددة ربما تساعده في نيل رضا العنصريون السابقون .. لكنهم استغلوا ذلك للثأر من موجابي .. وتشويه تاريخه وتحويله من رمز للتحرر في زيمبابوي إلىٰ دكتاتور ضد الديمقراطية .. وبتمويل من العنصريين السابقين أشعلت نار الفتنة في زيمبابوي .. وصار هذا البلد الأفريقي نموذج التحرر واسترداد الحق الأفريقي .. وإنهاء العنصرية .. واسترجاع الأراضي للسود .. صار علىٰ حافة الهاوية .. الشعب الأفريقي كيانات اجتماعية لها انتماءات قبلية .. لكن حالة تعايش دائم بين القبائل الأفريقية هي السمة السائدة للعلاقات بين أفراد الشعب الأفريقي .. ولم تشهد أفريقيا في تاريخها صراعاً دموياً بين قبائلها ومكوناتها الاجتماعية .. كذلك الصراع الذي شهدته القارة الأوروبية أو الآسيوية..

الشعب الأفريقي شكل نسيج متجانس من قبائله ومكوناته .. وأوجد آليات عملية للتعامل مع المشاكل .. لم يكن بينها الحرب والصراع .. فكان الإنسان الأفريقي دوماً مسالماً .. هادئاً .. لكن فرض المشروع الحزبي على القارة الأفريقية هدد ذلك وحول القارة الأفريقية إلى برميل بارود ينفجر كل يوم في مكان ما.

كل الأحزاب الأفريقية التي يصعب حصرها تدعي الديمقراطية والعمل من أجل الشعب والتنمية والعدل .. وكلها تدعو إلى الوحدة والاندماج الأفريقي لكنها عملياً ليست كذلك .. إنها بؤرة صراع .. وهكذا اتضحت أنها حاجز ضد الديمقراطية وهي بالتأكيد حائل دون التنمية .. ولا تسمح بالعدل والمساواة .. وهي عائق ضد الاندماج الأفريقي.. فالخطوة الأولى نحو أفريقيا موحدة ديمقراطية صاعدة .. تبدأ بالنضال ضد الحزبية.

الخلاصة:

الصخب الطاغي اليوم حول الأحزاب ودورها وأهميتها وصراعها سبب في توجيه الشعوب المتطلعة إلى الحرية إلى حالة من انعدام الوعي وفقدان الثقة في النفس.. ومكن للفشل والتخلف والتبعية .. لكن الحزبية المنهج الغربي في ممارسة الديمقراطية يفرض بكل الوسائل كأمر واقع .. حتى صار مناهضوه يتوقعون أن تمكنهم منه لن يتم إلا باتباع منهجه وهذا تناقض رهيب وخطير .. إنه فعلاً أفيون العصر الحديث .. أصاب السياسيين والمثقفين وقادة الرأي والفكر .. الكل يتوهم أنه الطريق الوحيد نحو الديمقراطية مع أن واقع الحال يبين أن الحزبية إجهاض للديمقراطية.. وهي السد الذي يحول دون الجماهير وممارسة السلطة .. أنه أداة تكبيل حرية الأفراد والجماعات ومن غرائب الأمور أن أعضاء الأحزاب هم أكثر الناس معاناة لعسفها وجورها وظلمها .

إن المعركة ضد المشروع الغربي تستدعي معركة ضد النماذج الحزبية .. وهي عملية صعبة ومعقدة وخطيرة .. أشبهها بمعارك التحرر عن الاستعمار .. إن إقامة نموذج جديد للديمقراطية

تتحقق فيه حرية الأفراد والجماعات يتطلب ثورة عالمية جديدة قد تحتاج لاستخدام كل الوسائل المتاحة .. فلقد صارت الحزبية حصن كبير لابد من تحطيمه أولاً لتحقيق الحرية وهذا يحتاج إلى تضحيات جمة .. المعركة القادمة في رأيي هي الحروب على الحزبية وعلى التعددية حتى تسقط المشروع الغربي الذي يفرض علينا بالقوة.

*****

وَهمُ الانتخابات .. !!

الغرب يروج للنظام العالمي الجديد الذي يعني تبني النظام الغربي في إدارة الشعوب .. وإقامة مؤسسات حكومية مشابهة لتلك التي بالدول الغربية .. وتقييم الدول وأدائها السياسي وفق مقياس يعتمد على اتباعها للنظام الديمقراطي الغربي .. من حيث إجراء انتخابات حرة ونزيهة .. وتداول على السلطة .. وضمان حقوق الإنسان وهذه شعارات في ظاهرها مقبولة ومعقولة .. لأنها تتيح للفرد حياة حرة .. وتسمح له على الأقل اختيار حكامه بطريقة شفافة ونزيهة .. لكن ذلك طرح نظري بحت لا يوجد له ما صدق على أرض الواقع ، فهي مجرد شعارات جوفاء دون محتوى حقيقي ولم تعد تنطلي على أكثر الناس غباءً .. وجهلاً، فما بالك الشعوب التي تمكنت من الوصول إلى مستوى لا بأس به من الوعي ..

ولننظر في هذه الأمور من خلال تطبيقاتها على الواقع .. لأن القول شيء والفعل ربما يكون شيء آخر .. ولنبدأ من العمود الفقري لهذا النظام المراد له أن يفرض على الناس جميعاً .. وهو الانتخابات الحرة .. والنزيهة ..

ولن أبدي وجهة نظري المبدئية فيها .. من حيث إمكانية استطاعة أي إنسان أن يجد من يعبر عنه بالكامل .. وأن يمثله بالمطلق .. أي أن يصبح نسخة منه في آرائه .. وآماله وطموحاته .. فما بالك أن يتحد ملايين الناس أو مئات الآلاف منهم ليتوافقوا على فرد واحد .. يتجسدون فيه جميعاً .. لكنني سأنظر لهذا الأمر من حيث التطبيق ..

يومياً تجرى انتخابات في مكان ما من العالم تقريباً .. و جميعها تفرز أدوات الحكم السائدة في الأغلبية الساحقة من دول العالم .. لكن أغلبها إن لم أقل كلها مطعون في نزاهتها من قِبل المشاركين فيها .. فبمجرد انتهاء العملية الانتخابية .. يخرج إلى العلن من يرفض نتائجها ويبين حجم التزوير فيها .. حتى اضطرت الدول الراعية لهذا المشروع للبحث عن آلية دولية للمراقبة .. بعد أن فشلت

الآليات المحلية في إدارة ومراقبة انتخابات نزيهة .. ويمكن لأيّ كان أن يعدد الأمثلة لما أقول كما يشاء .. والحال ليس فقط مقصور على زمبابوي أو أنجولا .. لكنه أيضاً ينسحب على أوكرانيا وبولندا .. كازاخستان وتشاد .. وموريتانيا وكينيا .. إلى آخر القائمة..

إن الانتخابات في واقع الأمر قسمت الشعوب .. وأسست لحالة من الصراع الاجتماعي والمصلحي .. عنيف في أغلب الأحيان .. وخلقت ضحايا كثرة .. خاصةً في دول العالم الثالث.

في بلداننا العربية .. المواطن العربي الذي يفترض أنه صاحب الحق الانتخابي .. يعي حقيقة الانتخابات .. ولا أرى أن عربيّ واحد يصدق أن بلادنا العربية تجري بها انتخابات نزيهة سواء تلك التي كانت نتائجها 99.9٪ أو تلك التي فبركت لغرض العلاقات العامة لتصبح نسبة فوز الحاكم بنسبة لا تتجاوز 80٪..

في لبنان حيث يتشدق دعاة الليبرالية أنها تقدم نموذج لنظام انتخابي توافقي حر ونزيه .. لكن كثير من اللبنانيون يرون أن أصوات الناخبين اشتريت بالمال .. وهذا ما يجهر به أصحاب 18 آذار ضد جماعة 14 آذار .. وعندما اشتدت الأزمة اللبنانية ووصل لبنان إلى حافة الحرب الأهلية .. اتفق ثلاثة أشخاص فقط .. هم نصر الله و الحريري وجنبلاط .. ليتم التوافق على كل شيء .. ولعل المتابع لجلسة مجلس النواب المسرحية التي عقدت عقب توقيع اتفاق الدوحة لانتخاب رئيس الجمهورية ، وحالة النقاش والجدل –لزوم الشغل .. علماً بأن الأمر حسم في الدوحة .. مسبقاً جملة وتفصيلاً .. وربما كان لبعض النقود دور فيما جري –..إن المتابع لتلك الجلسة سيعرف معنى الانتخابات ..!!

أما الانتخابات في العراق .. أو فلسطين .. فحدث ولا حرج .. وأنا أضربها مثلاً لما نالته من اهتمام إعلامي باعتبارها حدثاً ديمقراطياً متميزاً .. ولأن انتخابات فلسطين أفرزت حماس التي لا يراد لها أن تصل إلى السلطة .. ألغيت .. وألقى أعضاء المجلس التشريعي في سجون الاحتلال.

ولنذهب إلى الانتخابات في معقل الدول الغربية .. ولن أتحدث عن نسبة المشاركة فيها التي لا تتعدى 20٪ من نسبة السكان في أفضل أحوالها .. ولن أتحدث على انتخاب القوائم .. واتباع

النسبة في حسب الأصوات .. أي أن أصوات المجموعات التي لا تحصل على نسبة معينة في الغالب 10٪ تضاف إلى نسبة الحزب الذي يحصل على أعلى الأصوات ..

لكن المثير في الأمر أن تهمة التزوير ، والتلاعب توجه أيضاً إلى تلك الانتخابات .. والكل يتذكر فضيحة ووترجيت في أمريكا .. وفضيحة فوز بوش بقرار من المحكمة الدستورية في ولاية فلوريدا التي يحكمها شقيقه بعد أن تم إعادة الفرز لعدة مرات والحديث عن 114 صوت فرق بينه وبين المنافس أل جور .. وفضيحة الرشاوي الخاصة بالمستشار السابق الألماني هلموت كول ..

أما دولة الكيان الصهيوني التي يتخذها الغرب نموذجاً للديمقراطية والنزاهة .. فجميع سياسيها تنتهي حياتهم السياسية بفضائح تتعلق بتزوير الانتخابات .. وليس بالضرورة أن يكون التزوير تقليداً بإضافة أصوات مزورة إلى صوت المقترعين الحقيقيين .. لكن للتزوير أوجه متعددة ربما منها شراء الذمم .. والأصوات .. وتغيير الوثائق والمعلومات .. ربما سيقول قائل هذا لهم وليس عليهم دائماً ينكشف أمرهم .. ويعاقبون على ذلك .. لكن ردي الواضح أن هذا مشهد مهم من المسرحية التي يراد لنا مشاهدتها والاقتناع بها .. فلماذا تخرج أخبار فضائح الانتخابات .. والتلاعب بها عندما تنتهي فترة حكم مرتكبيها .. ولماذا تتكرر مع جميع سياسي الكيان الصهيوني .. ولماذا يعودون مجدداً إلى الواجهة السياسية .. وكأن شيء لم يكن .. ألم يخرج نتن ياهو بفضائح .. وقبله شارون وشامير .. وغيرهم وقد عادوا مرات ومرات حتى يذهب بهم الموت أو المرض ..

لكن السؤال.. ألا تجري مسرحية الانتخابات في جميع دول العالم تقريباً .. فلماذا كل دول العالم مطالبة بالإصلاح السياسي تقريباً .. لا توجد دولة من دول العالم عدا الدول الغربية صاحبة المشروع يطلب منها إجراء إصلاحات سياسية أهمها إجراء انتخابات نزيهة وحرة ..

إذاً المشكلة عامة .. ورغم أن الانتخابات تجري كل يوم .. وتهدر ثروات طائلة لأجل تنظيمها .. وللصرف على الدعايات الانتخابية ولتغطية تكاليف المراقبة المحلية والدولية لها التي تزداد تعقيداً وتكلفة يوم بعد يوم .. فلماذا لم يؤد ذلك إلى إصلاح من أي نوع ..

ألم يحن الوقت اليوم للبوح بأن فكرة الانتخابات مشروع فاشل لن يؤدي لأية تطوير للحضارة الإنسانية .. هل يعقل في عالم أصبحت المعرفة متاحة للجميع .. وصار الوعي متمكناً من الناس أن تستمر مهزلة الانتخابات ..

ولنا حديثٌ آخر..

*****

..أفيون الشعوب..

الشغل الشاغل للسياسيين في كل دول العالم الثالث تقريباً هـو البحـث عـن الـدعم لتمويـل الحملات الانتخابية.. أغلبهم يمدون أيديهم إلى قوى أجنبية يتـسولون المـال بـالرغم مـن معـرفتهم المسبقة بوجود جداول عمل خفية ضد مصالح بلدانهم.. أكثرهم وطنية يلجأون إلى رؤوس الأموال المحلية لجمع النقود من أجل إطلاق الحملة الدعائية الانتخابيـة ومـا تتطلبـه مـن صـور وشـعارات جوفاء لا تعبر عن أي شيء ولا تطرح أي شيء له معنى يتعلق بحياة الناس.

موسم الانتخابات موسم مناسـب لنـشر الأكاذيـب كـما هـو موسـم لـرواج تجـارة الدعايـة والإعلان.. خلاله تجد أعداداً غفيرة من عمال المطـابع والمـذيعين والـصحفيين مـصدر رزق جيـد.. الفوز في المعركة الانتخابية يتطلب إعداد القوة اللازمة.. التـي ترتكـز عـلى الكـلام المعـسول ونـشر الوعود وإيهام الناس بالجنة الموعودة، من خلال حملة واسـعة وفـق خطـط معـدّة بإتقـان وماكينـات إعلامية قادرة على توجيه الرأي العام، يرتبط النجاح فيها على حجم الأموال التي تنفق عليها وقـدرة وكفاءة الإعلاميين المستخدمين بها.. إنها معركة دائمة ومستمرة قد تخفـت وتيرتهـا لـبعض الوقـت، لكن ما إن تنتهي معركة انتخابية في أية دولة حتى تبدأ الاستعدادات الحثيثة لإطلاق حملـة جديـدة.. وبدون مبالغة فإن الحياة السياسية السائدة اليوم في كل دول العالم تقريباً ليست سوى معارك انتخابية مستمرة.. تتصاعد تكاليفها بشكل مخيف بحيث لا تـتمكن خـزائن الممـولين المحليـين مـن الإيفـاء بمتطلباتها فيصبح اللجوء إلى الخارج أمراً مشروعاً وضرورياً.

أحزاب لا تحصى ولا تعد تتكون فقط من أجل تأمين النجاح في الانتخابات مـن خـلال جمـع الأموال الضرورية وحشد المصوتين وتعبئة المشجعين.. تراهم في كل عواصم العالم يهيمون يعرضون خدماتهم مقابل ما يحصلون عليه من أموال.. لا مانع لديهم من رهن إرادتهم وإرادة شعوبهم مقابـل الفوز في انتخابات لا تقدم ولا تؤخر.

السياسيون لا ينهمكون في تدبير شئون بلدانهم ومعالجة مشاكلها ووضع الخطـط لمستقبلها، بل تنصبُّ جهودهم عن البحث في السبل التي تـؤدي إلى الفـوز في الانتخابـات... فهـم لا يجـدون

الوقت الكافي للتفكير في التنمية والتطوير ودراسة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والتعامل معها وتجاوزها.. الفائزون في الانتخابات هم أولئك الذين ينجحون في جمع الأموال الكافية للحملة الانتخابية.. يقيمون الاحتفالات ويتبادلون الأنخاب، ليس بسبب تحقيق إنجاز مادي أو معنوي لشعوبهم، بل لمجرد فوزهم في الانتخابات، أمّا الخاسرون فيجدونها فرصة سانحة للطعن في نزاهتها والبحث على التبريرات المقبولة لإخفاقهم فيها ودائماً يعلقون فشلهم على مشجب التزوير.

ما إن ينجلي غبار المعركة الانتخابية، حتى تنطلق من جديد الاستعدادات للمعركة القادمة.. وهكذا على مدار الساعة تدور رحا المعارك الانتخابية في كل مكان .. تماماً كما تجري دوريات كرة القدم وبنفس السيناريوهات تقريباً.. فريق فائز وآخر خاسر.. شد وجذب.. صراع بالأيدي والسلاح.. أحياناً مشجعون كثيرون يفقدون أعصابهم فيأتون أعمال لا يتصورها العقل، ليس أغربها انتحار مواطن كيني بسبب هزيمة الأرسنال.. أمّا تحطيم الزجاج ولكم الحوائط وإشعال الحرائق.. وتحطيم المرافق العامة والخاصة فهو أمر شائع.. ينتهي كل ذلك مع بداية انطلاق الاستعدادات لمباراة جديدة في الدوري.. ودائماً تجري مباريات فاصلة.. مباراة حياة أو موت.. الإذاعات والصحف الأكثر مشاهدة وقراءة هي تلك التي تعنى بالرياضة.. آلاف المعلقين والمحللين الرياضيين يرددون نفس الكلمات بكل اللغات... يكفي النظر في أعداد وسائل الإعلام التي تتناول الأخبار الرياضية وشئونها وأخبار الرياضيين وشئونهم العامة والخاصة من صفقات انتقالهم إلى زواجهم وأعياد ميلادهم ليعرف المرء حجم المأساة التي تعيشها الإنسانية..

إنه عصر اللعب والمعارك في فضاء شبه افتراضي.. إن فوز فريق ما في مباراة رياضية تماماً كفوز حزب ما في الانتخابات، لا يغير من أحوال الناس شيئاً، إلاّ أنهم يُشحذون لمزيد التشجيع في المباريات أو المعارك القادمة وأمام مخيلتهم دائماً البحث عن الفوز.. ولعل ابتداع بطولات جديدة كل عام في كل الألعاب الرياضية وما تعنيه من تواصل المباريات والكؤوس الوهمية وما ينتج عنها من أموال طائلة تذهب إلى جيوب الرأسماليين هو الدافع وراء اختراع منظومة انتخابات متواصلة في كل بلد.. انتخابات رئاسية و نيابية و محلية وبلدية إلى آخره.

المهم الناس تقع في كل الأوقات تحت تأثير الانتخابات تماماً كما هي واقعة تحت تأثير المباريات الرياضية، ولأن أعداد الفائزين قليلة نسبة إلى أعداد المتبارين فإن طعم الفوز له نكهة

خاصة لفئة محدودة... أمّا الكثرة المهزومة التي لا تقارن أعدادهم بأعداد الفائزين يشعرون دائماً بالمرارة والإحباط، ذلك هو التفسير الأقرب إلى الواقع لكون الناس في الغالب تعيش حالة إحباط بسبب الفشل في تحقيق الفوز.

لو استثنينا القلة الفائزة في الملاعب والمعارك، فإن الأكثر تعرضاً للإحباط هم جمهور المشجعين وليس اللاعبين.. فاللاعبون لا يهتمون كثيراً للفوز أو الخسران فهم يقبضون الثمن مقدماً.. بغض النظر على نتيجة المباراة.. هم موظفون من أجل اللعب، يتقاضون مرتباتهم مقابل هذا العمل.. ولأن حال الانتخابات من حال المباريات فإن المترشحين فائزون في كل الأحوال لكن المشجعين هم من يشعر بفقدان النتيجة.. لذلك السبب تتجه ماكينات الدعاية الانتخابية إلى شحذ الناس وإثارتهم دون النظر إلى سلبيات ذلك، فجمهور المشجعين يمكن أن يأتي أي فعل مهما كانت خطورته على السلم والأمن الاجتماعي، المشاحنات والصراعات والاقتتال ترتبط عفوياً مع الانتخابات تقريباً.. على الرغم من أن ذلك الجمهور المشحون الذي يقاتل من أجل فوز مرشحه لن يناله شيء من ذلك الفوز وإنه لا يقع ضمن دائرة التعرف والاهتمام بالنسبة للمرشحين أساساً.. المرشحون الخاسرون يجدون في خسارتهم باب رزق يُفتح أمامهم من جديد سواء من خلال إضفاء مشروعية على أدوات الحكم بجلوسهم في مقاعد المعارضة أو باستعطاف الحكومة الفائزة.. علاوة على ذلك فهو مبرر قوي لطلب مزيد الدعم الخارجي لتأمين فرص نجاح في الانتخابات القادمة التي ستقع لا محالة.

*****

برلمانيات وبرلمانيون ... عمال بالسخرة

حاول أحد أعضاء مجلس النواب في بلد ما من بلاد العرب الديمقراطية جداً.. تقديم سؤال إلى رئيس الوزراء.. فلم يقبل منه ذلك .. وتم حل البرلمان ..لتفادي سؤال رئيس الوزراء .. لم أستوعب الأمر .. لأني كنت أتصور أن توجيه سؤال إلى الحكومة في النظم البرلمانية التقليدية أمر عادي.. بل هو من أسس تلك النظم .. فإذا كان البرلمان يمثل الشعب.. وهو المجسد لإرادته فكيف لا يستطيع أحد أعضائه توجيه سؤال إلى الحكومة أو رئيسها.. دونما تعقيدات .. وكيف تنتج عن ذلك أزمة سياسية معقَّدة وطويلة ... ولأن الدستور.. " وتستور للدستور " .. هو آلهة الخوف والطاعة والولاء.. في العصر الحديث .. له يخضع الجميع .. وبمواده المقدسة يسبح الكل .. فكان أن استدعى الدستور لمعالجة الأزمة .. فبين أن لغي الاستجواب يتطلب حل مجلس النواب .. فتم ذلك بنجاح .. ونجى رئيس الحكومة والحكومة من الاستجواب أو من الإقالة أو الاستقالة .. وانتخب مجلس جديد بعد أن عاش الناس أيام وشهور في هرج ومرج .. فلان فاز وعلان لم يفوز.. وانتشرت الخيم والموائد .. وراجت تجارة الأخبار والإخبار .. واجتمع المجلس الجديد بنفس الوجوه القديمة تقريباً ... وبدأ يظهر على السطح .. ما لم يكن في الحسبان .. بعض النواب يعدون العدة من جديد لتقديم طلب استجواب لرئيس الوزراء .. قامت الدنيا .. ولم تقعد .. بعد ... وصار أمر حل المجلس الجديد حلاً دستورياً ضرورياً .. مطروحاً .. لأنه الوسيلة الدستورية الوحيدة للحفاظ على سمعة رئيس الوزراء .. وضمان حق النواب في ممارسة مهامهم.. ويحول دون تقديم الاستجواب .. لا يهم استجواب الرئيس من عدمه .. فلا المجلس ولا الحكومة يملكون شيء من الأمر في الأساس.. ولأن مسألة الاستجواب لا تتعلق بهموم الناس.. فمن المهم التقيد الحرفي بالدستور .. وعدم الخروج عنه .. وإيجاد المخارج المناسبة من خلاله لمعالجة المشاكل الناتجة عن قيام السلطات المفصولة بممارسة مهامها .. حدث ذلك في بلد يوضع في مراتب عليا من مراكز الممارسة الديمقراطية .. حسب التقييم الغربي .. بلد يطبق شرعية دستورية تامة والحمد لله .. وتحل جميع المشاكل بطرق دستورية حتى ولو كانت مخالفة للدستور والمنطق....

سألني صديق .. لماذا لا يستمع رئيس الوزراء إلى السؤال .. فلعله سؤال بسيط وإجابته متوفرة في مفردات اللغة بالتأكيد .. ولا يحتاج الأمر إلى كل هذه الأزمة السياسية لتفادي السؤال .. وإن لم يكن ذلك ممكناً.. فلماذا لا يستقيل رئيس الوزراء .. ويكفي الشعب المسكين المتمسك بالدستور من معاناة الأزمات السياسية ومصاريف الانتخابات النيابية .. ومشاكل الصراعات الحزبية ..أم أن السؤال من الأهمية والخطورة حتى يؤدي إلى حل مجلس النواب مرتان في شهور قليلة.. لم أستطيع المساهمة بإجابة مقنعة ... لكنني قلت له .. إن هذا الحال في هذا البلد الديمقراطي جداً والدستوري حتى النخاع.. أفضل من ذلك البرلمان الذي قفله رئيسه بالمفتاح لمدّة سنة بالتمام والكمال .. ولم يسمح لأعضائه حتى مجرد الاجتماع .. خوفاً على الديمقراطية وحماية للمصالح الوطنية .. استمر ذلك حتى اجتمع بضع أفراد لا يتجاوزون عدد أصابع اليد في مكان بعيد في وسط المحيط في جزيرة النفط.. وكان الاتفاق .. على تقاسم الأدوار بين الزعماء الكبار .. فجيء بالنواب إلى قاعات المجلس وبدأ الاجتماع حيث افتتح بتطبيق المعايير الدستورية في اختيار الرئيس والحكومة .. وكان رئيس المجلس يتلو على الهواء حساب الأصوات .. عدد الموافقين والممتنعين .. كنت أحد المتابعين .. فقلت في نفسي .. مساكين هم.. أعضاء مجالس النواب .. عندما يتقدمون للانتخابات.. أو عندما يوضعون على قوائم الأحزاب ... تراهم فتحسبهم شيء مهم بيدهم الحل والربط .. وكل مفاتيح المستقبل .. تستمع إلى خطبهم .. وتصريحاتهم .. فتعتقد أن عقولهم مليئة بالأفكار والبرامج التي ستغير العالم.. لكنهم عندما يصلون .. وعلى كراسي المجالس يجلسون .. فلا حول لهم ولا قوة.. ستجدهم مجرد أرقام في حساب مراكز القوى .. يرفعون أيديهم وينزلونها حسب رغبة الزعماء والزعامات.. ويعلنون أن ذلك ديمقراطية .. ومشاركة شعبية ... ولكل حديث أغنية.. عدد ذلك المجلس المقفل سابقاً .. المفتوح بإرادة طاولة الحوار .. وتوافق الجيران ورغبة بعض الكبار قليل لا يتجاوز المائة بكثير.. لكنهم موصومون بقصور في الفهم وعدم استطاعة على إدارة النقاش ولا يقدرون الحوار لحل المشاكل .. فيرغمون على تفويض قادة الأحزاب الكبرى بحكم الدستور .. ليجتمعوا حول طاولة الحوار المعلن والعلني وعددهم لايصل إلى العشرات .. عندما يتفقون..يحسم الأمر الذي فيه يستفتون .. ويحضر النواب فقط لرفع الأيدي .. أو خفضها .. وإصدار القرارات بعد طبخ الصفقات .. أليس ذلك إهانة لأولئك النواب الذين يُستخدمون فعلاً مثل الألعاب الإلكترونية .. أو أشبه ما يكون بألعاب الحواسيب ..

إن الدعوة ملحة لتحرير البرلمانيين من دكتاتورية وعسف المتنفذين من سياسيين وماليين .. النواب في العالم كله اليوم هم أكثر الناس عرضة للإهانة والاستخدام .. إنهم عمال بالسخرة يفعلون ما يؤمرون.. جثث بلا روح .. هياكل بلا عقول .. فمن منا يسمح لنفسه ... إن كان لها قدر من الاحترام أن يمارس هذا الدور المهين لإنسانية الإنسان.. الحمد لله أن تخلصنا من عقدة البرلمان .. وصار الناس عندنا يجلسون باحترام .. يتخذون القرار .. ويأتي الأمناء لصياغة ما يقوله الناس .. وحري بالإعلام الجماهيري أن ينشر وقائع جلسات المؤتمرات الشعبية ومؤتمر الشعب العام .. وجلسات لمجالس النواب من هنا وهناك لينظر الناس بأنفسهم.. فليس الخبر كالعيان ..

*****

رئيس مدى الحياة

بمجرد أن يُعتمد الدستور.. وتُجرى الانتخاب .. وينتهي طابور الاقتراع .. ويتم فرز الأصوات .. المزورة والصحيحة أمام الأبصار والأسماع وتعلن النتائج .. يفوز من يفوز ويطعن من يطعن بالتزوير .. وتُعد التقارير من المراقبين .. ويخفت صوت المعركة الديمقراطية في الأخبار وتختفي أنباء الانتخابات من عناوين الصحف .. حتى يبدأ الرئيس الفائز حملةً واسعةً لتغيير الدستور.. متعللاً بالمستجدات والمتطلبات.. والهدف دائماً اكتساب مزيد الوقت حتى يطول الجلوس .. وتختمر الأفكار في الرؤوس ....وينجز ما لم ينجز للشعب المسكين الذي ينتظر إحسان المحسنين.. كثير من الناس يستغرب والبعض يستهجن تلك الأعمال، في إطار مخالفة المبادئ والقيم التي بُني عليها النظام.. والخروج عن الشرعية المقدسة التي ابتدعت من قبل قلة .. قبل أعوام ليست بعيدة.. شعارهم أن الديمقراطية الحقة لا تتحقق إلا بالتداول على الكراسي.. وإتاحة الفرصة لرئيس جديد عساه أن يغير في أمور لم تتغير أو يُحسِّن من أحوال لن تتحسن .. لكن من يحسبون الوقت .. ويتابعون الأحداث .. ويحللون الوقائع .. لن يجدوا في الأمور فوارق.. فالنتيجة في كل الأحوال رئيس مدى الحياة .. سواء كان الرئيس شخص واحد باسمه ولحمه وشحمه.. أو كان عدد محدود من الشخوص بأسماء وألقاب متعددة .. التمعن في أغلب أحوال الديمقراطيات القائمة على فكرة التداول يبين أن مدّة الرئيس غالباً ما تكون 5 سنوات وقد تطول إلى 7 سنوات أو تقصَّر إلى 4 سنوات.. في معظم الدساتير يُسمح للرئيس بالاستمرار لدورتان متتاليتان .. بمعنى أن يحكم لمدّة عقد من الزمان.. بشرط إعادة الانتخابات.. وقد تصل إلى عشرين أو ثلاثين بشرط إيجاد فواصل إعلانية.. يدير خلالها الرئيس في أغلب الأحيان الأمور من وراء ستار.. كما هو التوافق الشهير بين بوتين وميدفيديف.. ولو تم التغير وتبدلت الأسماء.. فإن الحال سيبقى على ما هو عليه ..لأن النظام هو النظام والمؤسسات هي ذات المؤسسات.. وإن تغير الرئيس من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار....إذا حسب الزمن بالجيل... فإن عدد قليل من الناس سيرأسون عدّة أجيال من البشر.. أي

أن الفرد العادي سيحكم مدى حياته وربما حياة أولاده بعدد محدود جداً من الأفراد.. فعن أي تداول يتحدثون .. ولأية مشاركة للناس يدعون .. أليست مسرحية واحدة تتكرر مشاهدها بنفس الممثلين.. في المسرح عرض المسرحيات قد يستمر لسنين فيضطر المنتجون إلى استبدال ممثل بآخر بالنظر لطبيعة أعمال الممثلين وظروفهم الحياتية.... لكن عرض المسرحية يستمر.. رغم تغير المشاهدين.. وتبدل أوضاع الجالسين.. وفي كل الأوقات .. يسمع التصفيق لذاك المشهد أو تلك الممثلة وهكذا..

إن السمة السائدة لأنظمة الحكم اليوم مهما تعددت أشكالها .. وأنواعها هي ثبات الحكام رغم تغيير المحكومين حتى وإن ادعى البعض أنهم يطلبون التغير ومهما كتبوا ونقشوا وقالوا في الدساتير .. بأنها تتيح الفرصة للجميع للوصول إلى سدّة القرار .. وتضمن حقوقهم .. ومهما تعددت المنظمات والمؤسسات التي تراقب الانتخابات.. إنها لعبة مكشوفة .. تعريها الأحداث .. ويوضحها تكرار المشاهد .. لكنها تنطلي على كثيرين وإن كان البعض يغض عنها النظر ربما بأمل أن الفرصة قد تتاح لهم ليصلوا إلى مواقع تضعهم مع العليين في سدّة هرم السلطة الثابت المثبت بالقوانين..

في موريتانيا كان بعض السياسيين التقليديين الذين خاضوا تجارب الانتخابات لعدد من المرات قد أصيبوا بالغثيان عندما علموا أن نتيجة الفرز أتت بما لا تشتهي الأنفس وحسمت الأمر.. فسقطوا مغشياً عليهم لأن القطار سيكون قد فات وأنهم لن يجدوا فرصة أخرى للعب على الحبال والتلاعب بمشاعر الجماهير.. والتحدث عن التغيير والتطهير .. أما في النيجر فإن السياسيين وأعوانهم المستفيدين لم يجدوا وسيلة سوى التشبث بالدستور عساهم أن يمنعوا الرئيس من البقاء إلى أجلٍ طويل.. الرئيس ألغى الدستور.. وما وراء الدستور من محاكم، وأجهزة.. لاتهم المخاطر التي تنتظر البلاد ولا المآسي التي سيواجهها العباد.. في أمريكا اللاتينية الحرب على قدم وساق حول أهمية الحفاظ على الدستور.. وضرورة تبديل بعض المواد حتى يصار إلى إعادة الانتخابات.. لتجد أنظمة اليسار الثورية وقتاً تزيل فيه آثار حكم اليمين المرتبط بالغرب .. المهم مسألة الرئاسة والرئيس هي همُّ الهموم وهي الحديث الدائم لكل وسائل الإعلام.. وهي عنوان الموائد المستديرة والحلقات ..

وموضوع الجدل في الصالونات .. وما أن تختفي في أحد الأماكن حتى تظهر في أخرى متعددة.. سؤال بسيط يتجنب الجميع طرحه.. هل فعلاً هناك تعدد وتداول .. لنا أن نغوص في الأمثلة ونكرر الأسئلة.. كم عدد الملايين في بريطانيا .. وكم عدد المتداولين على حكمها بعد انتهاء الحرب الكونية الثانية .. وهكذا الحال في بلاد الفرنسيين والروس وديار الفرس والألمان.. أمّا في المستعمرات القديمة فحدث ولا حرج.. واحسب ما شئت عن أعداد الأفراد الذين حكموا ويحكمون منذ إعلان الاستقلال وقطع التبعية المباشرة مع المستعمر.. الأنظمة السائدة سواءً تغير الدستور أم لم يتغير هي نموذج واحد.. في الشكل والمضمون .. فلماذا هذا الضجيج حول التشبث بالدستور أو المطالبة بالتعديل.. تتبدل الأحزاب من هذا الجانب إلى ذلك وتتغير المواقف رأساً على عقب .. في احد المرات كان زعيم حزب معارض في بلد ما يعتمد سياسة التداول يلقي خطاب إطراء ومديح في رئيس تفضل بالقبول للترشيح لفترة أخرى بعد أن عدّل الدستور.. قلت في نفسي مسكين هذا المعارض .. ومساكين أعضاء حزبه.. كم هم مقهورين وهم مضطرون لتأييد انتخابات الرئيس المعارضين له نظرياً.. لكن أفظع أنواع القهر أن يقول ذلك المعارض ما قال..

خلاصة القول أن الحال واحدٌ سواءٌ سمح للرئيس بتجاوز الدستور.. واستمرار تقلده للأمور أم لا .. إنه وجه واحد لعملة واحدة قد تصبح بائرة في وقت قريب وإلى ذلك الحين سيبقى الرئيس مدى الحياة..

*****

القبيلة .. بين تعصب الجاهلية وتحلل المدنية

نعــم للقبيلة كرابطة اجتماعية وكقاعدة لممارسة ديمقراطية للسياسة ، فهي تكوين طبيعـي .. تستمر الحاجة له مع تقدم الإنسانية وتطور حضارتها .. ولقد شهدت القـرون الماضـية هجومـاً علىٰ النظام القبلي في العالم الغربي .. أدىٰ إلىٰ اندثار القبائل الأوروبيـة .. وشـبه انـدثار للقبائـل الهنديـة في أمريكا ..وذوبان القبائل في المجتمعات الحضرية في جنوب غرب آسيا .. فـما هـو حـال المجتمعـات التي تقهقر النظام القبلي بها .. وهل حققت تقـدم وتطـور اجتماعـي .. وهـل ضـمنت حيـاة كريمـة لأفراده .. إن نظرة إلىٰ تلك المجتمعات يرىٰ المـرء أنهـا اتجهـت إلىٰ خلـق بـدائل اصـطناعية للقبائـل بمسميات متعددة تحت إطار المجتمع المدني كواجهات سياسية " الأحزاب " أو اجتماعية " النـوادي والجمعيات " وهي ليـست سـوىٰ بـدائل فرضـتها أهميـة الـترابط الاجتماعـي بـين الأفـراد لـضمان الاستقرار والتطور .. وبتقييم حياة الأفراد في تلك الاجتماعات يلاحظ المرء ازدهارها عنـدما يكـون الفرد بكامل صحته .. وبأعلىٰ طاقته علىٰ العمل .. لكنها تتحول إلىٰ معانـاة قاسـية فـيما عـدا ذلـك.. وحلت العلاقات المادية محل العلاقات الإنسانية بين الأفراد .. وأصـبحت قيمـة الفـرد وأخلاقياتـه تقدر بما يملك من أموال .. الأمر الذي أدىٰ إلىٰ انتشار الرذيلة والفـساد والانحطـاط الاجتماعـي .. وأوصل الإنسانية إلىٰ حافة الهاوية .. إن المجتمع الإنساني يتحول بسرعة مذهلة إلىٰ مجتمع حيـواني .. يسعىٰ بشتىٰ الوسائل إلىٰ جمع المال وإشباع الغرائز .. دونما النظر إلىٰ قيم أخلاقية .. فصار الانحـلال والصراع سمة المجتمعات التي دمرت المنظومة القبلية..

إن أعداء القبيلة يستندون إلىٰ صفة التعصب والجاهلية بها .. يـبررون هجـومهم عليهـا بأنهـا سبب الصراع بين الأفراد والجماعات وأنها تفسد الحياة المدنية .. وتمنع الخلق والإبداع أهم متطلبـات التطور الإنساني .. لكن نظرة موضوعية لواقع حال الصراع في العالم خلال القرون الماضية تعطي رداً حاسماً لتلك التهم الباطلة .. فشراسة الصراع كانت بين المجتمعات التي تخلت عن المنظومـة القبليـة .. فالقبيلة تضع وازعاً أخلاقياً لدىٰ الأفراد يمنع الضرر .. ويحول دون الابتذال والقيم النبيلـة التـي

تتوارثها القبيلة وتزرعها في أبنائها هي صمام الأمان ضد انحدار البشر إلى الصراع المدمر .. والقبيلة تحدث حالة تعايش منظم ومنضبط بين أفرادها .. بنفس انتظام وضبطية حالة التعايش مع القبائل الأخرى .. إن حالات الصراع القبلي النادرة لا تحدث انتهاكاً للحياة وللإنسانية .. وهي دائماً تحت سيطرة الوازع الأخلاقي للقبيلة .. ودليلنا في حالة التعايش السلمي بين كل الأنحاء التي يحكمها النظام القبلي .. والقبيلة تشكل في ذات الوقت حالة نهوض واصطفاف للمقاومة إذا تعرضت و أفرادها للخطر.. لكن المقاومة القبلية تقع دائماً تحت شروط الضوابط الأخلاقية للقبيلة ..

ولعل ذلك يفسر أن جميع حالات المقاومة في العصر الحديث أو العصور الغابرة تحدث تحت لواء المقاومة القبلية .

أما التكوينات المدنية التي استحدثت كبديل للقبيلة فهي واهية .. تنحل فور تعرضها لقوة خطر داخلي أو خارجي .. والمجتمع المدني هو مجتمع النكرات .. كما يقول البروفيسور رجب أبو دبوس .. على عكس مجتمع القبيلة الذي يتكون من معارف منسوبين لقبائلهم .. يقول البروفيسور أبو دبوس " عندما ترسل حكومة غربية جنودها للحرب فهي ترسل أرقام نكرات .. لا تربطها بهم روابط اجتماعية إنسانية .. هم غير معروفين لأدوات النظام المدني السائد .. فلا عاطفة ولا تعاطف وهكذا الحال أثناء تعاملهم مع العدو المفترض فهم يحاربون نكرات .. وهذا يفسر بشاعة الحروب الحديثة .. وبشاعة جرائمها التي يشهدها العالم كل يوم.

الصراع القبلي إن وجد فهو يقع تحت ضبط الأخلاقيات القبلية التي تضع الفرد في حمية القبيلة فهو أبنها .. وهناك تلعب العاطفة الإنسانية أكبر قدر من الضبط الأخلاقي ..

لماذا ننكر على القبيلة لعب دور في السياسية .. ونقيِّم التدخل القبلي في السياسة على أنه حالة خطر تهدد المنظومة السياسية المستقرة .. واقع الحال يقول غير ذلك .. النظام السياسي المكون بديل للنظام الاجتماعي .. يعاني من حالة خلل ظاهرة وواضحة .. وهذا يفسر الدعوة المستمرة للإصلاح .. والمنظومة القبلية تقوم أساساً على احترام القبيلة كجماعة كلية شمولية .. ودور القيادة القبلية " شيخ القبيلة " هو دور الضامن لحالة الانتماء للقبيلة .. ومشيخة القبيلة حالة جماعية حيث يشارك

أفراد القبيلة في وضع القرارات التي تهم القبيلة .. فالرأي في القبيلة هو ليس حالة فردية .. وإنما نتاج للتشاور.. فشيخ القبيلة ورغم صورته الدكتاتورية هو في واقع الأمر فرد تحت إمرة قبيلة .. من يرفعه إلى موقع المشيخة إنما شدة ولاءه للقبيلة واحترامه لأعرافها واتباعه لتقاليدها ..

إن التعايش القبلي السلمي ضمان لحياة مدنية مستقرة .. مؤسسة على أسس أخلاقية تحكمها قيم القبيلة .. فالقيم القبلية هي دائماً نبيلة وإنسانية .. إن الأفراد في المجتمعات القبلية دائماً يحافظون على سمعة قبائلهم عندما يأتون أعمالاً خاصة أو عامة .. هذا الوازع الجمعي يضمن التعايش السلمي الإنساني بين الأفراد.

إن الهجوم على القبيلة باعتبارها رديفاً للجاهلية والتعصب هجوم جائر .. لا يستند إلى أية حقائق تاريخية أو اجتماعية ..

ولعل الأنظمة الشمولية في الوطن العربي والأنظمة الأبوية الملكية التي لا تستند إلى أية شرعية ترى في تنامي الوازع القبلي لدى المجتمعات العربية خطر يتهدد وجودها .. وتخشى من انتفاضة عربية قبلية تعيد الأمور إلى نصابها .. تلك الأنظمة تقف وراء هذا الهجوم على القبيلة العربية .. ولعل ذلك يفسر هجوم الشيخ عائض القرني في جريدة الشرق الأوسط في شهر ناصر الماضي على النظام القبلي العربي .. ووصمه بالجاهلية .. متناسياً أن القبيلة العربية هي التي بنت الإسلام وتبنت دعوته .. وحافظت على انتشاره حتى صار دين العالمين .

أنا أدعو صراحة إلى الديمقراطية المباشرة بضمانة اجتماعية طبيعية وهي القبيلة ولا أرى أي تعارض بين الارتباط بالقبيلة والالتزام بالديمقراطية والتعايش السلمي بين الأفراد..

في وطننا العربي عندما تزداد الحالة سوء تظهر القبيلة .. ومثل العراق شاهد حاضر .. فالمقاومة الباسلة للاحتلال .. قادتها العشائر العراقية .. بعد أن انهارت فجأة مؤسسات المجتمع المدني التي هيمنت على الساحة العراقية لعقود عدة .. وخرجت قبائل العراق تتصدى للعدوان .. وهكذا كان الحال دائماً عندما تتعرض الشعوب للعدوان الخارجي .. إن دور القبيلة كحالة اجتماعية سياسية أمر أساسي في المقاومة والحفاظ على نظام ديمقراطي شعبي.

تلك هي مجتمعات اللقطاء

يتداول بعضهم الدعوة إلى إقامة مؤسسات أو منظمات المجتمع المدني ويعتبرونها وسيلة أساسية لتحقيق الديمقراطية والعدالة بين الناس.. بعضهم عن قصد سيء يهدف إلى تدمير أسس المجتمع القائم وآخرون- كثر منهم- يقومون بذلك من قبيل ترديد الشعارات الجوفاء دون وعي بالمعاني الحقيقية للمصطلحات ولا فهم لطبيعة تلك الدعوات وغاياتها وأهدافها المعلنة والمخفية.. ببساطة ولمن لا يعرف المجتمع المدني هو مجتمع اللقطاء.. مع الاعتذار إلى أولئك الذين وضعتهم خطيئة الآخرين ضمن هذه الخانة وتحملوا وزرها ويعانون آثارها الضارة طوال حياتهم.. فلقد ظهرت الدعوة لإقامة ما يسمى المجتمعات المدنية في الغرب بعد أن دمرت العلاقات الاجتماعية.. انهارت الأسرة واختفت القبيلة.. فظهرت الحاجة إلى وسائل وآليات لربط الناس بعضهم إلى بعض تقدم لهم الحماية اللازمة والمساعدات المطلوبة، لذا عمدوا إلى إقامة تكوينات مدنية في شكل جمعيات ونواد ومنظمات ذات اهتمامات محددة.. تطورت لتشكل مظلة لأولئك الأفراد يستظلون بظلها، وملتقى اجتماعي يتواصلون من خلاله وعائلة اصطناعية جديدة يركنون إليها في الضراء.. ثم تطور الأمر إلى استغلالها من قبل بعض الأفراد لتحقيق تواجد على الخارطة السياسية والاقتصادية.

في البداية لعب ذلك الدور الأحزاب السياسية التي استعملها بعض الأفراد للوصول إلى سدة السلطة وتأمين مصالحهم الاقتصادية، لكن مرحلة الحزبية لم تدم طويلاً فسرعان ما انتهت الأحزاب وتقلص دورها وتحولت في أغلب الدول الغربية إلى تكوينات شخصية، الأمر الذي أدى إلى ضرورة البحث عن أدوات أخرى بديلة.. فظهرت التجمعات والجمعيات التي قيل عنها عند انطلاقها إنها لا علاقة لها بالسياسة لكن أعدادها ونفوذها في المشهد السياسي والاجتماعي سرعان ما تصدر القائمة.

منظمات المجتمع المدني في حقيقتها مؤسسات اصطناعية بديلة عن الأسرة وعن القبيلة ولا أتوقع أن يجادل أحد في أن الأسرة بكل ما تعنيه من معاني لم تعد موجودة في المجتمعات الغربية بالرغم من المجهودات المضنية التي يبذلها المحافظون في تلك المجتمعات في محاولة يائسة للعودة إلى قيم العائلة وإعادة الاهتمام إليها.. المجتمعات الغربية مجتمعات تتكون فقط من الأفراد وبمعنى أدق أفراد في سن العمل.. كل يعمل وفق مصالحه وأهدافه.. دون أي رابط اجتماعي مدني أو قيمي أو أخلاقي مع الآخرين سوى العلاقة الوظيفية التي تحكمها ما تصدره أدوات الحكم من قوانين وضوابط لتنظيم حياة الناس.. وفي ذلك يكمن سر الارتباط بين الدعوة إلى إقامة منظمات المجتمع المدني وفكرة سيادة القانون واحترام القانون، وقدسية القانون وما إليها من الأمور التي يعتبرها أولئك بديهيات غير قابلة للمناقشة ولا يتوقعون طرح أسئلة ولا الاستماع إلى علامات استفهام حولها حتى لو كانت تلك الأسئلة تدور حول أمور بديهية من قبيل معنى القداسة.. وأصلها في اللغة وفي القيم.. والكيفية التي تجعل من نصوص موضوعة من كلمات وجمل تصل إلى درجة القداسة.

لكي تعاد الأمور إلى وضعها الصحيح لابد من التذكير بأن فكرة الدعوة إلى إقامة منظمات المجتمع المدني، وتقديس النصوص القانونية الوضعية تتطلب أولاً إلغاء العلاقات الاجتماعية القائمة، أي القضاء على الأسرة وتدمير الروابط الاجتماعية وإلغاء القبيلة كمظلة اجتماعية، وكذلك إلغاء كل المقدسات والعقائد الموجودة من التراث والأعراف إلى الدين حتى يتسنى تقديم بديل مقدس جديد.. القانون فوق كل الأشياء، إنه المرجعية المطلقة وهو من يحدد الخير والشر.. المحرم والمباح.. إذاً هو بمعنى آخر بديل للأشياء الأخرى التي تحمل نفس المعنى..

قد يقول قائل إن هذا مبالغة في تفسير الأشياء وهي استنتاجات تستند إلى أحكام أيديولوجية مسبقة.. وذلك يجانب الصواب، لأن واقع الحال هو كذلك.. الدعوة إلى إقامة مجتمع وفق الطرح الغربي من خلال منظمات مدنية وقوانين تقدس والذي يُطلق عليه العلمانيون مسألة معروفة، لكن الجهل في كثير الأحيان هو سيد الموقف.

بالنسبة لنا فإن الدين هو الشيء المقدس الوحيد الذي يربط الناس إلى الحياة وإلى بعضهم بعضاً وهو محدد القيم.. الفاصل بين الخير والشر.. فإذا طرأ شيء آخر من قبيل النصوص القانونية

ليتولى ذلك الدور فإن ذلك يعني عملية استبدال ليس إلا.. أي استبدال الدين بالقوانين الوضعية.. العلمانيون في الغرب لا يجدون غضاضة في ذلك لكن ناقلي العلمانية عندنا لن يتجرؤوا على طرح هذا الأمر بشكله الصحيح بسبب الجهل أو الخوف.. والأمر الأكثر غرابة أن بعض من يعلنون انتماءات إلى منظمات تستخدم الدين يدعون أيضاً لإقامة ما يسمونه المجتمع المدني.

العلاقات الاجتماعية القائمة على الأسرة والقبيلة هي نقيض لأية علاقات اجتماعية أخرى تقام من خلال مصالح العمل أو ظروف الحياة أو اتفاق واختلاف الرؤى.. وهذا يجعل من توصيف فكرة منظمات المجتمع المدني بمجتمع اللقطاء أقرب إلى الواقع، لأن اللقيط فرد يوجد هكذا في مواجهة الحياة.. يحتاج إلى من يعتني به ويهتم بشئونه.. وبالتالي يرغم على العيش في دور الرعاية الاجتماعية التي تكون بديلاً مناسباً عن العائلة التي يفتقدها.. فينتمي إلى مؤسسة اجتماعية مدنية تقوم على أساس وحدة ظروف الحياة وليست علاقة دم ولا حتى المصالح..

إن خطورة الدعوة إلى ما يسمى المجتمع المدني تكمن كما أسلفت في عدم فهم كثير ممن يطلقونها لماهيتها وخطورتها.

ولأن المؤسسة الإعلامية الغربية قادرة على توجيه الرأي العام والتأثير في أفكار الناس.. فنجحت في إبراز تلك الدعوة كموضة يرددها كثيرون كالببغاوات.. دون فهم ووعي.

نجد أن البعض الآخر يقوم بذلك عن سابق إصرار يتعرضون صراحة إلى القيم الاجتماعية ويدعون لتفكيك الأسر.. ولا يتورعون في الجهر بمعاداة القبيلة وتقديمها كأمر مستهجن دون إبراز أهميتها القصوى لحياة الأفراد والمجتمعات.

السؤال الأهم الذي يتغافله أولئك.. أيهما أفضل الأشياء الطبيعة التي فطر الله الناس عليها من قبيل الأسرة والقبيلة أم التكوينات الاصطناعية المستوردة؟. وما علاقة تبني تلك المشاريع المشبوهة بتحقيق العدالة، والحرية والديمقراطية، وهل نجحت المجتمعات الغربية التي اختفت معها القيم الاجتماعية في تحقيق العدل والمساواة بين الأفراد، وهل ساهمت تلك المنظمات المدنية وفق

تعريفهم في تمكين الأفراد من المشاركة الحقيقية في العمليات السياسية والاقتصادية، أم أنها مجرد أشكال واهية وضعيفة ومحدودة التأثير؟.

إذا كانت الدعوة لإقامة منظمات المجتمع المدني من أجل الديمقراطية، فلماذا لا نتجه مباشرة إلى الموضوع وندعو للديمقراطية.. وهل من نموذج ديمقراطي أفضل من ذلك الذي يمكّن الجميع دون استثناء من المشاركة المباشرة والفاعلة في إدارة شئونهم؟. أسئلة أخرى تطرح نفسها.. لكن الحاجة ماسة لمناقشة خطورة الدعوة لما يسمى منظمات المجتمع المدني على الديمقراطية والعدالة والقيم والحياة الإنسانية.

إنه أيضا مجتمع المثليين

يروج البعض إلى أن انتشار ظاهرة زواج المثليين في المجتمعات الغربية يعود أساساً إلى مناخ الحرية والديمقراطية السائد.. ويذهب بعضهم إلى اعتبارها انعكاس لمدى التقدم والرقي الذي وصلت له الحضارة الغربية.. فتحطمت القيود المفروضة على تصرفات الأفراد ورغباتهم وأعادت تصميم القيم وفقاً لمصالح وغرائز الناس، لكن الحقيقة هي عكس ذلك تماماً.. الشذوذ ظاهرة طبيعية موجودة في كل المخلوقات.. لكنها تمثل نسبة ضئيلة جداً لأنها لا تنسجم مع ناموس الخالق الذي صور الأشياء في أحسن تقويم.. الشاذ بالمفهوم اللغوي هو القلة التي لا يمكن أن تظهر بين الأرقام والحسابات والإحصائيات، لكن ظاهرة المثليين المتفشية في الغرب لا ترتبط فقط بقلة من الشاذين، بل تضم أعداداً غفيرة يعد أتباعها بمئات الملايين وصار لهم صوت ورأي في إدارة الشئون العامة والخاصة... وبالتأكيد كانت لهم بصمة واضحة في صياغة القوانين التي يحتكم لها المجتمع في تحديد الخير والشر.. الممنوع والمباح.. إنها نتاج مسجل لما يسمى المجتمع المدني الذي يتكون من الأفراد القادرين على العمل وبأقل التزامات أخلاقية أو مادية تجاه الآخرين، مجتمع تنتفي فيه الحاجة إلى الأسرة لما تشكله من أعباء إضافية على الأفراد واتخذت فيه تدابير واسعة للحد من الإنجاب.

ولأهمية إشباع الرغبات الجنسية للبشر باعتبارها أحد نواميس الخلق يتجه الأفراد إلى تحقيق ذلك بوسائل أخرى لا تؤدي إلى التورط في حياة أسرية ترتب التزامات اجتماعية.. فظهرت وتصاعدت الدعوات للإباحية وتقديمها ضمن إطار حرية الأفراد، وبرزت فكرة علاقة الصداقة بين الذكور والإناث بدلاً من علاقة الزواج.. الأصدقاء من الناحية الجنسية أزواج بكل ما تحمله الكلمة من معاني، لكن دون التزامات قانونية أو اجتماعية لأحدهما تجاه الآخر.. أي دون التزام بإنجاب أطفال.

من نتائج ذلك أن المجتمعات الغربية أصبحت تعاني من مشكلة حقيقية لا يسمح المقام هنا لتحليلها، فهي مجتمعات تهرم وتتناقص عددياً باضطراد مخيف.. حسب إحصاءاتهم فإن معدلات

الولادة الشرعية وغير الشرعية مجتمعة تقل بكثير عن معدلات الوفيات، ونسبة الأفراد كبار السن تتجاوز بكثير الأفراد صغار السن.. إنهم يعانون من مشكل ديموجرافي حقيقي، والسبب هو أن علاقة الصداقة السائدة تمكن الأفراد من إشباع رغباتهم الجنسية دون توالد يذكر.. لكنها لا تحول بالمطلق دون إنجاب أطفال بالرغم من التدابير الصارمة التي تتبع وتطور طرق منع الحمل، لذلك اتجه الأفراد في الغرب في إطار المنظومة المدنية التي يروجون لها إلى تزاوج من نوع آخر وهو زواج المثليين.. حيث يتزاوج الذكور مع الذكور والإناث مع الإناث حتى أصبحت ظاهرة فرضت نفسها على القيم وصارت مطلباً اجتماعياً وأخلاقياً مشروعاً وفقاً لفكرة سيادة القانون وقداسته فقد صيغت الدساتير التي تعطي ذلك الحق الشرعية الكاملة.. وسنت القوانين التي تشجعه وتحميه.. وأطلق مصطلح الشواذ جنسياً على فئة أخرى تضم أولئك الذين يتزاوجون مع الحيوانات!! وهي ظاهرة تنمو كل يوم وتجد لها مساحة على الخارطة الاجتماعية في الغرب..

لا جدال في أن ظاهرة المثليين نتاج فكرة المجتمع المدني الذي يطرح بقوة على الساحة العالمية ودليلنا إضافة إلى منطق التحليل للواقع الذي يفرض نفسه هو مطالبة المؤسسات الغربية التي تدعو لما يسمى دمقرطة العالم وإشاعة قيم الغرب وقيامها بالضغط على الحكومات والمجتمعات بضرورة قبول وتشريع حقوق المثليين وحمايتها.. بالتأكيد سيخرج بعض الجهلة والسطحيين للرد على ما نقول، بعضهم سوف يرفض الربط بين فكرة المجتمع المدني بالمعنى الشائع للكلمة وآثاره السلبية.. يحاجون بإمكانية الاستفادة من إيجابيات الفكرة المدنية وتجنب سلبياتها، لكنهم يغفلون عن قصد أو غير قصد أن ذلك أمر غير ممكن، فالمشروع الغربي ليس قائمة طعام في مطعم يمكن للزبون أن ينتقي ما يشاء وفقاً لرغباته.. إنه رزمة كاملة وشاملة ومترابطة.. يستند بعضها على بعض تؤخذ كلها أو ترفض كلها.

من أولى متطلبات المجتمع المدني أطروحة سيادة القانون التي تبدو في ظاهرها إيجابية، لكنها في نتيجتها تعني الاستغناء عن القيم والأعراف وتجاوز الأسس الطبيعية للحياة الإنسانية المبنية بالفطرة على التكوينات الأسرية والقبلية.

وثانيها ضرورة تبني فكرة اقتصاد السوق والحكم الرشيد والتعددية وما إليها من أقوال.. النتيجة المؤكدة لذلك هي التأسيس لمرحلة الكوربوقراطية.. أي حكم الشركات الكبرى وسيطرتها على الأرض لمصلحة حفنة من البشر لا يهمهم سوى حجم الأموال التي يكتنزونها... إنها دعوى شاملة بأوجه متعددة، لعل أهم مراحلها الفوضى الخلاقة.. والإصلاح الاقتصادي الذي يعني عملياً رهن اقتصاديات العالم كله لعدد محدود من الشركات، وتغيير مناهج التعليم، وتعلم اللغة الإنجليزية لغة العالم، وتخريب الهوية الثقافية للمجتمعات واستبدالها بهوية ثقافية جديدة تضمن مصالح تلك القلة أصحاب الشركات العملاقة العابرة للحدود والقارات..

إن حسن النوايا في فهم المشروعات المطروحة لا يعني أنها إيجابية كأن يريد البعض أخذ فكرة الحرية الفردية من أطروحة المجتمعات المدنية أو أن يستخدم فكرة الدستور لحماية القيم الحضارية للشعوب.. أو أن يستفيد من التكنولوجيا في تحقيق الاستقلال الثقافي والاكتفاء الذاتي الفردي والمجتمعي.. هذه أحلام وأوهام لأن معاني الأشياء تؤخذ من حقيقتها ومن أهدافها ونتائجها.

إن فكرة المجتمع المدني مرحلة استعمارية جديدة لن تؤدي إلا إلى مزيد من الهيمنة الدكتاتورية والقمع.. ولن يكون من نتائجها سوى ما يعتبره البعض سلبيات كزواج المثليين والتزاوج مع الحيوانات.. وأصحاب الدعوة نفسها وأبواقهم لن تجد منهم من يفند حجة واحدة فيما نقول.. وإن كان بعضهم يتقن فن الرديح وثقافة الشتم أولئك ليسوا في دائرة اهتمامنا وآذاننا لا تسمع سوى الكلمة الحق حتى وإن اختلفت مع ما نقول.

*****

المجتمع المدني الحقيقي

صاحب العلة توخزه مرافقه.. مثل شعبي لا يحتاج مني لشرح أو توضيح لتبيان حالة بعض من الذين علّقوا على ما كتبناه عن المجتمع المدني.. من حقهم أن يفهموا كما يشاءون، لكنني لم أقصد التعرض لأحد، إنما أوردت بعضاً من جوانب المجتمع المدني المطروح التي لم ينكروها في ردودهم.. واستعاضوا عن ذلك بالتسطيح والقدح وترديد اسطوانة مشروخة عن الإقصاء والتخوين.. أنا أعلم علم اليقين أنهم لا يستطيعون تغيير معاني المصطلحات كما يشاءون.. لأن ما ذكرناه من طبيعة المجتمع المدني الذي يراد فرضه.. فهو لا يعني على الإطلاق الجمعيات الخيرية الأهلية كجمعيات رعاية المكفوفين والأيتام وجمعيات البر والإحسان، ولا حتى جمعيات حقوق الأفراد والحيوان، ذلك أن المجتمع الغربي صاحب المشروع لا علاقة له بالبر والخير والشفقة والرحمة، فهو مجتمع الشر.. يتولى قيادته الأشرار.. هو مجتمع تحسب فيه أعداد الجرائم بالثواني وليس بالساعات، مجتمع يزني فيه الأب مع ابنته والابن مع أمه ويقتل فيه الأخ إخوته.. ينام فيه ملايين البؤساء في الشوارع في وقت تهدر الأموال الطائلة في سبر غور المريخ وبلوتو، وتحرق مليارات الدولارات في جبال تورا بورا وصحراء الرمادي لإشباع نزوات شيطانية.. المجتمع المدني الذي يعنونه هو الذي أطلق منه رامسفيلد مسمى حرب تحرير العراق على عملية غزوه وتدميره.. وكان أعوانه من "الشلبيين" يتصدون لكل من يحاول أن يفضح ذلك ويتهمونه بالدفاع عن الدكتاتورية والشمولية والمقابر الجماعية، والنتيجة المؤلمة هي عراق اليوم الذي قتل فيه أكثر من مليون وشرد منه أكثر من ستة ملايين ودمر فيه كل شيء.. المجتمع المدني الذي يعنونه هو الذي أعلن فيه بوش الحرب على الإسلام تحت ذريعة محاربة الإرهاب.. فدمر بلاد المسلمين وأرعب العباد في كل مكان، في وقت لم يطلق فيه كلمة واحدة ضد الإرهاب الحقيقي الذي تمارسه العصابات الصهيونية في فلسطين وخاصة في غزة وفي لبنان، ولم يتجرأ الغرب مجرد الطلب إليها الانضمام تحت لواء منظمة الطاقة النووية الدولية خوفاً أن يحد ذلك من قدرتها على استخدام أسلحة الدمار الشاملة..

والله لن نرضى لبلادنا أن تصل إلى ذلك ليعرف الناس حقيقة المجتمع المدني الذي يراد فرضه على العالم.. والذي يعني النظام الغربي العلماني بكل تفاصيله من الدستور الذي يراد منه فرض قيم الغرب على المجتمعات والمعد سلفاً من خلال لجان وكالة الاستخبارات المركزية والخارجية الأمريكية ونسخته "النموذج دستور بريمر في العراق" وليس الدستور الذي يدعو له البروفسور رجب أبودبوس.. إلى التعددية التي يراد منها بث الفتنة والصراع داخل المجتمعات.. إلى نشر المسيحية بدل الإسلام، إلى التطاول على المقدسات وتدمير الهويات والخصوصيات للأمم.. أيها السادة نحن لسنا أطفالاً مغفلين تنطلي علينا الحيل ونصدق كل ما يقال.

إن كان بعض أولئك يدعون فعلاً إلى مجتمع مدني آخر غير الذي نعرف.. مجتمع تتعزز فيه حرية الفرد وتحترم آدميته... نقول لهم إن المجتمع الجماهيري هو المجتمع المدني الحقيقي، لأنه قائم على أنقاض النظام الرسمي السائد حيث ألغيت الحكومة وحل محلها نظام شعبي مدني.. يمارس الناس فيه السلطة مباشرة دون نيابة أو تسلط عن طريق المؤتمرات الشعبية ويكوّنون لجاناً شعبية تتولى المهام التنفيذية للسياسات التي ترسم في المؤتمرات فتحققت عملياً حالة مدنية كاملة وتامة على أرض الواقع، فمن يريد أن يعمل بجدية لتحقيق فكرة المجتمع المدني الحقيقي يتوجب عليه الدعوة لإقامة النظام الجماهيري وتعزيزه، لأن مؤسسات المجتمع الجماهيري هي تكوينات مدنية بطبيعتها.. حيث يتواجد الشعب بكامله دون استثناء في دائرة السلطة، فهو أداة التشريع، وهو الذي يصنع الأدوات التنفيذية ويوجهها ويتابعها ويحاسبها، وهو من يرسم لها حدود واجباتها والسياسة التي تتبعها والآلية التي تعمل وفقها.. من خلال منظومة تشريعية وإدارية عملية تمكّن الجميع دون إقصاء ودون عناء من المشاركة الفاعلة في إدارة شئون المجتمع، والمساهمة المباشرة في تنميته وتطويره وتسخير الطاقات كافة لتحقيق الحياة الكريمة لجميع أفراده.. ويسمح للفعاليات والتفاعلات الاجتماعية داخل المنظومة الجماهيرية بالعمل فقط من أجل تعزيز وترسيخ السلطة الشعبية.

المجتمع الجماهيري يضمن للأفراد تحقيق رغباتهم وإشباع حاجاتهم بحرية تامة دون الحاجة للتخلي عن المنظومة الاجتماعية والقيمية ودون التنازل عن المكتسبات الثقافية والفكرية..

المجتمع الجماهيري يفسح المجال واسعاً أمام الأفراد للخلق والإبداع في إطار الاحترام التام للآخرين.. وينهي بشكل تلقائي حالات الصراع المدمرة بين الأطراف في المجتمع، التي تعمل بكل الوسائل والأساليب لتحقيق غاية واحدة وهي امتلاك السلطة.. بإلغاء أهم أطراف الصراع وهو الحكومة، وأرباب العمل وكافة أشكال وأدوات القمع والسيطرة، وأيلولة كل اختصاصاتها إلى الشعب مباشرة، حيث يتم التعامل مع الإشكاليات المختلفة ومعالجتها بواسطة الحوار والنقاش ومن ثم التوافق، وبذلك تنتفي الحاجة نهائياً إلى التحزب والتجمع والتظاهر وكافة المظاهر السائدة في العالم اليوم والتي هي نتاج طبيعي لأزمة الأنظمة الموجودة الآن في العالم.

المجتمع الجماهيري يمكّن الأفراد من المحافظة على الروابط الأسرية والقبلية التي هي من طبيعة الخلق.. وأساس الحياة البشرية، ويؤسس لعلاقة تعارف وتعاون بين الشعوب والأمم بديلاً عن حالة التنافس.. التصادم والصراع.. يستند إلى شريعة مقدسة لا تتبدل ولا تتغير وهي العرف والدين.. تصيغ توافقاتها بما يخدم مصالحها وأهدافها، تمكن من الحفاظ على الهويات المختلفة للشعوب.. وفي المجتمع الجماهيري تأخذ الفنون والآداب والرياضة موقعها الصحيح بعيداً عن التجارة والاستغلال.. وهو مجتمع العدل والمساواة حيث لا مغبون ولا مهضوم ولا سيد ولا مسود، بل إخوة أحرار.. وهو بذلك لا يفسح مجال لمن يدَّعون التحدث باسم الضعفاء أو من يستترون بالقيم أو الدين لتحقيق مآرب خاصة بهم.. ولا لمن يجمعون أنفسهم تحت شعارات وكلمات هي محل استخفاف من الجميع، وهو المجتمع الذي تجد فيه الأجيال المتعاقبة مكانتها وإمكاناتها، وهو كما تحددت معالمه في وثائقه الأساسية يتحمل مسؤولية دعوة الآخرين إلى النور، لأن قضية الحرية لاتتجزأ.. والديمقراطية مطلب شرعي لكل إنسان أينما وجد.

في المجتمع الجماهيري تنزع كل أشكال القوة من مغتصبيها وترد إلى أصحابها الشرعيين، فالسلطة والثروة والسلاح ينبغي أن تكون بيد الشعب حتى لايستقوى بها طرف على الأطراف الأخرى... فالمجتمع الجماهيري، ومهما قال الجهلة والسطحيون أو حاول العملاء المرتبطون بالأجانب.. أن يخفوا عين الشمس.. هو بلا شك مستقبل البشرية.

*****

انظروا في الوثائق لعلكم تعقلون

طالب البعض تقديم وثائق ودراسات رصينة تؤكد صحة ما أوردته حول ما يسمى منظمات المجتمع المدني.. وبالرغم من معرفتي بأن أغلب الناس يعون مثلي تماماً حقيقة دعوة الغرب المشبوهة وأهدافها المعلنة والمخفية، وأن الأمر لا يحتاج إلى البحث والتنقيب وسبر أغوار الكتب والأراشيف؛ فهو واضح بين.. لكن بعض التعليقات السطحية أوجبت ضرورة تقديم البراهين وتذكيرهم بما يقوله البحاث الغربيون أنفسهم حول مخططاتهم واستراتيجياتهم تجاه منطقتنا والوسائل والأساليب التي يتبعونها.. مع يقيني بأن ما ينشر حول الموضوع هو نذر يسير، وأن ما خفي من معلومات هو بالتأكيد أعظم بكثير..

ففي شهر النوار فبراير 2010 نُشرت دراسة صادرة عن معهد السلام الأمريكي أشرف عليها دانيال برومبرج مدير مبادرة العالم الإسلامي بمعهد السلام الأمريكي، والبروفسور لاري ديموند مدير مركز التنمية والديمقراطية وحكم القانون بجامعة ستانفورد بكاليفورنيا والسيد فرانسيس فوكوياما أستاذ الاقتصاد بجامعة جونز هوبكنز ومؤلف كتاب نهاية التاريخ، وبمشاركة أكثر من 30 باحثاً أمريكياً وعربياً، وخلصت الدراسة إلى أن الهدف الأول لدعم مشروعات الديمقراطية وأطروحات منظمات المجتمع المدني في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا يجب أن يكون التصدي للظواهر التي تهدد الأمن القومي الأمريكي، وأن المصالح الأمنية الإستراتيجية للولايات المتحدة تفرض تطوير الأنظمة الحليفة للولايات المتحدة بالمنطقة وصبغها بمسحة ديمقراطية، لأن ذلك هو السبيل الأسهل للحيلولة دون وصول التيارات الإسلامية إلى السلطة في المنطقة وما قد يترتب عن ذلك من نتائج خطيرة على الأمن الأمريكي.. وبالإمكان لأي كان أن يطلع على الدراسة بكل سهولة ويسر وسوف يفاجأ بحجم التفاصيل المرعبة حول ما يدبر لنا في وضح النهار.. إذ تؤكد الدراسة على مطالبة الرئيس أوباما بممارسة الضغوط الشديدة على الأنظمة الحليفة في المنطقة من أجل البدء في التحول الإستراتيجي نحو الليبرالية السياسية باعتبارها السبيل الوحيد لتأمين مصالح الولايات المتحدة الإستراتيجية في المنطقة والعالم.. وتضمنت توصيات تفصيلية لكيفية التعامل مع كل دولة عربية على حدة..

أهم الحجج الدامغة التي نقدمها إلى أولئك المغفلين الذين لا يعرفون ماهية الأهداف الحقيقية وراء الدعوات المتزايدة لتكوين منظمات المجتمع المدني هي تأسيس الولايات المتحدة لعدد من المؤسسات والوكالات التابعة لوكالة استخباراتها وخارجيتها والبنتاجون والتي تعمل على وضع الخطط والبرامج لضمان سيطرة الولايات المتحدة على المنطقة وضمان تفوق دولة الكيان الصهيوني... تتولى تلك الوكالات والمؤسسات صرف ميزانيات ضخمة خصصت من الخزانة الأمريكية لتنفيذ مهامها.. ومن أبرز تلك الوكالات والمؤسسات، الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية التي تتبع الخارجية الأمريكية وتتولى رسمياً تقديم المساعدات والإعانات إلى المنظمات والمؤسسات التي تعمل من أجل استمرار الهيمنة الأمريكية على العالم، والتي يمكن التعرف على حقيقتها وأهدافها بالاطلاع على مواقعها في شبكة المعلومات الدولية.. ويكفي المرء مطالعة الشروط المطلوبة للحصول على منح الوكالة السخية التي تصل إلى ملايين الدولارات سنوياً.. المخصصة فقط لما يسمى مؤسسات منظمات المجتمع المدني وتشجيع المبادرات الفردية والجماعية لتبني أطروحاتها والدعاية لها، للتأكد من أوجه نشاط تلك الوكالة وانتفاء أي علاقة لها بتنمية الدول المتخلفة كما يظهر من اسمها، فهي تقدم أموالها واستشاراتها ودعمها فقط إلى تلك المنظمات التي تنشط للترويج لمشروع الهيمنة الأمريكية على المنطقة.

أمّا المؤسسة الأخطر فهي مؤسسة ميبي MEPI (مبادرة الشراكة للشرق الأوسط) التابعة أيضاً للخارجية الأمريكية والتي تعمل من خلال مكتبين إقليميين رئيسيين في تونس وأبوظبي ومكاتب في كل السفارات الأمريكية بالمنطقة.. والتي يتضح طبيعة نشاطها من خلال زيارة موقعها الإلكتروني والاطلاع على تعريفها هي لنفسها إذ تقول... بأنها مبادرة رئاسية تمثل تفاعل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية مع أصوات التغيير في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.. يمولها الكونجرس بقصد توفير موارد مناسبة وخبرات كافية لتعزيز الإصلاح في المنطقة والدفع بأداء منظمات المجتمع المدني... هكذا دون زيادة أو نقصان.. كما تعمل أحياناً مع مؤسسات اقتصادية أو أكاديمية، وأيضاً مع مؤسسات حكومية لدعم مشروع الشرق الأوسط الكبير.. وهنا ينبغي التذكير بين قوسين بمن هو صاحب مبادرة الشرق الأوسط الكبير، ولمن لا يعرف نقول: إنه الإرهابي شمعون بيريز.. وكذلك دعم كل البرامج الإصلاحية التي تخدم السياسة الأمريكية..

وفي مكان آخر من موقعها ترد جملة هي حلقة لتطوير ودعم مشروع الشرق الأوسط الكبير والبرامج الإصلاحية، وهي جزء من السياسة الخارجية الأمريكية للتعامل مع الإصلاحيين ونشطاء المجتمع المدني.

أما الوكالة الأكثر إثارة للشبهات، فهي المؤسسة الوطنية للديمقراطية NED التابعة لوكالة الاستخبارات الأمريكية والتي تدعي -حسب موقعها- بأنها مؤسسة غير ربحية يمولها الكونجرس لتمويل أكثر من 1000 مشروع في أكثر من 90 دولة.. أهمها تمويل أفراد وجماعات في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وبالتأكيد فإن الأموال تذهب إلى الجماعات التي تهدف إلى زعزعة الاستقرار في تلك المنطقة وتنشط في تجنيد عناصر بشرية تدعم الأطروحات الأمريكية بها.. وفي هذا السياق نذكر بأنه سبق وأن نشرت عدد من الصحف الليبية وثائق بالأسماء والأرقام حول دور تلك الوكالة في دعم البرامج الخاصة بليبيا المعدة للتشكيك في النظام الجماهيري.

في شهر ناصر (يوليو) 2010 نظمت مؤسسة النيد تجمعاً لأكثر من 200 من نشطاء المجتمع المدني في كراكوف في بولندا للإحتفال بالذكرى العاشرة لإطلاق مبادرة مجتمع الديمقراطيات.. وذلك مؤشر واضح لطبيعة دورها في خدمة المصالح الأمريكية.. أما المنظمات والهيئات السرية التابعة للأجهزة الاستخباراتية الغربية، فهي بالتأكيد أضخم وأكثر خطورة ويمكن للمرء أن يلمس نتائج عملها على الأرض.

وفي جعبتنا المزيد لقوم يعقلون!!!

لا شك في أن الدعاية الأمريكية القوية حققت بعض أهداف حملتها التضليلية.. فروجت للأكاذيب وطمست الحقائق السياسية الأمريكية. تحاول دائماً أن تختبئ خلف شيء ما لتتمكن من بسط نفوذها وهيمنتها، ولتضمن إخضاع العالم إلى أمد أطول.. لكن عدداً من الكتاب والمثقفين وبعضاً ممن فيهم بقية من ضمير يفضحون الأمر بين الفينة والأخرى، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن كتاب قيادة العالم أو قيادة القرن الحادي والعشرين لمؤلفه ليستر ثرو يوضح الإستراتيجية التي ينبغي أن تتبعها الولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا التي يجب أن تتركز على التوجه إلى إقامة ديمقراطيات صغيرة ونظم فيدرالية بحيث تتحول المنطقة إلى كيانات أصغر مما هي

عليه الآن بما يضمن سيطرة طويلة المدى لدولة الكيان الصهيوني باعتبارها مكون مهم لأمن الولايات المتحدة وهي الوسيلة الوحيدة لبقاء هيمنة أمريكا على العالم على الرغم من الدراسات والبحوث التي تبين الأعباء الضخمة التي تشكلها دولة الكيان الصهيوني على اقتصاد وسياسة الولايات المتحدة وسمعتها الدولية، ومن أبرز تلك الدراسات التقرير الذي نشر في صحيفة كريستيان ساينس مونيتور الأمريكية عام 2002 الذي أعده الخبير الاقتصادي توماس سنوفر والذي كشف أن إسرائيل كلفت الولايات المتحدة حتى نهاية عام 2001 (1.6.1973 تريليون دولار) أي ما يزيد عن 1600 بليون دولار.. أي أن كل مواطن أمريكي دفع لصالح إسرائيل مبلغاً وقدره 5700 دولار في وقت تعاني فيه أكثر من 33٪ من الأسر الأمريكية حالة عوز حقيقي.

الوثيقة الأخطر والتي أدعو الجميع إلى الاطلاع عليها هي كتاب جون بيركنز الصادر عام 2004 الذي حصد نسبة أكثر المبيعات لعدة سنوات حسب تقارير النيوزويك وعنوانه اعترافات قرصان اقتصادي ((الاغتيال الاقتصادي للأمم)) والمترجم إلى اللغة العربية.. الكتاب عبارة عن سيرة ذاتية لخبير اقتصادي مجند من قبل وكالة الاستخبارات الأمريكية ويعمل لدى شركة ماين MAIN المشبوهة لإعداد الدراسات والخطط الاقتصادية لدول العالم الثالث بحيث تصبح تلك الدراسات والخطط نتيجة الضغوط الرسمية الأمريكية سياسة معتمدة لتلك الدول تكلف المؤسسات المالية الدولية بتمويلها وتقوم الشركات الأمريكية بتنفيذها، وتخضع تلك الدول للمطالب السياسية للولايات المتحدة أي أن نتيجتها هي رهن اقتصاديات دول العالم الثالث إلى الشركات الأمريكية والمؤسسات المالية الدولية التي تدار أمريكياً، ومن ثم التحكم في قرارها السياسي إذ ينبغي عليها أن تفعل ما يطلب منها حتى لو تعلق الأمر بإرسال أبنائها للقتال دفاعاً عن أمن الولايات المتحدة.. هذه ليست نظرية مؤامرة وليست تخمينات أو تحليلات؛ إنها تفاصيل مرعبة يقدمها جون بيركنز الذي يروي ممارسته الشخصية.. كيف جند؟. كيف عمل في الأكوادور وإندونيسيا وغيرهما؟. ما هي النتيجة المتوخاة من تقاريره التي يعدها؟. وما هي البدائل في حالة عدم استجابة الدول لما يقدمه من اقتراحات ومن هي الجهة التي تتولى تنفيذ تلك البدائل والتي تتراوح بين الاغتيال كما تم مع بانما ((توريخوس)) والأكوادور الندي تشيلي أي الغزو العسكري.. جرينادا، بنما وغيرها...

يوضح الكتاب دور الشركات الأمريكية في السيطرة على اقتصاد العالم.. وفرض السياسات الأمريكية على الدول المختلفة ويعرض أسباب تمويلها لما يسمى منظمات المجتمع المدني تحت ذريعة المساعدات الاجتماعية والثقافية..

أمّا عن علاقة طرح مشروع منظمات المجتمع المدني بالانحلال الأسري وانتشار الفساد واختفاء القيم، فإن ذلك أمر معروف للجميع لا يحتاج إلى رصد وبحث ومعاناة، مع أن جوهر الموضوع لا يكمن في ذلك ودعم الظواهر المرضية كزواج المثليين إلا أن البعض يريد أن يتجاهل أموراً واضحة سطوع الشمس.. فلهم نقدم بعض المعلومات المنشورة من الغرب والتي يمكن الاطلاع عليها بسهولة ويسر..

ففي شهر الطير (أبريل) 2010 نشرت مؤسسة الإعلام البريطانية BBC تقريراً مطولاً عن حقوق المثليين في مصر وما يواجهونه من صعوبات وعدم حصولهم على حقوقهم في ممارسة حياتهم كما يشاءون.. ونذكّر بتدخل الرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك العلني ومطالبته السلطات المصرية بضرورة إلغاء الأحكام الصادرة بحق مجموعة من المثليين في مصر.. والضغوط الدولية لمعالجة قضية عبدة الشيطان في مصر واعتبار ممارساتهم حقاً من حقوق الإنسان..

وفي عام 2002 نشرت هيئة الإذاعة البريطانية BBC خبراً عن قيام نجم الروك العالمي السير إلتون جون والسير ايان مكلين وآخرون بتنظيم حملة عالمية حول حقوق المثليين في مصر وفي المنطقة العربية.. بقيادة مايكل كاشمان عضو البرلمان الأوروبي عن حزب العمال البريطاني..

أمّا اليوغاكارتا وهي مدونة حقوقية مهتمة بحقوق المثليين العرب فقد نشرت قبل أيام قليلة 2010.10.8 إنها بداية الطريق لوثيقة دولية لحماية حقوق المثليين.. في العالم العربي والإسلامي بالنظر إلى معاناة أولئك حسب المدونة في تلك المنطقة من العالم..

يوم 4 التمور (أكتوبر) 2010 أعلنت هيومن رايتس ووتش أنها ستكرم ستة نشطاء حقوقيين يتحلون بالشجاعة والإخلاص لنيل جائزة أليسون دي فورجيه للنشاط في مجال حقوق الإنسان.. منهم:

1. حسام بهجت مصري يدافع عن حقوق الأديان ربح قضية لصالح البهائيين.. حقوق الأقباط إلى آخره.

2. يوسف مولوغيتا إثيوبي مطالبته بدعم منظمات المجتمع المدني وحقها في الحصول على مساعدات خارجية من أجل الديمقراطية.

3. ستيف نيماندى الكاميرون.. يدافع عن حقوق المثليين ويدعو لتجريم القوانين التي تمنعهم.

أما انتشار الرشاوى وإفساد الذمم فسببه الأول الشركات الغربية التي تحصل على مشروعاتها وأعمالها في دول العالم الثالث من خلال تقديم الرشاوى وإفساد الأخلاق.. ولا أعتقد أن ذلك يحتاج أيضاً إلى وثائق وبراهين.

هذا غيض من فيض فمن يريد معرفة المزيد ففي جعبتنا المزيد، لكن الجهالة تعمي الأبصار وتصم الآذان فهم صم بكم لا يعقلون.

*****

نُخبة وأوهام

الوعي .. الخطوة الأولى إلى الأمام في كل شيء .. وهو أساس التطور .. ووسيلة التغيير .. عليه يستند الكل .. لتحقيق أية مشروعات مطروحة في أي مجال وعن الوعي ينصب حديث من يسمون أنفسهم نخب سياسية أو فكرية أو ثقافية .. وكذلك من ينعتهم أولئك النخب بأنهم من العامة .. أوالبسطاء والعاديين .. وما إليها من تسميات مهذبة لمسمى واحد وهو "الجهلة" ..

الوعي هو نتاج تراكم المعرفة حول الموضوعات المختلفة .. فاحتكار المعرفة يعني بكل بساطة احتكار الوعي .. وعندما تحاول الأمم النهوض تستند إلى وعي أفرادها .. فإن كان في حالة متدنية فلن تتمكن من ذلك .. وتحمل المحتكرون من النخب المسؤلية عن ذلك ..

بالنسبة للأفراد فالمعرفة حالة نسبية .. يكتسب ما يراه كافياً منها لتحقيق مصالحه ولا أحد يلهث وراء المعرفة المجردة دونما اعتبار إلى مردوديتها على مصالح محدودة تخصه .. والمعرفة أيضاً تؤدي إلى تمايز الأفراد .. واختلاف مقدرتهم على تحقيق مصالحهم .. وهذا سبب كاف كي يعمد البعض إلى احتكارها .. خلاصة القول أن النخب ليسوا سوى مجموعة من محتكري معرفة ما .. حتى وإن ادعوا أنهم نخب يعملون من أجل رفع وعي الآخرين ..

هذا أيضاً يفسر التركيز المتزايد على المعرفة والمعلومات في الأنشطة المختلفة .. وظهور نموذج اقتصادي جديد ... صار في وقت قصير جداً محور الاقتصاد العالمي ... وهو اقتصاد المعلومات .. وتقنية المعلومات .. ولن تجد إلا الاستغراب إذا حاولت أن تسأل كيف تسلل هذا المعطي الجديد بهذه السهولة والسرعة إلى المنظومة الاقتصادية للدول والأفراد ؟ .. لكن الإجابة تكمن في الصراع من أجل احتكار المعلومات .. ومحاولة احتكار أي نشاط يؤدي بالضرورة إلى انتشار ذلك النشاط على نطاق واسع حتى لو كان عملاً ضاراً كتجارة المخدرات على سبيل المثال ..

إن الصراع حول احتكار المعرفة يفرض أمرين .. الأول .. ظهور معارف جديدة يحاول مبتكريها احتكارها .. والثاني .. زيادة الطلب الجمعي والفردي للحصول على معارف جديدة .. أي أن مزيد المعرفة يؤدي إلى زيادة الطلب عليها وهكذا .. حتى صار سوق المعرفة أكثر الأسواق نشاطاً وأصبحت تجارتها أكثر أنواع التجارة رواجاً .. المعركة كلها تدور حول احتكار المعرفة .. ومن ثم السيطرة على الوعي .. ذلك أن المجتمعات تأسست وفق منظومة القلة والكثرة .. قلة محتكرة وكثرة خاضعة لعملية الاحتكار تلك .. والمنافسة تدور دائماً بين المحتكرين من أجل كسب مساحات أوسع للسيطرة وبالتالي تأمين حجم أكبر من الخضوع .. هي لا تقع بين المحتكرين وغيرهم .. بل فقط بينهم .. وهذا يفسر الصراع العلني بين من يسمون أنفسهم نخب .. في ساحات معارك المعرفة .. كلٌ يقدم نفسه على أنه أكثر قدرة على تقديم مشاريع ونماذج تحقق مصالح الشعب .. أي مصالح الكثرة الخاضعة لعملية الاحتكار .. وهذه النخب هي نتاج لعمليات احتكار أخرى .. ولا يتم فرزهم هكذا دون تأثير لتلك العمليات الاحتكارية واسعة النطاق .. هم يتوهمون أن احتكارهم للمعرفة يمكنهم من التأثير في وعي الناس باتجاه تحقيق مصالحهم هم كنخب .. أي أن ادعائهم بأن مشاريعهم تخدم مصالح الناس .. دعاوي كاذبة ومزيفة .. فهم يبحثون عن وعي بين الناس يكرس في النهاية مصالحهم الخاصة .. التي هي ليست مصالح الشعب .. بل تتعارض معها في أغلب الأحيان .. هم في حقيقة الأمر .. يقعون تحت طائلة افتراضات وهمية .. فلا هم نخب من الأساس .. ولا احتكارهم للمعرفة يساعدهم على توجيه وعي الناس .. لأن الوعي يعتمد أيضاً على أشياء غريزية مولودة مع الإنسان ، وعلى معطيات بيئية محيطة به تتأثر مع المعرفة لتشكل حالة وعي ما تجاه أمرٍ ما .. فالفرد يشكل وعيه الذاتي .. بطرقه الخاصة حتى لو تظاهر بالتأثر بما تطرحه النخب ..

الأفراد لا تنطلي عليهم حيل وآلاعيب النخب .. بل يتعاملون معها بنوع من الاستهزاء .. وفي أغلب الأحيان هم من يسخر وعي ما يسمى بالنخب لتحقيق مصالحهم .. هذا قول تسنده الدلائل العلمية .. فلقد حاول النظام الماركسي لعقود عديدة توجيه معارف الناس والتدخل في وعيهم حتى توهم الشوعيون أن كل الناس تحولوا إلى ماركسيين .. لكن لحظة رهيبة من لحظات القدر كشفت عن حجم الوهم الذي كانت تعيشه النخب الماركسية آنذاك ..

والنخب الرأسمالية التي سخرت إمكانات ضخمة للسيطرة على التعليم والإعلام بهدف توجيه الرأي العام للأفراد والناس باتجاه معين تتوهم إلى الآن .. أن أغلب الناس على الأقل تقبل المشروع الرأسمالي الغربي كحقيقة غير قابلة للنقاش .. لكن بعض الأحداث تثبت حجم الوهم الذي تعيشه النخب الرأسمالية أيضاً .. فلقد توهم الأمريكيون أن العراقيين سيستقبلونهم بالورود .. لكن الموت كان لهم بالمرصاد .. ستة عقود من الدعاية للكيان الصهيونية لم تؤدي إلا إلى تصعيد الحقد على الصهيونية في كل مكان ..

إن احتقار الناس للرأسمالية ومقاومتهم لها ولسياستها .. رغم القبضة البوليسية الحديدية والدعاية الإعلامية المكثفة .. دليلٌ قاطع على أن النخب الرأسمالية تتوهم النجاح في فرض النموذج الرأسمالي ..

الوعي .. لا تصنعه النخب ولا ينتج عن احتكارها للمعارف والمعلومات .. إنه حالة فردية خاصة بكل إنسان يتطور مع تطور الإنسانية .. ولن يكون قابلاً للاحتكار حتى ولو كان رسالة سماوية تطرح القيم كما يراها خالق الكون .. إن الدعوة ملحة موجهة إلى من يسمون أنفسهم نخباً بأن ينزعوا عن أعينهم غشاوة الوهم .. فهم موضع سخرية من الجميع ..

*****

شعارات ومضامين

الإصلاح السياسي والإصلاح الاقتصادي من أهم الموضوعات المطروحة على الساحة العالمية إذ لا يخلو خطاب سياسي في أية مناسبة كانت من التطرق إلى أهمية الشروع في تطبيق إصلاحات جوهرية في المنظومات السياسية والاقتصادية المطبقة في كل دول العالم .. ولقد تأسست عديد المؤسسات والهيئات والمكاتب الرسمية وغير الرسمية التي تتعايش على فكرة إقامة الإصلاحات السياسية والاقتصادية .. حتى أن المرء يتوهم أن العالم على أعتاب تغيرات جذرية في العلاقات السياسية والاجتماعية بين الأفراد والجماعات.. وينذر بتحولات خطيرة في النظم السياسية والاجتماعية القائمة.. لكن حقيقة الأمر لا تعدوا كونها زوبعة في فنجان.. ذلك أن الإصلاحات المروج لها تهدف إلى تعزيز فكرة تتبنى المنهج الرأسمالي في إدارة الدولة والاقتصاد .. في إطار شعارات حرية العمل والتنافس ودعه يعمل دعه يمر من جانب.. والسيطرة والاحتكار والفساد من جانب آخر حيث تنحصر المنافسة بين قلة من الأقوياء.. تتبع شعار الغاية تبرر الوسيلة .. المهم عندهم تكديس مزيد الأموال .. إذ أن كل الخطط والبرامج التي تطرح كخرائط لتلك الإصلاحات المزعومة تدور في فلك المؤسسات الرأسمالية ولتحقيق أغراضها وضمان سيطرتها على الدولة .. فعندما تنطلق دعوة للإصلاح هنا أو هناك يهرع أولئك الرأسماليون الذين يملكون الوصفات الجاهزة للتنفيذ... فتقدم وكأنها منتج جديد لدواء فعّال يقضي على كل الأمراض في لمح البصر.. وانحسرت دعوات الإصلاح في عدد محدود من الشعارات من قبيل .. اقتصاد السوق .. الانتخابات الحرة، تداول السلطة، تعدد الأحزاب.. وحرية التعبير.. التي تطرح على الملأ على أساس أنها النموذج الأفضل لحياة الإنسان.. لكن واقع حال الأنظمة المستهدفة بالإصلاح في أغلب دول العالم عدا عدد محدود يمكن أن يحسب على أصابع اليد الواحدة - تطبق رسمياً النظام الرأسمالي.. وتدعي أنها تقوم أساساً على تبني تلك الشعارات وتقيم مشروعاتها وفقها.. وتنطوي تحت لوائها ... حيث اقتصاد السوق هو السائد في اقتصاديات كل الدول تقريباً بعد سقوط منظومة الدول الماركسية .. من الناحية النظرية .. تحتاج الفرص بلا حدود للقطاع الخاص، ولمساهمة الأفراد.. ولحرية

المنافسة.. أمّا من الناحية العملية .. والتطبيقات الموجودة في الواقع فإن عدداً محدوداً جداً من الشركات العالمية تحرك أغلب الأنشطة الاقتصادية..المحلية والدولية.. وعدد محدود من الأفراد يستحوذون على الثروة العامة لمصالحهم الخاصة .. وسياسياً فإن كل الدول تدار بحكومات تأسست وفقاً للمقاييس والمعايير الرأسمالية.. من حيث إجراء انتخابات برلمانية ورئاسية حرّة برقابة دولية وفقاً لدساتير هي نسخ كربونية واحدة تقريباً... وفي إطار تعدد للأحزاب.. أحزاب هي نسخة كربونية واحدة أيضاً.. وكل تلك الدساتير المتعددة شكلاً الواحدة مضموناً تضمن نظرياً حرية التعبير وحق تكوين الأحزاب.. وحق التعبير والتداول على السلطة.. وحق الانتخاب.. وبعضها ذهب إلى أبعد من ذلك حيث أوجب حجم معين لمشاركة المرأة في العمليات السياسية.. إن الأغلبية الساحقة من دول العالم تدار اليوم وفقاً لفكرة فصل السلطات.. سلطة تشريعية من غرفتين... وجهاز تنفيذي يخضع لرقابة وتوجيه السلطة التشريعية ...ونظام قضائي مستقل .. لكن الواقع غير ذلك .. والدليل القاطع أنها جميعها مهددة ومستهدفة بالإصلاح.. ومن الناحية العملية فإن الرئيس أو رئيس الوزراء أو ما في حكمهما حسب الأحوال بيده كل السلطات.. ويستطيع أن يتخذ كافة الإجراءات .. ويجري ما يشاء من تغيرات وتعديلات .. حتى إن بعض المفكرين الغربيين يصفون ما يسمى باستقلالية الجهاز التشريعي والقضائي مجرد ديكور.. وبهارات لتزيين النظام السائد.. ولأن المجال لا يسمح بالدخول في التفاصيل .. لكن أي حالة في أي دولة يتوقع البعض أنها تطبق ذلك النظام بأفضل حالاته يمكن مناقشتها في ظل هذا التحليل حزب الأغلبية في البرلمان.. هو الذي يشكل الحكومة .. وهو خاضع لإدارة رئيس الحزب .. عندما عارض بعض أعضاء حزب العمال البريطاني توني بلير في قراره غزو العراق قام بطردهم من الحزب ومن مجلس العموم .. بكل بساطة..

وهكذا حال الإعلام فهو تقريباً مؤسسة واحدة على المستوى الكوني.. عناوين الأخبار والصحف موحدة في أغلب الأوقات والأماكن .. حتى إنه يمكن الاعتقاد بأن وسائل الإعلام كلها نسخة كربونية واحدة..

السؤال.. عن آليات الإصلاح المطروحة ومنهجه.. فإذا كان النظام السائد في العالم فاسد.. يحتاج إلى تدمير كامل ما في ذلك شك فهل يمكن إحداث التغيير الشامل في بنية ذلك النظام.. بتبني منهج ذات النظام الفاسد لإصلاحه ... لقد تأكد بما لا يدعو مجال للشك إن المعضلة الأساسية

تكمن في الرأسمالية التي فرضت على العالم منذ فترة ليست طويلة.. فصارت وكأنها حقيقة من بديهيات الكون .. الإصلاح الحقيقي ينبغي أن يتجه إلى المشكلة الأساسية المعروفة والتي لا تحتاج إلى جهد خارق لتوضيحها وتحديدها وتحديد آلية للتعامل معها.. وهذا لن يتأتى إلا بتبني مشروعاً حقيقياً للإصلاح .. يتعامل مع أساس المشكلة وليس مع أعراضها المختلفة .. ذلك أن أزمة السياسة والاقتصاد مترابطة بشكل وثيق ولا يمكن معالجة إحداهما دون التعامل مع الأخرى .. إن الدعوة ملحة إلى التمعن في جواهر الأمور وليس في ظواهرها.. حتى لا تتحول مطالب الإصلاح إلى جرعات مسكنة لداء عضال ينخر الحضارة الإنسانية ويهدد الحياة على الكرة الأرضية بالدمار المادي.. بعد أن تمكن من التأثير السلبي في القيم الإنسانية للعلاقة بين الأفراد..والجماعات..

فالأخطار المحدقة بالبيئة التي نعيشها والتي أصبح يلمسها بسطاء الناس في كل مكان تبين حجم المخاطر التي تهدد الإنسان في وجوده وحياته فما بالك بالأخطار الناجمة عن الصراع المتصاعد لأسباب سياسية أو اقتصادية .. إنها رسالة لكل ذو بصيرة أن يقرأ الأشياء كما هي.. وليس كما يراد لها أن تقرأ.. وأن نسرع الخطى نحو إصلاح حقيقي لمنظومة العلاقات المفروضة على الشعوب والبدء يكون في مقاومة ونبذ النظام الرأسمالي لأنه أساس فساد الحياة..

*****

وما أدراك ما العزوف

يثار نقاش في ليبيا حول عزوف الجماهير عن المشاركة في جلسات المؤتمرات الشعبية بكثافة.. ولمن لم يطلع على فكرة السلطة الشعبية وآليات تطبيقها ينبغي التذكير بأن المؤتمرات الشعبية هي الوسيلة التي يتمكن من خلالها الأفراد العاديون من ممارسة سلطة التشريع مباشرة دون نيابة، وتكلف أدوات لتنفيذ السياسات التي يقرونها من خلال الاختيار الشعبي المباشر "التصعيد" ، بتشكيل اللجان الشعبية على المستويات المختلفة.. وهي تضم في عضويتها جميع المواطنين الذين يبلغون سن 18 من الذكور والإناث.. وتنقسم المؤتمرات الشعبية أثناء الاجتماعات إلى مجموعة كومونات يضم كل منها 100 عضو لتمكين جميع المواطنين من مناقشة القضايا المطروحة بكل حرية وعمق وإصدار ما يلزم حيالها من قرارات.

المؤتمرات الشعبية هي الجهة الوحيدة المختصة بإصدار القرارات في كل ما يتعلق بالسياسة الداخلية والخارجية.. بدءاً من الميزانية العامة للدولة إلى سن كل القوانين ورسم السياسات التي تنفذها القطاعات المختلفة، ولأن عدد البالغين الذين يحق لهم المشاركة في اجتماعات المؤتمرات الشعبية في ليبيا يصل إلى قرابة 2½ مليون نسمة.. وبالنظر إلى أن نسبة المشاركة في اجتماعات المؤتمرات الشعبية لهذا العام وصلت إلى قرابة مليون ومائتي ألف مواطن حسب المعلومات الواردة من أمانة المؤتمرات الشعبية.. فلقد أثيرت مسألة المشاركة.. وطرح السؤال لماذا لم يشارك كامل أو على الأقل أغلب أعضاء المؤتمرات الشعبية في الدورة العادية التي تختص برسم السياسة العامة ومناقشة الميزانية والقوانين؟. وبالرغم من اليقين بأن طرح تلك الأسئلة ليس من باب الحرص على أهمية وضرورة ممارسة السلطة الشعبية بشكل فاعل، لكنها ربما تكون كلمة حق يراد بها باطل، إن الموضوعية تتطلب مناقشة الأمر بتجرد من الأحكام المسبقة وبغض النظر عن الخلفيات التي ينطلق منها البعض عند الحديث عن نسبة المشاركة وما إليها.

ويمكن الانطلاق في مناقشة الأمر بالتمعن إلى الخلاصات التي يقدمها أولئك، فيتضح أن من يطرحون مشكلة عزوف المواطنين عن المشاركة في جلسات المؤتمرات يقفزون في تحليلاتهم واستنتاجاتهم مباشرة ودون مقدمات مناسبة إلى النتيجة التي يريدون الوصول إليها، وهي أن صيغة السلطة الشعبية غير مناسبة لممارسة الديمقراطية وتمكين الجماهير من السيادة وإدارة شئونها ويدعون دون مواربة إلى ضرورة التراجع عنها والعودة إلى الصيغ السياسية السائدة في العالم القائمة على فكرة التمثيل.. وذلك مربض الفرس.. إذاً الأمر لا يتعلق بالحرص على أهمية مشاركة جميع الناس في تناول ما يتعلق بشئونهم وصناعة القرارات السياسية التي تخدم أهدافهم.. بل هو محاولة للتسلل والتشكيك في شرعية السلطة الشعبية ومقدرتها على استيعاب آمال الجماهير وتحقيق أهدافها وأحقيتها لتكون بديلاً عملياً للنظم الديكتاتورية السائدة التي ترتدي لباس الديمقراطية.

لنفترض جدلاً أن من يشارك في جلسات المؤتمرات الشعبية هو نصف ما يعلن من أمانات المؤتمرات.. أي إن الأمر يتعلق فقط باشتراك أكثر من 25٪ من السكان في مناقشة جدية ومعمقة لكل السياسات والقوانين والموازنات والاتفاقات والسياسة ويصدرون بشأنها ما يلزم من قرارات واجبة النفاذ.. لنقارن هذا الرقم بأعداد أولئك الذين يحق لهم المشاركة في مناقشة السياسات والقوانين والموازنات وإصدار القرارات في أية دولة من دول العالم.. بمراجعة أعداد النواب في البرلمانات.. عدد أعضاء مجلس النواب في لبنان يعد بالعشرات، وفي مصر بضع مئات، وفي أمريكا عدد أعضاء الكونجرس ، وعدد أعضاء مجلس البرلمان البريطاني بضع مئات أيضاً، وهكذا.. ولعل التعرض إلى الأرقام وحدها يكفينا عناء الجدل.. والبحث عن الأدلة على الفروق الشاسعة بين النظام الجماهيري والنظم السياسية السائدة.. لنرى بوضوح نسبة من يسمح لهم بتناول شئون الدولة هنا وهناك.. هذا إذا تجاوزنا السؤال المهم عن أي نظام يُمكّن المواطن العادي من التعبير الحقيقي عن آرائه والمشاركة في تسيير أموره.. ودون الحاجة إلى التطرق إلى إشكالية مهمة وهي هل يستطيع أي كان أن يعبر عن آمال وإرادة وطموحات الآخرين، فما بالك لو كانت أعداد من يمثلهم ويتحدث باسمهم تحسب بالملايين؟. وهل تتم عمليات اختيار الممثلين بطرق صحيحة؟. وعن نسب المشاركة في اختيار الأدوات التشريعية في العالم أي أعداد السكان المخولين قانوناً بذلك، حسب التقارير التي

تصدر عند انتهاء كل انتخابات في كل أنحاء العالم - نسبة المصوتين تتناقص باستمرار- أي إن طوابير من تكمم أفواههم في إطار فكرة التصويت تتقلص يومياً، في ذات الوقت الذي تتطور فيه أساليب تزوير الانتخابات بداية من قوانين الانتخابات التي تصدرها أدوات الحكم، إلى من يسمح لهم بالترشح ومن يسمح لهم بالتصويت فما إن تبدأ وتنتهي عملية أية انتخاب في أي مكان تنطلق تهم التزوير التي تلحق بها كلها دون استثناء.. إذا أغضضنا النظر عن الصراعات المدمرة التي تواكبها وتعقبها دائماً، وما ينتج عنها من قتلى وجرحى، وتدمير للبنى الاقتصادية والاجتماعية وما يصاحبها من نزاعات فئوية وطائفية وقبلية وجهوية.. وهو السبب الرئيسي لعزوف الناس عن المشاركة فيها واضطرار النظام الغربي إلى ابتداع أساليب معقّدة للدعاية والترويج الانتخابي وما ينتج عنها من استنزاف رهيب لموارد الشعوب المالية والبشرية.. وهي أيضاً الدافع الحقيقي وراء ظهور ما يسمى المجتمعات المدنية في أشكال متعددة حيث يحاول الأفراد إيجاد موطئ قدم لهم في نظام مغلق ومقفل وشمولي بكل ما تعني الكلمة من معنى رغم الدعاية الزائفة المحيطة به.

إن مشاركة 25٪ من عدد السكان في ليبيا في إصدار القرارات المناسبة لتنظيم الحياة السياسية والاقتصادية بعد مناقشة مفصلة ومطولة تعطي للديمقراطية معنى حقيقياً، فيصبح الحكم للشعب وبالشعب حسب التفسيرات المتواترة للمصطلح الإغريقي أمراً مطبقاً عملياً على الأرض.

والسؤال كيف يتجرأ أولئك البعض إلى التلميح بأن النظام السائد يوفر فرص مشاركة أفضل من نظام سلطة الشعب رغم ما يقدمه هذا النظام البديع من فرص لإقامة ديمقراطية حقيقية وليست شكلية.. مع حق الاحتفاظ بالقول إن سلطة الشعب تجربة إنسانية في بدايات الميلاد تحتاج إلى مزيد الرعاية والعناية حتى تصبح يافعة قادرة على التحدي.. لكنها تقدم أفضل البدائل إلى الإنسانية الحائرة التائهة الغارقة في دوامة الصراع من أجل التحكم والنفوذ والاستغلال.

*****

جوع وأصوات وتصويت

في أثينا يجتمع الناس أمام قاعة البرلمان في مشهد يذكّر بالديمقراطية الأولى.. شعارهم لا.. لقرار البرلمان بفرض مزيد الالتزامات على الشعب لتجاوز الأزمة المالية.. نواب الشعب المفترضون ليسوا أمناء حقيقيين على رغبات المواطنين الذين يقفون على حافة الإفلاس.. اخترق صوت العمال أمواج الأثير.. قالوا بوضوح هم من ينبغي أن يدفع الثمن.. أولئك اللصوص الذين اكتنزوا ثروات اليونان لأنفسهم وتركوها على قارعة الطريق تتسول اللئام عساهم يتكرموا عليها بفتات خبز بائت.. هل الشعب أكثر وعياً من النواب؟!!.

في بغداد تفوح رائحة الطبخ الأمريكي للانتخابات المزعومة تزوير ومزورين في كل الأنحاء.. اكتملت عدّة الشغل.. صناديق بلاستيكية شفافة.. أصابع مغموسة في حبر سري ترفع أمام الشاشات ليصدق الناس أن الانتخابات ستنال قدراً من النزاهة والشفافية.. صراخ الشعب يخترق الأثير الكل يجزم بأن التزوير قادم لا محالة.

قال أحدهم ماذا لو وزعت هذه الأموال التي صرفت على الحملات الانتخابية لشراء أصوات الناس على الفقراء والمحتاجين؟. أقسم أن لن يبقى من يتضور جوعاً في بلد الشهداء.. لكن المفوضية المستقلة لها رأي آخر.. لقد أسقطت كل أسماء المستقلين فشملت القائمة أناساً في رأس السلطة.

عندما ذهب الناخبون وجدوا أسماءهم مشطوبة.. صرخوا ألسنا عراقيين.. أليست دماؤنا تروي أرض العراق المجيد.. لكن الكلمة الفاصلة كانت للدستور.

قرأت صفحات من كتاب بول بريمر "عام في العراق".. تأكدت من سبب المأساة التي يعانيها العراقيون.. الرجل قال كل شيء.. فضح الجميع.. وكشف ما تحت الجلابيب والعمائم التي

حاول البعض أن يخبئ تحتها قبو إمام قد يحضر متأخراً أو يفتح باباً نحو المنطقة الخضراء.. لكن ضجيج الانتخابات يملأ الأرجاء.. يصنع أملاً كاذباً.. وتبدأ الحكاية من جديد.. إعادة بائسة لنفس المشهد.

في سرت جلس أعضاء مؤتمر الشعب العام يحيون العيد الثالث والثلاثين لإعلان قيام سلطة الشعب.. اليوم العظيم الذي تجاوز فيه الشعب الليبي مهازل البرلمانات وألاعيب البرلمانيين.. وخدعة الانتخابات.. اليوم الذي وضع فيه الإنسان الخطوة الأولى في مسيرة الحرية.. حيث الإنسان الفرد الحر.. الجدير بالحياة.. وحيث الشعب السيد مجموع الأفراد لا مغبون ولا مهضوم ولا سيد ولا مسود.

في ليبيا لن يقف أي دجال ليقول انتخبوني أنا أفضل من يمثلكم.. سأعمل لكم وأعمل من أجلكم.. ولأن يجد سماسرة الانتخابات وسيلة لجمع المناصب وتجميع الأموال.. لن تمتلئ شوارع ليبيا بملصقات تمجد هذا المرشح أو ذاك.. ولن يكون مجالاً لمهرجانات الكذب في الحملات الدعائية الانتخابية.

في سرت يجلس الأمناء في قاعة مؤتمر الشعب العام يحملون قرارات المواطنين لصياغتها في صورة نهائية.. لن يقف أحد يتبجح بأنه يحمل طموحات الجماهير.. ويسعى لتحقيق آمالهم وأحلامهم.. بل يجتمع المصعدون من قبل الجماهير.. كل يفتح حقيبته.. يقرأ ما قاله الناس العاديون في مؤتمراتهم الشعبية الأساسية.

منتقدو الديمقراطية المباشرة يستندون إلى أمرين أساسيين.. أولهما عدم وجود آلية عملية لتطبيقها.. وثانيهما.. عدم وعي الناس العاديين البسطاء وعدم معرفتهم ومقدرتهم على ممارسة السياسة وإدارة أمورهم وتصريف شئونهم.. لكن 2 مارس عام 1977 قدم آلية عملية بسيطة قابلة للتحقيق لكيفية ممارسة الديمقراطية المباشرة.. من خلال تقسيم الشعب إلى تجمعات صغيرة يتمكن فيها المواطنون من ممارسة حقهم المشروع في السلطة.. وتكوين لقاءات في مستويات تنسيقية لصياغة ما يتناوله الناس في شكل قرارات وقوانين ورسم سياسات وما إليها.. أمّا الاعتراض الثاني الذي

يقول بعدم أهلية المواطنين العاديين لممارسة حقهم في السلطة والإدارة والتشريع فهو باطل من أساسه، ويمكن دحضه بطرح السؤال المنطقي.. لماذا إذاً هم يستندون إلى وعي المواطن وقدرته ومعرفته على اختيار أدوات الحكم؟.. لو كان المواطن العادي جاهلاً.. بسيطاً عاجزاً فماذا ستكون نتائج اختياره؟؟ إن فكرة الانتخابات تفترض نظرياً أن الشعوب واعية وقادرة على اختيار حكامها وتقييمهم.. وكل الحملات الانتخابية تتخذ من ذلك محور دعاياتها ونداءاتها.. الأمر ينبغي أن يكون محدداً.. أبيض أو أسود.. أن يكون المواطن قادراً عل التصرف في شئونه فيترك وشأنه في ممارسة حقه.. أو أن يكون غير قادر فليترك في شأنه أيضاً، وأن تتكون أدوات الحكم بواسطة القلة القادرة.. ببساطة منظرو المشروع الليبرالي يوقعون أنفسهم في تناقض صارخ لابد من التعامل معه.

لو صدقنا ما يقوله جميع السياسيين على مختلف عقائدهم في أنهم إنما يقدمون أنفسهم لخدمة الشعب ويقسمون على رعاية مصالحه العليا فلماذا لا يسمحون للشعب أن يخدم مصالحه بنفسه؟. عندها سيقدم لهم الشكر والتقدير وتدرج أسماؤهم في قوائم الشرف.

المسألة الأخرى التي يطرحها الثاني من مارس هي أن الديمقراطية الحقيقية وحدها تمكن من التعايش السلمي بين الأفراد والمجتمعات.. فلقد وضعت النظرية الجماهيرية الفرد وحريته وحقوقه ومصالحه في موضعها الصحيح فلم تقدمه مجرد مصاص دماء يبحث عن الفرصة ليستحوذ على ما لدى الآخرين كما هو في النظام الرأسمالي.. ولم تبقه جملة خطابية جميلة عن الشعب والجماهير كما هو واقع الحال في الأنظمة الشمولية.. الشعب ليس سوى مجموع أفراد.. وسلطة الشعب نقلت السيادة إلى كل فرد من أولئك الأفراد.. سلطة الشعب تعني سلطة كل الأفراد أي أن يمارس كل فرد حقه كاملاً في التصرف في شئونه ويشارك مع الآخرين من خلال النقاش والحوار في صياغة آليات التصرف في شئونهم الجماعية.. في النظرية الجماهيرية الفرد دولة في حد ذاته.. والمؤتمر الشعبي يمثل ائتلاف دول الأفراد الأحرار.. في داخل قاعة المؤتمر الشعبي تطرح الآراء وتقارع الحجة بالحجة ليتوافق الناس على أمر ما.. التوافق هو سمة الديمقراطية الشعبية المباشرة وهو عملية طوعية من كل فرد نتيجة حوار ونقاش ومن ثم اقتناع..

ذلك يفضح الدعاية الزائفة للديمقراطية الغربية التي تدعي حرية التعبير وحق طرح الآراء وفكرة الرأي والرأي الآخر.. في واقع الحال الديمقراطية الغربية تقوم على الرأي الواحد.. وعلى

توحيد السلطات وعلى أن السلطة سلطة والمعارضة معارضة حتى انتهاء الدورة الانتخابية.. من لهم الأكثرية التسلطية.. ومن منهم الأقلية الرافضة والمعارضة هم قوة ثابتة لا تتغير إلا بانتخابات جديدة يسمح للناس خلالها من التعبير بإلقاء ورقة في صندوق بلاستيكي.

في واقع الحال الانتخابات عملية تكميم قسري للأفواه حتى وإن سميت مجازاً تصويت.. في سلطة الشعب يتفق الأفراد ويختلفون حول أمر ما.. لكن الأغلبية والأقلية ليست ثابتة بل متغيرة.. أساسها قناعات الأفراد واهتماماتهم ومصالحهم وتنتج عن عملية حوار ونقاش وجدل قد يكون حاداً ومطولاً.. فمن يضمن حرية التعبير إذاً ؟؟.

إن أثينا وبغداد وسرت شواهد حية على أن العالم يبحث عن نظام آخر جديد وبديل.. فمهما كانت حملات الدعاية وجعجعة الإعلام وأكاذيب السلطويين.. فلن تستطيع أن تخفي حقيقة الأشياء إلى الأبد.. اليوم القادم يوم للحرية ما في ذلك شك.. والثاني من مارس سيكتب في تاريخ الأمم يوماً مشهوداً.

زلزال في الغد

لا تنظر إلى الخلف.. فالماضي قريب وإن بعدت السنون لكن الغد يبدو بعيداً وإن كانت الأيام قليلة بين الآن والغد.. لحظات تمر بسرعة البرق.. لن يتمكن الإنسان من حسابها، لكن التاريخ تسجله أحداث تقع في هذا الوقت المستقطع بين زمنين.

في وطني كانت كل الأحداث الجسام التي غيرت مجرى التاريخ.. كم من مدون كتب أشياء وهو يرى بعين واحدة؟. وكم من راو خانته الذاكرة أو حاول أن يخون الذاكرة.

عندما تكون الأحداث فوق الأشياء المعتادة ستكتب نفسها ولن تحتاج إلى مؤرخين يغمسون أقلامهم في حبر قد تمحوه الأيام.. بين اليومين الفائت والآتي تكتب مجلدات من الأخبار تحمل أطناناً من الصور المتراكمة في زمن محسوب بلحظات.. عندما جيء ببعض الأوغاد لتزوير التاريخ لم يجدوا أوراقاً مكتوبة.. صدمتهم المشاهد المحفورة نقشاً في صخر من صوان.. الحضارة الإنسانية ليست عملية رياضية تتسلسل أحداثها تلقائياً بقانون معلوم، لكنها صور تتلاحق لأعمال باهرة هنا وهناك.. أعمال تأتي هكذا فجأة وبدون مقدمات زلازل متتالية عشوائياً تشكل الخريطة الحضارية.

ولأن الغد مجهول رغم عبقرية الحواسيب والمحوسبين ودقة التخطيط والمتابعة وكثرة المعلومات والمحللين، فإن التكهن بالمستقبل أمر يخضع لنظرية الاحتمالية صحت أو خابت.. كل يغني على ليلاه إنها فرصة سانحة للمنجمين بالغيب، ستجد منهم علمانيون يتقنون فنون الحساب والأرقام.. وتجد بينهم دينيون يخلصون العبادة.. كل يجهد نفسه لخطف عقول الناس وشد الأنظار إليه.

هم يعلمون أنهم يجهلون الغد كسائر الخلق لكنهم يكابدون لإقناع الناس بين شيء ما بين نواظرهم.. كل الأديان تدعو إلى إعمال العقل والتمعن في الأشياء.. وترك المجهولات، لأنها

ستصبح عما قريب من المعلوم.. لكن كل رجال الدين دون استثناء يدعون إلى إبطال العقل والتفكير والاعتماد عليهم في فهم الأشياء.. ومعرفة القادم من الأحداث.

سألت نفسي كيف خرجت طبقة رجال الدين في الإسلام، رغم تحذير القرآن الكريم منهم ومن خطورتهم، ورغم جهد الرسول صلى الله عليه وسلم للتفريق بين دوره كبشر إنسان، وكحامل لرسالة الإسلام السمحة.. القرآن الكريم الذي هو الجامع الشامل لكل الأشياء- قول الله الحق- أمر بأن لا نرجم بالغيب لأنه ملك له وحده؟ في الديانات الأخرى تكمن أسباب منطقية لظهور طبقة رجال الدين من يصدرون صكوك الغفران.. وبين جلابيبهم يمر الناس إلى الجنة، لكن الإسلام ينهى عن ذلك بكل الوضوح والحزم.

بعضهم يصنع من المجهول في القادم من الأيام مجال عمل مربح.. يدّعون معرفة الأحداث قبل وقوعها.. مع أنها تقع هكذا دون أسباب نعرفها.

كل الأشياء قد تتغير فجأة وفي لحظة واحدة وبدون مقدمات.. عندها يفرض أمر واقع جديد.. الذين يقولون بأهمية احترام الأمر الواقع يجهلون أن الأمر الواقع اليوم قد يستبدل بأمر واقع آخر في لمح البصر. قال أحدهم يعلق على بعض مقالاتي: إني أقحم فساد النظام الغربي في كل الأشياء وأحمله مسئولية جميع الأخطاء.. وهذا كلام فيه تجن كبير.. ويذهب مباشرة إلى نقد الفكرة الجماهيرية التي أدعو لها.. حاول جاهداً البحث عن مطعن.. فلم يجد سوى الأمر الواقع يتخذه مشجباً للخوض في جدل فكري حول المستقبل بالحديث عن ليبيا وعن مشاكلها الآنية.. يحملني ما لم أقله.. فأنا أعرف أن الحل الجماهيري ليس غاية في ذاته.. وإنما هو طرح نظري لمعالجة مشاكل الناس.. إن لم توجد مشاكل فلا حاجة للبحث عن حلول.

نحن نبحث بين دفاتر المفكرين عن حلول ناجعة.. وفيها الكثير.. لكن البعض يبحث عن ذريعة ما.. وآخرون يعبرون عن حالة حقد وحنق دفينة.. صاحبي لم يتعرض إلى الموضوع من بعيد أو قريب.. لم يكن مستغرباً أن يدس بعضاً من كلمات قدح بين السطور.. هذا شأنه.. لكنني أقول له إني أدعو إلى فكرة بسيطة تستند إلى ناموس الحياة.. لماذا يتناسى بعضهم أن الناس ليسوا سوى

مجموع الأفراد؟.. الفرد أدرىٰ بمصالحه ومشاكله وقادر وحده علىٰ التعامل معها.. أنا لم أدعي أنني أعلم بمشاكل الناس.. وأَقْدَرُ منهم علىٰ حلها.. أو أنني أعرف الغد وما يخفي لكل منهم.. أنا أقول بكلمات واضحة وضوح الشمس.. دعوا الناس وشأنهم.. اتركوهم يتصرفون كما يشاءون بكل حرية.. لكنها حرية للكل دون استثناء.. لن يجدوا سوىٰ سؤال ساذج لماذا لم ينجح التطبيق في ليبيا في تجاوز المشاكل التي قد نقبل بها جدلاً؟ لكنهم لا يسألون نفس السؤال عندما يتعلق الأمر بالفكر المبهرين به.. لماذا لم يعالج النظام السائد في كل الأرض والذي يفرض كأمر واقع فوق النقاش والنقد مشاكل الأفراد والجماعات؟. هل يعيش سكان الأرض جميعاً دون مشاكل وليبيا فقط الاستثناء؟.. أم أن الحال السائد في كل مكان هو صراع.. وصراع؟ ستكون حجتهم " ليس في الإمكان أبدع مما كان " وأن هذا النظام أمر واقع لا يمكن أن يتغير.. وفقاً لمنطقهم ذاك.. لا يعقل تصور عالم بدون أمريكا وأوروبا غربية وحلف الناتو وبدون رأسمالية وتعددية وانتخابات نزيهة أو مزوّرة.. ومنظمات مجتمع مدني صوري.. ونخب تدّعي علم الغيب.. وامتلاك عصا موسىٰ.. هذا هو الحاضر... لكنه ليس التاريخ وليس الأمر الواقع... وبالتأكيد لن يكون المستقبل.. لنرجع إلىٰ الوراء قليلاً.. علّنا نرىٰ معالم اليوم القادم.. أين الاتحاد السوفيتي... أين ألمانيا... أين الاستعمار.. أين العثمانيون.. أين الأندلس.. أين.. وأين؟؟ ألم تكن تلك المسميات أمراً واقعاً ولردح طويل من الزمن؟!!.

هذه الأفكار التي يدعون لها.. والتي صارت " طوطماً " غير قابل للنقد.. ما عمرها الزمني؟؟ لكنهم لا يستندون إلىٰ المنطق.. وحججهم واهية.

لذلك تراهم يتقنون فنون التجريح الشخصي.. والزج بالأكاذيب وكأنها حقائق.. في آذانهم صمم فلا يستمعون القول.. والنظارات السوداء تغطي عيونهم فلن ترىٰ النور الساطع ليرىٰ الناس أن واقعاً أفضل يلوح في الأفق.

نحن نضيء الشموع بدل أن نلعن الظلام.. وتلك الشموع ستضيء طريق الناس في مسيرة الثورة الشعبية الآتية كزلزال يدمر الواقع السيئ.. ليفرض واقعاً جديداً ربما يكون فيه للإنسان شأن عظيم.

نخب وأنخاب

أكثرهم من يتحدثون ويكتبون عن معاناة الشعوب ومأساتها يقدمون الوصفات الجاهزة لتخليصها.. أينما يبحث المرء عبر الأثير أو بين الأوراق ستجد كماً هائلاً من الكلمات التي تحشى في أدمغة الناس.. كلام فاسد وقول طالح وآراء مخالفة ومختلفة.. سيجد أقوالاً وكتابات تبحث عن المشاكل لتضخمها فتصنع من الحبة قبباً.. وتفتح جرابها لتخرج منها حلولاً سحرية لكل المشاكل.

سوف يتبين بجلاء كم هي مسكينة الشعوب التي ترزح بين سياط التسلط، ودجل النخب، لكن التمعن في الحروف والسطور وبين السطور يظهر أن أولئك إنما يتحينون الفرص للقفز فوق الرقاب وقطع الأرزاق والأعناق.. يستخدمون معاناة الشعوب وآلامها وآمالها وسيلة للوصول إلى غاية واحدة وهي التحكم والاستئثار.. وسيرى الناس نيوب الليوث باينة متحفزة للإجهاز على فريستها.. يومها يعلمون أن تلك الدموع التي تسكب باسم الشعوب ليست سوى دموع التماسيح، وأن ذلك الصراخ والعويل لا يعدو كونه عواء جراء جائعة تتصارع للنيل من فريستها.. سيظهر أيضاً أن الجميع على اختلافهم وصراعهم يستخدمون نفس اللغة.. يتحدثون بنفس المفردات والكلمات.. يرفعون نفس الشعارات التي تدّعي مقارعة الظلم والدكتاتورية والقمع والاستعباد.

ولأن الأمثلة لا تحصى فلن نطنب في إيرادها احتراماً للقراء الأفاضل، فهي في متناول كل يد.. باينة في كل سطر يقرأ وفي كل جملة تسمع ومشهد يرى.. من احتلال العراق وقتل أهله وتشريدهم الذي تم تحت شعار الحرية والديمقراطية.. فكانت حسب ادعاءات رامسفيلد.. حرباً لتحرير العراق ولإعماره ولبناء عراق جديد.. إلى الانقلابات العسكرية التي ترسم الخارطة السياسية لأغلب أدوات السلطة في العالم والتي يعتبرها الانقلابيون عمليات ضرورية لإعادة الشرعية وإقامة الأنظمة الدستورية.. حتى صارت دعوات إلى الرئاسة لمدى حياة الرئيس مطلباً ضرورياً لحماية المكاسب التنموية.. ولتأمين البنى الاجتماعية.. وهكذا..

أينما تولون وجوهكم ستصدمكم ذات الشعارات- التي تقع بين ستعمل حكومتي وانتخبوني أنا أفضل لكم- ستتكرر عبارات " انتخبونا نحن نضمن مستقبلكم.. انتخبونا نحن نحقق أحلامكم.. انتخبونا نحن دواء آلامكم.. وهلم جرا ".. وفي كل مكان.. عندما تدور رحى المعارك الانتخابية تولد آلاف الكلمات الجديدة.. وتعلق ملايين اللافتات والملصقات.. تكتب مئات آلاف الشعارات المتجددة كلها دون استثناء، تقال وتكتب بلغة واحدة وتحوي عبارات واحدة.

عندما يقف المرشحون أمام أنصارهم الذين يقبضون الثمن نقداً وعداً ومباشرة قبل الانتخابات.. سنرى حجم الكلمات التي تخرج من بين أوداجهم، فيخيل إليك أن الأنبياء يعودون وأن حياة أخرى سماوية قائمة بعد لحظات.

ولأن الأكاذيب تولِّد أكاذيب أخرى فإن لغة هذا الزمان هي لسان حال الكذابين حتى وإن وجدت من يصدق بعضها إلى حين..

لقد صارت حياة الناس مزيجاً بين مال مسروق وكلمات جوفاء على أمل المزيد.. سواء مزيد الأموال بالسرقة والاحتيال.. أو المزيد من خطابات رنانة وكتابات تحشى بكلمات بلا معاني في أغلب الأحيان.

وهكذا تختزل الحرية في كل معانيها السامية.. والحياة الكريمة بكل أوجهها المادية والمعنوية في شيء واحد.. أنا أفضل من يحكمكم.. وأنا أنزه من يتصرف في أموالكم.. ولن تجد بين طيات الكلمات سوى عبارات تبرير لنجاح مزعوم كاذب أو تجريح لأعمال الآخرين دافعها الحقد والحسد.. وإن كان المتكلمون يجمعون على ادعاء أن الموضوعية وسيلتهم واحترام الآراء الأخرى هدفهم والمصلحة العامة لكل الشعب غايتهم النبيلة.

يا هذا الإنسان التائه بين أكاذيب النخب وألاعيب السماسرة والحذاق.. يا هذا الفرد الذي خُلق ليكون خليفة في الأرض ائتمنه الخالق على صونها وحمايتها والحفاظ عليها.. يا هذا المخلوق المبجل بين كل الخلائق.. فكان له السمع والبصر.. يا هذا الإنسان الحالم بغد أفضل، الكادح إلى ربه

ونفسه كدحاً فلا يلاقي شيئاً في الدنيا ولا الآخرة.. يا هذا البشر المبدع بإذن الله للأشياء كلها.. والمكلف بالأشياء كلها عبادة وعملاً صالحاً المسئول عن أعماله مباشرة في هذا اليوم وفي اليوم الآتي بعد الموت.. متى ترى آيات الله حقاً فتؤمن أن الإنسان مخلوق حر.. حر .. دون حدود.. ودون قيود.. مخلوق لا يفرق بينه وبين الآخرين لون.. ولا زمان ولا مكان.

يا هذا الإنسان الشاهد على الخلق في اليوم المشهود.. متى تحمل معولك.. وتطلق عقدة لسانك.. وتكتب أنت حروفك.. وتصوغ وحدك كلماتك.. فيكون منك ولك الكلم الصادق الذي كان في البدء وسيكون في الآخر؟. متى تدك أمواجك ذاك القصر الذي يبنى من الرمل فيتوهم من يسكنه أنهم محصنون.. فتنهار النخب وتنسكب الأنخاب؟. عندها سيكون ميلاداً جديداً.. ليوم جديد.

*****

انتخابات بريطانيا .. مزحة براون .. وحزب الأغبياء

قد لا يتوقع الكثيرون وجود حزب سياسي رسمي في بريطانيا يطلق عليه اسم حزب الأغبياء.. يتكون من المهرجين والهزليين.. مهمة أعضائه السخرية من السياسة البريطانية.. وتقوم دعايته على التهريج.. وقد شارك الحزب في كل الانتخابات البريطانية طيلة العقود الماضية.. منذ تأسيسه في بداية الخمسينيات بواسطة اللورد ساتش الذي تزعمه حتى نهايات القرن الماضي، وانتقلت القيادة بعده إلى ألان هوب.. ولا يزال يخوض غمار المعارك الانتخابية الضارية... يشد انتباه كثير من الناخبين الذين ملّوا مشاهدة طقوس الانتخابات التقليدية وملّوا ألاعيب السياسيين وأكاذيبهم وسئموا من المشاركة فيها.

يتخذ حزب الأغبياء من السخرية إطاراً عريضاً لدعايته، يقدم السياسة والسياسيين في صور تهريجية كاريكاتيرية.. وبالرغم من عدم تمكنه من حصد أصوات كافية تؤهله للدخول إلى دواليب مؤسسات الدولة، إلا أنه نجح في لفت أنظار المتابعين إلى أن شيء هزلي ما يجري.. وأن نتائج الانتخابات لن تغير السياسة في بريطانيا.

عندما اكتسحت المرأة الحديدية قاتلة الأطفال مارجريت تاتشر الانتخابات البريطانية عام 1975 ف .. وحققت فوزاً تاريخياً للمحافظين.. وتمكنت من تشكيل الحكومة البريطانية كما تريد وأحكمت السيطرة التامة على كافة أدوات التشريع، توهم بعضهم أن بريطانيا جديدة بدأت تتشكل، وأن سياسة أخرى مختلفة آخذة في الظهور، وأن أحلاماً حول الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس قد تعود، وأن صورة الملكة فيكتوريا تتكرر من خلال صناديق الاقتراع.. لكن الزخم الدعائي والهالة الإعلامية التي أحيطت بها تلك المرأة سرعان ما اضمحلت وظهرت تاتشر على حقيقتها.. خادم مطيع لذلك الممثل المجنون القابع حول منصة إطلاق الصواريخ خلف المحيط.. يأمر فتنفذ ويقول فتردد.. وأجبرت على المغادرة المبكرة حفاظاً على بعض من ماء وجهها... دفعت بأحد أتباعها المغمورين جون ميجور للقيادة، لكنه لا يمتلك القدرة والشجاعة على تغيير

الأحداث.. فاستمر مخلصاً في تنفيذ أوامر الساكن الجديد للبيت الأبيض... أدخل بريطانيا العظمى سابقاً في أتون حرب خاسرة، ودفع لأول مرّة منذ عدة عقود بآلاف الشباب الإنجليز لمواجهة الموت من أجل أوهام شيطانية.. كان ذلك سبباً قوياً لسقوطه المروع أمام الاكتساح التاريخي لحزب العمال بقيادة توني بلير.. يومها انحبست الأنفاس ورسمت صورة خيالية لهذا القادم الجديد.. الخطيب المفوّه.. المحامي الشاب توني بلير وكأن بريطانيا ولدت من جديد، وأن زعامة أوروبية ظهرت وأن فصولاً جديدة في التاريخ ستدون.. لكن الضوء خفت مبكراً.. وأرغمت الأحداث الرجل على الظهور بحقيقته... فبان أن لا شيء تغير رغم بلاغة الكلام ونارية الخطابات.. لا زالت بريطانيا تدور في فلك سياسة القطب الأوحد.. وصار الشاب الثائر تابع مطيع للسيد الأول خلف المحيط، بل ربما ذهب إلى أبعد من ذلك فمدّه بالنصح.. وجرجره إلى العدوان.

اليوم يتكرر نفس المشهد بنفس السيناريو، وإن اختلفت الأسماء والمسميات وزادت أو قلت نسب الفائزين في الانتخابات.. ها هم المحافظون يكتسحون الانتخابات تماماً كما ظهر في تقارير سبر الآراء المسبقة.. والعمال يخسرون.. الأحرار قادمون.. هل من نهاية قريبة لهذا المسلسل الممل.. لماذا يجبر الناس على مشاهدة نفس المسرحية عدّة مرات.. حيث لا مجال للخروج على النص فهو ثابت دائماً حتى وإن تغير الممثلون.. وهل من بصيص أمل أمام حزب مغمور كحزب الأغبياء ليساهم في صياغة مختلفة لسياسة بريطانيا.. فلربما يقدم على أمر جدي وجاد.. لو أتيحت له فرصة مناسبة، رغم هزليته من حيث الحجم والمضمون..

كثر هم من راهن على أداء السيد نيك كليغ زعيم حزب الديمقراطيين الأحرار مستندين إلى حالة النجاح الإعلامي الذي حققه، توقعوا أنه وحزبه قد يجتاز العقبة ويدخل إلى قمة السياسة البريطانية من أوسع أبوابها، الأغلبية الساحقة، لكن شيئاً من ذلك لم يقع.. وبقيت التوقعات مجرد حروف على صفحات الجرائد وكلمات ذهبت مع الريح.. إذ أن ما يحدد النتائج أمور لا نعلمها ليس من ضمنها وضوح السياسات.. وشخصية القيادات ورصانة البرامج.

من سوف يشكل الحكومة البريطانية القادمة؟؟.. سؤال يشكل أرضية خصبة ومادة هامة للتناول الإعلامي.. فهو زاد المحللين والمحققين ومعدي البرامج وهو صلب التقارير.. وهو النبأ

الأهم في كل الأخبار.. الذي سوف يستمر إلى حين.. لكن الثابت أن السياسة البريطانية الداخلية والخارجية لن تتغير.. لأن حكومة ما.. تقبع في الخفاء.. لا يراها الناس... هي التي تدبر كل أمر.. وتسرب كل خبر.

في بريطانيا نموذج الديمقراطية الأول في العالم، تتكون السلطة التشريعية من مجلس للعموم.. ومجلس آخر للوردات يتشكل بتعيين كل أعضائه دون استثناء.. منهم المحظوظون الذين ينالون ثقة الملكة التي تملك ولا تحكم!!!... وآخرون هم ورثة طبقة النبلاء... لو سألت الكتبة والمحللين السطحيين خاصة أولئك المنبهرين بالديمقراطية البريطانية... هل يوجد اليوم في بريطانيا أو غيرها طبقة للنبلاء.. يحق لها أن تفرز مندوبيها إلى مؤسسات الحكم.. فإن النفي القاطع سيكون دون تردد الجواب!!.. فهم يتوهمون أن مساواة إلى حد كبير قد تحققت بين الناس في ذلك العالم الذي تشكل معالمه الأضواء الكاشفة وصخب الحانات والمراقص وضجيج المهرجين من كل الأصناف..

ومن نافلة القول التذكير بأن لمجلس اللوردات القول الفصل في كل شيء.. فلا تشريع قانون كان.. أو قرار أو لائحة يمكن أن يصدر دون بصمته.. وإن مجلس العموم لوحده لا يستطيع أن يغير أي أمر مهما حمي وطيس المعركة الانتخابية، ومهما كانت نتائج الانتخابات ومهما كانت سخونة وحدّة المناقشات.. ومهما علا الصراخ وارتفعت الأصوات.. ومهما تغير السياسيون فالسياسة ثابتة لا تتغير..

ولأن المزاح دائماً سيد الموقف في الانتخابات البريطانية وغيرها فلقد حاول جوردون براون أن يدخل الدعاية من بابها الواسع فجاء بإعلاميين حرفيين للإشراف على حملته انطلاقاً من أهمية استخدام كافة الأسلحة لكسب الأصوات.. فالغايات تبرر الوسائل.. طلب براون من منظمي حملته ترتيب لقاء في الشارع حتى يظهر وهو يتحدث بعفوية مع المواطنين يشاركهم همومهم.. ويسألهم آراءهم فيراه الناس رجلاً متواضعاً يتحدث مع الجميع دون حواجز.. ورغم دقة التنظيم وحبكة الإخراج إلا أن الرياح أتت بما لم تشته حملة براون.. فكان لقاء مع سيدة ما.. لم تنجح براعة المخرج الإعلامي وحرفيته في منع المرأة المسكينة من الانسجام في دورها على ما يبدو.. وطرحت أسئلة

صعبة بخصوص المهاجرين.. لم يكن السيد براون يريد لها أن تطرح.. فصب جام غضبه على منظمي اللقاء.. ومما زاد الأمر سوءاً.. وعكر أجواء الحملة الانتخابية أن أولئك الحرفيين الإعلاميين نسوا جهاز الإرسال المعلق في مكان سري من سترة جوردون براون أو لم يحكموا إغلاقه.. فظل ينقل الحديث عبر الهواء مع أنه مخفي لا تراه عيون المشاهدين الواهمين أن ذلك لقاء عفوي مجرد في الشارع للحديث مع الناس وليس للنشر في وسائل الإعلام.. فما إن ركب السيارة حتى بدأ بتعنيف المرافقين بكلام غليظ.. صاباً جام غضبه على من نظم اللقاء مع تلك السيدة الغبية على حد قوله بالحرف الواحد.. الصدمة أن المنافسين كانوا بالمرصاد.. فأعيد بث التسجيل كاملاً عبر الإذاعات والمواقع الإلكترونية لعدّة مرّات.. فكان فخاً حقيقياً ومشهداً مسلياً من مشاهد الحملة الانتخابية.. جن جنون المرأة.. وأعلنت أنها لم تخرج على النص الذي لقن لها.. واضطر براون للاتصال بها هاتفياً معتذراً.. لكن الأوان قد فات واختلط الجد بالهزل.. إنها مهزلة الانتخابات.

*****

حالة طوارئ دائمة

في ساحل العاج هناك رئيسان وحكومتان وجيشان.. في لمح البصر صارت دولتان بسبب الانتخابات.. كلا الرئيسين حصل على نسبة تقل أو تزيد بقليل على 50٪ فأعلن كلاهما أنه فائز.. وهما محقان في ذلك، لأن تلك النتيجة لا يمكن أن يتحدد وفقا لها مهزوم وفائز.. نعم كلاهما فاز وهزم الشعب الذي أصبح على شفا حرب أهلية قادمة إذا لم يتم تجاوز الأزمة الأمر الذي يقع في دائرة المستحيلات.. حربا يؤجج نيرانها التدخل الخارجي... باجبو والحسن واتارا يتنافسان على السلطة.. ربما كلاهما سيجد كرسي ما يجلس عليه.. لكن الشعب العاجي سيكتوي بنيران نتائج الانتخابات وسيخسر كل شيء.. وأصبح الموت والجوع والدمار يخيم على شوارع المدن العاجية.

يقول أحد الأصدقاء عندما يعلن عن مواعيد الانتخابات في إفريقيا تعلن الأسر الإفريقية حالة الطوارئ استعدادا للأسوأ... ومع اشتداد الحملة الانتخابية تزداد حدّة التوتر.. ويبدأ الأفارقة في تخزين المؤن والعتاد، لأن معركة حقيقية ستبدأ بمجرد الانتهاء من التصويت وجمع صناديق الاقتراع.. ومهما ابتدع جهابذة الليبرالية من وسائل مراقبة لتأمين انتخابات شفافة ونزيهة -على رأيهم- إلا أن التزوير واقع لا محالة.. رفض نتائج حالة مصاحبة ومرتبطة مع كل الانتخابات.. نصف العاجيين يريدون باجبو رئيسا والنصف الآخر يريدون حسن واتارا، فهل من المنطق أن يشطب على أحدهما فقط لأن بضع مئات من الأصوات أوجدت فرقا ما؟. وماذا عن تلك الملايين التي تعرضت لتعبئة انتخابية مكثفة لعدة شهور في كلا المعسكرين كيف يقبلون الهزيمة هكذا و بكل بساطة، خاصة وأنهم يعلمون علم اليقين أن الأصوات لا تعدو كونها أوراقاً اشتريت ببضع فرنكات سيفا إفريقية.. الأصوات تباع وتشترى في العلن والصفقات تعقد على مرأى ومسمع الجميع.. كلا المعسكرين يمتلك الغطاء الدستوري الذي يؤهله ليعلن نفسه رئيساً.. والمتمثل في المحكمة الدستورية من جانب و لجنة الانتخابات من جانب آخر.. النتيجة أن ساحل العاج انقسمت من الناحية العملية إلى دولتين برئسين وحكومتين.. وظهر وضع عدائي بينهما ينذر بحرب أهلية قد تكون أسوأ من تلك التي شهدتها ساحل العاج في الماضي.

إن ما يجرئ في ساحل العاج وغيرها يفضح دعاوئ الليبراليين بأن النظام الغربي يؤسس لمجتمع ديمقراطي يتعايش فيه الجميع ويضمن التنوع والتعدد الإثني والديني وبينت حقيقته، فهو على العكس يقود إلى الصراع وينشر الفتن والتعصب، وبالتالي التقسيم والتجزئة... لقد اتضح أنه أقصر الطرق وأسهلها لتفتيت المجتمعات وإثارة النعرات وإشاعة الفوضى.

ساحل العاج مثل من أمثلة عديد ماثلة للأذهان في الكونغو ورواندا وبوروندي وكينيا.. يواجه أزمة حقيقية لا يمكن تصور احتوائها بالتهديد والوعيد ولا الحصار أو التلويح بالتدخل العسكري.. أو من خلال زيارات الوساطة التي وجد فيها بعض الزعماء السابقين عملا مناسبا... فهي لن تقدم حلولاً مرضية لكلا الطرفين اللذين يرئ كل في نفسه أنه قد فاز في الانتخابات ولن يتنازل عن حقه في الحكم مهما كانت النتائج موضوعية وليس أمامهما إلا حل الاتفاق على تقاسم السلطة كما حصل في كينيا وزمبابوي، أي أن يقبل أحدهما أن يكون رئيس وزراء على أن يعترف بالآخر كرئيس وذلك حل ليس من السهل تأمينه لأن كلا المرشحين سوف يتشبث بكرسي الرئاسة..

الديمقراطية الغربية اختزلت نفسها في قضية الانتخابات التي صارت هي الختم الذي يوصم به بلد ما على أساس أنه ديمقراطي دون النظر إلى الآثار المدمرة التي تصاحب وتعقب كل عملية انتخابية في العالم.

بالتأكيد تجاوز أزمة ساحل العاج سيتحقق على الفور لو استلم الشعب العاجي السلطة.. ورفض التنازل عنها لأي كان.. تلك هي الوسيلة الوحيدة التي تضمن السلم الاجتماعي وتحقق الاستقرار وتسمح بالتنمية.. الديمقراطية المباشرة وحدها قادرة على حماية التعدد والتنوع.. وتؤمّن العدل والمساواة لجميع المواطنين.

*****

شعارات وبكائيات ومنهج للتغيير

لا اختلاف على أن مفهوم الديمقراطية هو التعايش السلمي بين الأفراد من خلال تأسيس منظومة علاقات تربط بعضهم ببعض بتراض دون قمع أو ظلم أو عسف أو جور .

الإنسان خلق حراً ومسئولاً ولا يستطيع الحياة خارج مجتمع بشري منظم، فهو كائن اجتماعي بالطبيعة.. وفي ذلك قد يبدو بعض التناقض.. إذ يستوجب وجود الإنسان داخل منظومة اجتماعية ضرورة التنازل عن جزء من حريته، أي إن المعادلة القائمة بين حرية الأفراد في المطلق ودقة تنظيم المجتمع لضمان حياة آمنة ومتطورة لهم تفرض مطالبات قيمية من قبيل المساواة والعدالة واحترام حقوق الأفراد وإتاحة الفرص المتساوية لهم لتبيان كفاءتهم في تحقيق مصالحهم.. إذ أن تنظيم المجتمع يتطلب وجود جهة "ما" محايدة تتولى مهمة التوفيق بين مصالح الأفراد، لكنها في أغلب الأحيان تنحاز إلى بعض الأفراد دون غيرهم.. فتميل كفة الميزان على حساب حرية الأفراد وتنقسم المجتمعات إلى أغنياء وفقراء.. سادة وعبيد.. خدم ومخدومين، حكام ومحكومين.. وذلك هو السبب الرئيسي للصراع الدائم بين الأفراد داخل المجتمعات وهو مصدر المنافسة الشريفة وغير الشريفة للظفر بنصيب أكبر من الإمكانات حتى يلتحق بعضهم بخانة الخاصة المحظوظة ويتركوا نهائياً خانة العامة المحرومة.. وعلى الرغم من كلمات الإطراء الجوفاء التي تقال في حق عموم الناس والإشادة بهم ودورهم وتبيان أهميتهم، لكنهم في واقع الحال كثرة موصومة بالدونية والسطحية والغباء تُحمّل مسئولية كل المشاكل التي تعانيها المجتمعات بنعتهم، خاصة القوم في لحظات التجلي بالرعاع ، وكل من هب ودب ، والمتخلفين ، وهكذا... في بعض الأحيان يوضعون في موضع العطف والشفقة من قبل بعض المتباهين الذين يتظاهرون بكتمان أعمالهم التي يصفونها بالخيرية والتي تقع ضمن رؤيتهم المتعالية الفوقية الشامتة العنصرية للفئة التي خسرت المنافسة وقبلت نتائجها.

لكل ذلك يستمر البحث علي إيجاد آلية مناسبة لتنظيم المجتمعات على أساس المساواة والعدالة والتكافل.. ولقياس فعالية المشاريع المقترحة والآليات المطروحة يصار إلى دراسة نجاحها أو فشلها في حماية حرية الأفراد وإحكام تنظيم المجتمعات... وبالتأكيد إن الدرجة القصوى للنجاح

تتحقق إذا تمكن الأفراد من الاحتفاظ بحريتهم التامة دون نقصان داخل مجتمع لايهتز بنيانه لأي مخاطر.. وذلك أمر لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال فكرة الديمقراطية المباشرة... حيث يشترك جميع الأفراد مباشرة في تنظيم مجتمعهم يتوافقون بإرادتهم الحرة من كل ضغط خارجي على أسس ذلك التنظيم ويقبلون عن تراض التعايش فيما بينهم.

إنها ديمقراطية توافق الكل دون استثناء وفي كل الأشياء.. وليست ديمقراطية توافق النخب التي تطرحها النظريات السائدة في الديمقراطية والتي تعني بقاء المجتمعات مقسمة طبقياً حتى وإن اختلف تعريف الطبقات ومكوناتها.

إن من يدعون إلى احترام حرية الأفراد وحماية حقوقهم لا مجال لهم لتحقيق أي نجاح لدعواهم تلك إلا بتبني الدعوة إلى فكرة الديمقراطية المباشرة.. وبناء مؤسسات جماهيرية يتفق الأفراد على مكوناتها وأساليبها ولا يشعرون بأي مخاوف تجاهها.

ومن يدعون إلى حرية التعبير باعتبارها حقاً بديهياً يمكن الناس من التواصل فيما بينهم لا مجال لهم لتحقيق دعواهم تلك إلا بالدعوة إلى الديمقراطية المباشرة حيث التعبير والحوار هو أساس العمل الديمقراطي يستطيع بواسطته الأفراد التوافق على أسس التعايش بينهم.

ومن يدعون إلى الشفافية واحترام القانون لتحقيق العدل والمساواة بين الأفراد لا مجال للنجاح في تحقيق دعواهم تلك إلا بالدعوة إلى الديمقراطية المباشرة، لأنها النظام الوحيد الذي يقبل فيه الأفراد عن سبق إصرار احترام القوانين طواعية، لأنهم شاركوا في وضعها ومناقشتها وأصدروها بالتراضي بينهم ولا تسمح بأن يكتنف الغموض أي شأن يرتبط بعلاقاتهم ومصالحهم وأساليب التعامل بينهم.

*****

وباء الإعلام

تتزايد الشكوك حول ما يطلق عليه اسم الأوبئة الحديثة وأنها ليست سوى نتاج لعمليات تصنيع ممنهج للجراثيم، ويفترض ذوو النوايا الحسنة: أن تسرباً ما غير مقصود منها أدى إلى انتشار تلك الأوبئة على نطاق واسع، غير أن البعض يرى أنها ربما تكون في إطار عمليات تجريب مبرمج ضمن المناورات التي تنفذها الجيوش للتأكد من فاعلية أسلحتها المختلفة ووسائل تأمينها وقت السلم، لكن الأمر الأكيد أن شركات الأدوية الرأسمالية كان لها دور ما في الترويج لتلك الأوبئة، وقد تكون الممول الرئيسي للحملة الإعلامية الضخمة التي تصاحبها، لأنها تفتح لها آفاقاً لإنتاج أدوية ومستلزمات ومعدات، وتؤمّن أسواقاً رائجة لبيع بضاعتها حتى الراكد منها.. حيث يتزاحم الناس على اقتنائها دون النظر إلى أثمانها ومكوناتها، لأن الأمر يتعلق بالصحة.. فتبدأ حُمّى التنافس في إنتاج اللقاحات المضادة لتلك الجراثيم بين الشركات في ذلك.. وتنشط عمليات الترويج والدعاية لها، وما يترتب على كل ذلك من موارد مالية ضخمة تضخ إلى جيوب الرأسماليين الذين يحتكرون صناعة الأدوية، وتتصاعد وتيرة بيع العقاقير التي يدعي المروجون لها أنها تعالج المرض بكميات ضخمة للتعامل مع الطلب المتزايد عليها.

كما أن شركات إنتاج المستلزمات الطبية من أقنعة وقفازات ومحاقن وما إليها ستنال نصيبها من الكعكة، لكن السؤال المهم هل فعلاً توجد أوبئة جديدة قاتلة تتطلب هذا الحجم من الهلع والخوف، أم إن الأمر لا يعدوا كونه جعجعة إعلامية ليس إلاّ؟.

فالعصر الحاضر هو عصر الإعلام بلا منازع.. هو الذي يصنع كلَّ الأشياء.. الأمل.. الفرح الهلع الخوف.. وهو الذي يوجه آراء الناس ومشاعرهم، وهو سببٌ مباشرٌ لكل المواقف التي يتخذها الأفراد والجماعات.. وحكاية الأوبئة الجديدة جزء من الدور غير الواضح للإعلام.

يقول الخبراء إن نسبة الوفيات من وباء الخنازير لا تزيد عن 0.5 في الألف وهي نسبةٌ متدنيةٌ جداً مقارنة بمثيلتها من الأنفلونزا العادية التي تفتك بأكثر من 300.000 شخص على مستوى

العالم سنوياً، لكن الناس يتفاعلون مع هذا الوباء الجديد وكأنه طاعون العصر الحديث.. ولا أحد يكترث إلى الأنفلونزا الأكثر شيوعاً مكتفين بمقولة الأطباء الإنجليز " يحتاج المرض إلى أسبوع باستخدام العلاج.. وإلى سبعة أيام دون علاج " الدراسات تبين أن وتيرة الإعلان عن ظهور أوبئة غريبة في المدّة القليلة الماضية من قبيل داء السارس ووباء الطيور.. والوباء الدموي القاتل الذي ظهر في وسط إفريقيا.. أمر يثير الريبة.. ويتساءلون عن المسئول على وضع هذه الأوبئة ضمن أولويات الخارطة الإعلامية على المستوى الكوني.. بالرغم من وجود أوبئة أخرى أكثر فتكاً بالناس.. من قبيل حوادث المرور والأورام.. وأمراض القلب التي تفتك بملايين البشر كل سنة؟ وبعضها كحوادث السيارات قابلة للوقاية التامة.

في ليبيا على سبيل المثال آلاف الناس يموتون سنوياً بفعلها؛ إذ لا يمضي يوم إلا وتسبب الحوادث المرورية في كوارث بشرية في كل مكان.. تلحق بالشباب والشيوخ والأطفال على حد سواء، في وقت سجلت فيه حالة وفاة واحدة من وباء الخنازير.. فلماذا لقيت تلك الحالة اهتماماً إعلامياً كبيراً داخلياً وخارجياً، هل الإعلام الليبي أخذته موجة الإعلام التي تسيطر على العالم؟.

لاشك أننا في حاجة ماسة للوعي بقضايا الصحة والمرض ليمكن تأسيس مجتمعات سليمة بدنياً وذهنياً من خلال الاهتمام بصحة الأفراد والحفاظ على سلامتهم، لكن هذا الوعي لابد وأن يكون حقيقياً يستند إلى معطيات صحيحة ووفق أسس علمية يقدمها المختصون، لا أن يترك المجال لأيٍّ كان للخوض في قضايا تمس حياة الناس.

إن الدوائر التي جعلت من وباء الخنازير المشكلة الأولى التي تهدد صحة الأفراد مشكوك في أهدافها بالرغم من القناعة التامة بأهمية تبيان حقيقة هذا الداء وغيره للجموع حتى يمكن التحكم في حجم الخسائر الناتجة عنه.

الدعوة ملحة لإعادة تقييم دور الإعلام ضمن المنظومة الجماهيرية، والعمل الحثيث على تقديم نموذج جديد للإعلام الجماهيري للتخلص من هيمنة المؤسسات.

أصوات ومعارك وسجون

يقول سعد الدين إبراهيم وهو من أساطين الليبراليين العرب ومن أشد المتحمسين للمشروع الغربي في المنطقة ويعتبره البعض رأس حربة القوىٰ التي تعمل للترويج للمشروع في الوطن العربي (إن مأساة الأمة العربية شعار لا صوت يعلو علىٰ صوت المعركة وما نتج عنه من قمع وكبح لكل الأصوات التي تنادي بالتغيير والتطوير.. ومكنت من فرض الرأي الأوحد علىٰ المنطقة) علىٰ حد رأيه.. ورغم سلامة التحليل ومنطقيته الظاهرية إلا أنها كلمة باطل قصد بها باطل.. لأن شعار التفرغ لمواجهة العدو عند وجود خطر خارجي شعار لا يرتبط بالمكان ولا بالزمان وهو ليس خاصية عربية ولا علاقة له بأنظمة عربية معينة.. إنه مرتبط بفسيولوجية العلاقات الاجتماعية .. فالمخاطر الخارجية تتطلب التعامل الحازم والسريع كي لا تحقق أهدافها.. أمّا المشاكل الداخلية علىٰ كل المستويات ينبغي التعامل معها بتروي وحكمة حتىٰ يتم تجاوزها وتفادي أضرارها..

لكن هؤلاء الليبراليون يبحثون عن مدخل ما لطرح مشروعهم واستقطاب المؤيدين له مهما كانت الوسائل.. حتىٰ لو اعتمدوا تزوير الحقائق واختلاق المعطيات.. سيقول قائلهم عنّا .. إنكم تحتمون دائماً بستار نظرية المؤامرة رغم أن الواقع والوقائع توضح دون لبس أن مخططات علىٰ درجة من الخطورة يتم إعدادها والاستعداد لتنفيذها في المنطقة.. وربما البداية لكل ذلك هو عمليات زرع الشك الممنهج في كل شيء لدينا.. التشكيك في الأهداف الوطنية والقومية .. والتشكيك في أولويات المعارك التي ينبغي خوضها .. والتشكيك في أدوات وآليات تلك المعارك .. ونتائجها .. ولعل الأهم من كل ذلك هو الترويج لمعارك جانبية تهدر الطاقات وتضعف منظومة المقاومة فينا..

تقول عجائزنا .. أقبح من كاذب مواجه .. أي الذي يكذب ويصر علىٰ كذبه ويتبجح به دون خجل.. وهو ما ينطبق بالتمام والكمال علىٰ أولئك الليبراليين.. الذين تخلىٰ سادتهم عن الشعارات التي لا زالوا هم يروجون لها.. فالغرب غير خطابه 180 درجة تقريباً أمّا هم فما زالوا متشبثين بنفس الكلمات .. لقد ظهر جورج بوش دون مواربة عند إعلان الحرب علىٰ ما أسماه الإرهاب .. وقال

بملء الفم أن لا صوت يعلو على صوت المعركة.. وأن من ليس معنا فهو ضدنا .. وأن لا حدود في وسائل التعامل مع الإرهاب.. وأن كل الخيارات متاحة.. وفتح على مرأي ومسمع العالم المعتقلات الجماعية وشرعن التعذيب ..ولعل معتقل جوانتانامو والمآسي التي سجلت به شيء لن يمكن تجاهله.. وأمر ببناء السجون السرية .. التي يزج داخلها أي كان دون تهم.. واخترع بدعة الأدلة السرية .. وأمر بالتجسس والتصنت على الناس دون أسباب وسمح بالتدخل في شئونهم الخاصة دون حدود ولا رقابة ولا ضوابط.. ألم ينجز كل ذلك تحت شعار لا صوت يعلو على صوت المعركة؟...عندما اختارت أمريكا التغيير وصوتت لشعارات أوباما المعلنة ضد سياسة بوش استبشر الناس خيراً لكنه ما إن وصل إلى كرسي الحكم حتى تبنى نفس السياسات ودافع عنها .. وتعمل إدارته على تغطية عيوبها ربما ببعض الرتوش التجميلية التي لا تمس الجوهر .. والشعار دائماً لا صوت يعلو على صوت المعركة.. وأن الإرهاب خطر لا يمكن التساهل معه .. ولابد من إخفاء الحقائق لمصلحة محاربة الإرهاب وهكذا..

سؤالي إلى أولئك الليبراليين لماذا لا ينتقدون ولو لمزاً تلك الأقوال والأفعال التي تصدر عن مراكز الليبرالية وقواعد مشاريعهم التي يتبنونها ويروجون لها.. وهم يرددون أن الأمن والتقدم والحرية والعدالة لن تتحقق إلا بالتخلي عن شعاراتنا القديمة على رائهم .. لماذا لا يتحدثون مع أصحاب المشروع الليبرالي لإقناعهم بأن الانتصار على الإرهاب والأمن والعدل والحرية لا يتحقق إلا بالتخلي عن تلك الشعارات.. وليطلبوا منهم أن يجلسوا إلى طاولة مفاوضات مع القاعدة.. وفي إطار حرية التعبير عليهم أن يسمحوا لها بنشر أخبارها والترويج لأرائها ..ولتطبيق أقوالهم وادعاءاتهم حول حقوق الإنسان عليهم قفل المعتقلات والسجون العلنية والسرية والإفراج عن المسجونين الذين يبلغ عددهم في أمريكا عدد سكان جمهورية لاتفيا حسب الإحصاءات المعلنة عن الدوائر الأمريكية والمنظمات الحقوقية حيث بلغ 3.24 مليون سجين .. حسب رأي منظمة مراقبة حقوق الإنسان الأمريكية ((هيومن رايتس ووتش)) وهو أضخم عدد من السجناء في العالم .. وتضم أمريكا أعلى نسبة مسجونين حيث وصلت إلى 762 سجين لكل مائة ألف مقابل 152 سجين لكل 100 ألف في بريطانيا و108 سجين لكل مائة ألف في كندا.. وتقول التقارير أن 11٪

من الرجال السود الذين تتراوح أعمارهم بين 30 و 40 سنة يقبعون في السجون الأمريكية.. وأن القضاة يمارسون العنصرية دون مواربة عندما يتعاملون مع قضايا المتهمون بها سود أو بيض.. كما تُبين التقارير أن عدد سكان أمريكا 5٪ تقريباً من سكان العالم أمّا عدد السجناء فتصل إلى 25٪ من عدد المسجونين في الكرة الأرضية.. دون حساب مئات الآلاف من الأسرى في العراق وأفغانستان لدى القوات الأمريكية المحتلة .. الموضوع لا يتعلق بالحرية ولا أصوات المعركة ولا أصوات الناس الأمر يأتي في إطار تنفيذ مشروع الفوضى الخلاقة بهدف تأسيس منظومات وطنية منهارة تمكن من استمرارية الهيمنة الغربية على العالم في وقت تشتد فيه حدّة الأزمة السياسية والاقتصادية في العالم التي تشكل خطر حقيقي على المشروع الرأسمالي في الحكم والاقتصاد.. بالتأكيد إن أولئك المنظرين للمشروع الغربي في المنطقة يدركون كل ذلك لكنهم يغضون البصر عن التعامل مع تلك المعطيات.. فهم إنما ينفذون مخططات مرسومة لهم مسبقاً وليس لهم المقدرة ولا الصلاحية لتغييرها ولا حتى تغيير لغة الخطاب حولها بالرغم من التحولات الهائلة التي تحدث كل يوم .. وبالتأكيد هم يدركون إن توهمهم بأن شعوب المنطقة أغبياء ومغفلون خطأ فادح.. فالسؤال المطروح بكل وضوح هو لماذا هذا الإصرار على ترديد نفس الخطاب بنفس اللغة الركيكة والتبريرات السخيفة؟. هل يقع ذلك ضمن متطلبات المخطط ... أم أن الليبراليين عندنا لم يأتهم بعد الخبر اليقين.. أو هم لم يستيقظوا بعد من تأثير أفيون الرأسمالية.. سؤال يحتاج إلى عيون وآذان وعقول للتحليل..

*****

وقائع تحت السطور

للبعض قدرة خاصة على التلاعب بالألفاظ عند تحليل الأحداث .. حتى يخيل لهم أن الكلمات قد تصنع المعاني ..وأن مواضع المفردات توجه المدارك .. يغمضون عيونهم عن نور الشمس المبهر.. ويصمون آذانهم عن صوت الحق الصادح.. يتوهمون أن فبركة الكلمات قد تشكل لهم ساتر مناسب حتى يتمكنوا من ممارسة الغش والاختفاء.. أما الأشنع من ذلك .. أولئك الذين يتعايشون من الكذب.. حتى أتقنوا فنونه .. وتوهموا أن الناس قد تقتنع بأنهم صادقون ... وما هم إلا كاذبين..

فالبدء كانت الكلمة .. لكن البدء يبدأ من الحق وينتهي بالحق مروراً بالصدق .. وباليقين .. في ذلك المدى الوجيز بين البدء والبدء يكمن نوعان من الناس يتمايزان من خلال الكلمة .. التي هي اثنان .. فالناس لا يختلفون في الشكل والتكوين .. لكنهم يتمايزون بما يقولون .. فمن ألسنتهم ترى عوراتهم .. وبين ما يقولون تكتشف أي نوع من الناس يختبئ هناك .. لقد صار الكلام عباءة تغطي النوايا.. .ومن الحروف بكل اللغات يصاغ المنطق المستقيم .. وكذلك المعوج .. كيف لهذا اللسان أضعف أعضاء الجسم .. أن يخفي ما يخبئه الإنسان من أهداف ومرامي ؟؟ .. الغريب أن الأفراد يتوهمون أنهم يخبئون أسرار ما .. وهم لا يعلمون أنهم مكشوفون تماماً للآخرين .. والآخرين لا يعطون أي انطباع بأنهم يعرفون الحقيقة .. بل يساهم تجاهلهم في زيادة الواهمون وهماً.. فيظهرون المزيد مما يخبئون ..

الكلمة ستار الباطل في كثير من الأحيان .. بين السطور تختبئ الدسائس والمؤامرات.. وبين الجمل تصاغ تدابير الإساءة للآخرين .. وحتى بعض الكلام المهذب المليء بكلمات الشكر الممجوج ليس سوى ديباجة تصاغ ببلاغة لحملة سباب تختبئ في العقل الباطن والظاهر.

أنت تقاس من طرف اللسان .. وأنت تقصف الآخرين بطرف اللسان .. وأنت تسخر من الآخرين بطرف اللسان .. كم يصوغ القلم من أكاذيب يسوقها أصحابها على إنها حقائق .. وهم عارفون أن الزيف محبرة ما يقولون .

تمعن في كل الحروف التي تقرأ .. ستشعر بالغثيان من حجم الدس بين حروف الجر وأدوات الاستثناء وأفعال الأمر والنهي.

لقد صار الإنسان مخلوق من الكلام.. حتى أصبح اقتصاد العالم يعتمد على تقنية القول ..وأكثر أنواع التجارة رواجاً تلك التي تتعامل في سوق الكلمة .. لقد صار التدجيل حرفة مربحة جداً .. وأكثر الإعلاميين نجاحاً هم أولئك الذين يجيدون فن الخدعة والحبكة الإعلامية .. بين السطور ستجد شيء ما .. لكن السطور ليست سوى صياغة للخديعة .. من يصنع من ..الرأي العام يصنع الحدث أم أن الرأي العام هو تابع للأحداث .. وبين الرأي والرأي ستجد الناس طوابير مدججة بالأكاذيب .. تريث لن تجد عنوان واحد لأمر واحد .. الكل يكتب بحروف مختلفة .. ويقرأه الآخرون من زوايا متعددة فيتقلب مئات المرات بعدد القراء والمحللين.. لقد فر الشعراء إلى الرمز حتى يفهم كلٌ وفق رغبته .. السطور تعكسها زوايا القراءة وليس معاني الكلمات .. فمن تراه يوجه من .. القراء أم الكتاب .. أسئلة متعددة في مصب مطلب واحد .. متى يرى الناس الأمور على حقيقتها .. عندما تكتب عن أمر ما تذكر أن الناس سيقرؤون ذلك قراءات متعددة.. وقد يكون الوقت تأخر قبل أن تعيد شرح الموضوع.. لنقرأ في بعض الوقائع..عندما ننظر في ما يُكتب في بعض المواقع الليبية التي تعود إلى نفر قليل.. تتخيل أن ليبيا هذه مجرد كومة من التخلف.. وعندما تقرأ عن هذا أو ذاك.. تتصور أنك أمام وحوش بشرية .. ستجد كمٌ هائل من الكتابات لو محصتها لن تجد أثر يذكر للحقيقة ..

هذه قصة واقعة .. كنت في طائرة مع أحد الأصدقاء .. حدثني بهمس هل سمعت..؟ لم أفهم الموضوع .. أجاب دون انتظار فلان .. سرق مبلغ .. كان المبلغ كبير جداً حتى أنني لم أتخيل قدرة أي إنسان على سرقته .. قلت هذا كلام... كان الرد جاهزاً لايوجد دخان بلا نار .. أشفقت على الرجل .. كان قبل أيام قليلة أحد يحدثني عن صاحبي هذا الذي يجالسني في الطائرة .. وأنه لهف مبلغ في عداد الملايين ولأني أعرفه .. كان دفاعي عنه شديداً .. قال ذلك القائل .. لادخان بلا نار .. فمن تصدق .. وهل علينا أن نتعرف على جميع البشر لنعرف حقيقتهم .. كتب أحدهم أيام الحملة الشرسة ضد الجماهيرية وقائدها .. عن شخص ما .. قال هذا هو مؤلف الكتاب الأخضر .. قلت

لبعض الأصدقاء هذا تزوير خطير أخذوا في الضحك .. قالوا من يصدق ذلك .. ذلك الرجل من ألف الكتاب الأخضر .. هم يعرفون حقيقة الرجل .. ويعرفون الكتاب الأخضر .. ويعرفون مبدعه .. لكن سؤالي كان عن أولئك الذين لايعرفون ..

نعم قد تصبح الأكاذيب حقائق بمرور الزمن وتباعد الأمكنة .. الكذب .. ومزيد الكذب .. يتحول في ذهن الناس إلى حقائق .. حتى صار هذا الزمن زمن الكذب المبرمج .. اليوم تجارة الكذب تدر الأرباح الطائلة .. ولن تبور لأنها ستصبح في أذهان الناس حقائق .. وربما تستخدم كوثائق ..

انظروا فقط ما يكتب عن ليبيا في تلك المواقع التي ربما يديرها شخص واحد .. يقول البعض نحن نعرف ثورتنا وقائدنا ونعرف واقعنا ونعرف مستقبلنا دعهم في غيهم يعمهون .. لكن الآخرين الذين لا يعرفون .. أي ذنب جنوه لكي تعمى عيونهم عن حقيقة هذا البلد الرائع.. ليبيا..

ليبيا التي خرجت من لاشيء وصارت كل شيء .. ليبيا التي خرجت من الجوع والموت بالقهر .. وصارت أداة الحياة يأتيها الجميع للأمن والراحة .. كيف يقرأها الآخرون من خلال أكاذيب الجاحدين ..

الدعوة ملحة لثورة ثقافية بمنظور جديد .. تحرير الكلمة .. من رذيلة الكذب.

*****

تأملات في الجهل

إنه عصر المعلومات دون جدال.. فبإمكان الإنسان الحصول على المعلومة التي يريد بكل سهولة ويسر ودون تعب وعناء.. ودون الحاجة لمجرد التفكير في السفر إلى الصين لطلب العلم والغوص بين ثنايا الكتب والبحث عن الأخبار والآثار.. والجلوس لساعات أمام المعلمين لتلقي الدروس واستعراض المعارف؛ كل المعلومات منشورة في الأثير، لأي كان أن يطلع على ما يريد من المصادر التي يريد أينما تطلب العلم تجده.. هكذا في لمح البصر.

إنه أمر من الخيال، وربما فوق الخيال.. إن لم تسعفك الذاكرة في أي موضوع ستجد المعلومات حولها غثها وسمينها تهرع إليك تراها وتسمعها وتقرأها؛ لكن واقع الحال يبين أن الجهل بالأشياء لا يزال سيد الموقف، بل على العكس تماماً ربما كان الأولون الذين لم تتح لهم فرصة التعلم ولم تفتح أمامهم أبواب المعارف هم أغزر ثقافة وأوسع إدراكاً وأكثر معرفة.

تمكن بعضهم من ترك بصمات دائمة على العقل الإنساني.. ساهموا في التأسيس لمرحلة التقدم المعرفي على المستوى الكوني.

اليوم يجبر الناس على التعلم في أكثر مناطق الكرة الأرضية.. أعداد فوق الحصر من المدارس والمعاهد والجامعات والأكاديميات.. في كل مكان تنتشر الإذاعات بأنواعها المسموعة والمرئية لتصل إلى الجميع غنيهم وفقيرهم وبكل اللغات.. وفي شكل أعقد من شبكات العنكبوت.. تمتد شبكة المعلومات الدولية إلى كل الأنحاء، لم تترك مجالاً لأحد أن يتعلل بعدم الحصول على المعلومة المناسبة في الوقت المناسب.. ولا تزال الصحف والمجلات والكتب والدوريات تطبع وتوزع في كل مكان، ناهيك عن وسائل التثقيف الأخرى من المسارح ودور العرض والندوات والمحاضرات.. على الرغم من كل ذلك.. هل جيل اليوم أكثر علماً وثقافة، أم أن التقييم الموضوعي سيخلص إلى أنه إن لم يكن أكثر جهلاً.. فهو لا يختلف على الأجيال التي سبقته.

لننظر في موضوعات الحوار بين الشباب.. واهتماماتهم قبل أن نتعمق في لغة الحوار بينهم، ولنلقي نظرة على مستوى الإجابات في المسابقات الثقافية العديدة التي تنظمها الصحف والفضائيات والمدارس والجامعات.. فلن نجد أي أثر للعلم والمعرفة.. حتى إن بعض المؤسسات جعلت منها تجارة رائجة وأصبحت الجوائز تقدم بالملايين لكن الفائزين نفر قليل، الأمر لا يقتصر على فئة بعينها بل يمس أعداداً كثيرة من المتعلمين الذين لا يختلفون في شيء عن الآخرين حتى صرنا في الهواء سواء، ناهيك عمّا تبينه لغة الحوار عند السياسيين.. وحجم المعلومات التي تحويها تحليلات المحللين ومدى سطحيتها في تناول قضايا تتطلب العمق.. وسذاجتها في قضايا تفرض الجدية والعلمية.

إن سؤالاً مهماً يفرض نفسه، هل نحن في عصر المعرفة أم في عصر الجهل؟ لماذا لم يؤد التطور الهائل في وسائل نقل المعلومات إلى رفع المستوى المعرفي الثقافي للأفراد والجماعات؟ لماذا يجهل الناس معلومات معلومة ومتوفرة، ويؤسسون قناعاتهم من خلال جهل تام بالمعطيات المعلومة والتي لا تتطلب بحثاً وعناءً؟.

والسؤال الأهم كيف تمكن أولئك البعض الذين يعتمدون التزوير والاستناد إلى الأباطيل في إيراد الحجج والبراهين، وتأليف الأحداث والحواديث أن يستمروا في التضليل؟ دون خوف من كون آرائهم مفضوحة، وأساليبهم مكشوفة وأكاذيبهم معروفة؟. أيرجع ذلك لأنهم يوقنون أن الناس في أغلبهم لا يعلمون شيئاً.. كسالى لا يبحثون عن المعلومات الحقيقية على الرغم من توفرها ولا يبذلون جهداً في إعمال العقل لتبيان الحقيقة من الزور؟.

لقد جاهد الأولون في تنوير الناس وإرشادهم إلى الصلاح، فكُتبوا من الصالحين ودونت أسماؤهم بين الخالدين.. جابوا الأرض بحثاً عن الأخبار.. وأمضوا الليل يدرسون على نور مواقد خافتة، أوجدوا للمعرفة دروباً في أرض قاحلة وعرة.. وعندها أتى عملهم أُكُلَه، وصارت المعرفة تطرق الأبواب تفرض نفسها على الناس جميعاً دون استثناء لم تجد من يستقبلها ويستعملها.

لقد حاولت البحث عن أسباب انتشار ظواهر الشعوذة في العصر الحديث في كل بلاد العالم دون استثناء، وفتشت عن مظاهرها وأشكالها المتعددة.. فكانت النتيجة المؤكدة أن سبب ازدهارها هو الجهل الذي لا يزال يجثم على العقول ويطبع التصرفات.

مثلنا في ذلك مثل أسلوب تعامل رجال الدين المسيحيين مع الفضائح المدوية التي تظهر إلى السطح بين القساوسة والرهبان.. وتلك الفضائح التي تضرب بعض دواوين الحكام والنواب من فضائح نيكسون وهلموت كول وليس انتهاء بفضيحة مدير ديوان رئيس السلطة الفلسطينية.. وتلك الوثائق التي تنشر حول كرزاي.. النسخة الكربونية لمعظم حكام الأرض.. التي تتهمه بالكذب والسرقة والتزوير.. وهي سمة النظام السائد في أغلب الأوطان.

ولنتوقف عند حال ملايين المشاهدين الذين ينتظرون لساعات أمام الشاشات لمشاهدة نبوءات المنجمين في نهايات الأعوام وبداية الأخرى، أو يقرأون ما يكتب يومياً في الأبراج وما تحمله من رجم بالغيب.. ربما من قبيل التفاؤل في أحسن الأحوال، ولنتمعن في المرضى الذين يتوهمون العلاج بالرقى أو المدائح والأذكار وبعض من دعوات وسحر في كل مكان، وإن حاول بعضهم أن يجد من فضولنا بقوله: إن الغريق قد يتشبث بقشة.. ربما سنكون في غنى عن الخوض في حديث عن أولئك الذين يدعون المعرفة والثقافة، يكتبون ويتحدثون في أمور لا أول لها ولا آخر ولا يتسلل الخجل إلى وجوههم وهم يعلمون إنما يأتون بأشياء من صنع خيالهم.. وعندما يسمعهم الجهلة يعتقدون أنهم ملكوا ناصية المعرفة فتبهرهم مظاهرهم وتشدهم ابتساماتهم، وقد تثير فضولهم بعضاً من أقوالهم، ولأن الكلام قد يجلب بعض الكلام على رأي الأولين.

وعندما كانت المقاومة الشرسة ضد الغزاة الطليان كان بعض أعوان الاستعمار ينظمون قصائد المدح في موسوليني يتغنون بعظمته ورفعة شأنه وجلالة قدره.. لعلهم يجدون لديه حظوة أو يلقي لديهم ببقية من عظمة.

وعندما كان الناس البسطاء، الفقراء يقذفون المرشحين في الانتخابات المزورة مسبقاً والتي تحسم نتائجها في طربوش وزير الداخلية وبين مضارب مأمور الانتخابات الدائم بالبيض والطماطم بعد أن يسدون رمقهم بأكل اللحم الطري الطازج في الموائد الكبيرة التي ينظمها المرشحون، كان بعض الكتبة في الصحف الصفراء يكيلون المديح إلى ولي النعمة صاحب الأيادي البيضاء في رحلاته العامرة في الشتاء والصيف.. ومنهم من لا يزال يدس السم في العسل.

بعض من هؤلاء وأولئك وبعض من آبائهم الذين عاشوا متنعمين في كنف الاستعمار، وتحت مظلة السفارات، أو عمل "كهاوس بوي" في بيوت مدراء الشركات الأجانب، صاروا يتحدثون عن الحرية والتحرر.. وعن الرأي والرأي الآخر.. رغم معرفتهم بأن ما كتبته أيديهم لا يزال منشوراً يمكن قراءته والإطلاع عليه بكل سهولة ويسر، ألا يخشى أولئك أن أحداً ما قد ينشر ما كتبوا ويذيع ما قالوا، أم أن الشطّار لا يخشون الوقوع.. فيكتبون عن أي شيء وفي أي وقت. المهم من يدفع حتى وإن كان المصدر من رجال المال والأعمال..

ما دفعني للخوض في هذا الحديث هو الحاجة الماسة إلى طرح موضوع التعليم والتعلم.. وحق المعرفة وهو أمر أساسي بالنسبة للإنسانية باعتبارها أداة الرقي الوحيدة، انطلاقاً من السؤال لماذا لم تؤد البرامج التعليمية رغم تطورها المستمر من رفع درجة الوعي لدى الناس، وصد أبواب الجهل؟. لماذا لم تساهم في إزالة عمليات التشويه التي لحقت بالحضارة الإنسانية وما شابها من تزوير يقوم على التحريف؟. لماذا لم تؤد إلى حوار حقيقي بين الحضارات التي هي حضارة واحدة ملك للإنسانية جميعاً، خاصة وأن الجهل بماهيتها وتقديمها للآخر في أبشع صورها هو سبب حالة الصراع المدمر والمتواصل بينها؟. لماذا يتم التعامل مع الأفكار السياسية والاجتماعية الجادة التي تطرح من حين إلى آخر بأسلوب الرفض المسبق والنكران المطلق دون دراسة وتمحيص؟.

بالنسبة لي الإجابة واضحة تماماً إذ أننا نعيش في عصر ينتشر فيه الجهل وتطمس فيه الحقائق وتزور الأحداث وتفبرك الأخبار.. هو عصر يزدهر فيه الجهل المركب إذ إننا نجهل أننا جاهلون.. فنوصد أبواب المعرفة.

*****

الاشتراكية

أسئلة في زمن الانهيار

يجمع المحللون الاقتصاديون على أن أحد أسباب الأزمة المالية التي تعصف بالنظام الرأسمالي .. وتهدد استقرار الدول الكبرى المسيطرة .. وتنذر بتغيرات جيوسياسية خطيرة .. هو فساد منظومة إدارة المؤسسات المالية والاقتصادية الكبرى .. وسوء تصرف مجالس إدارتها .. حيث يتقاضى كبار المديرين مبالغ خيالية .. فحسبما نشرت صحيفة التدبنت البريطانية في شهر الفاتح / سبتمبر فإن مكافأة مديري بنك ليمان برادرز المنهار بلغت 2.5 مليار دولار .. وبالتأكيد هذا المبلغ فوق التصور.

وفي تقرير لوكالة رويترز بتاريخ 19/ 10/ 2008 ف أن السيد توم باودريل مدير الاتصالات لدى " بي اي ار سي " وهي شركة بريطانية تقدم المشورة للمؤسسات الاستشارية بشأن الإدارة الرشيدة للشركات قال " أعتقد أنه من الأفضل الاعتراف بالفشل .. وعدم وجود آلية صحيحة للتدقيق في المكافأة التي تمنح للمسئولين عن إدارة المصارف .. وأرى أهمية إلغائها .. أو على الأقل تقليصها " .

ومن المعلوم أن مكتب التحقيقات الفيدرالي في أمريكا باشر التحقيق مع مسئولي 26 شركة أمريكية في وول ستريت منها مصرف ليمان برادرز .. وايه أي جي و فريدي ماك..

وفي ألمانيا أعلن رئيس بنك دويتشه أنه وأعضاء مجلس إدارته سيتنازلون عن مكافأتهم السنوية التي تقدر بعدة ملايين .. وتمنح كتعويضات لصغار الموظفين .

يقول وزير المالية الألماني .. بيير تشانيبروك أن خسائر البنك الفرعي " أي كي بي " التابع للبنك الحكومي " كي اف دبليو " بلغت حتى 20/ 9/ 2008 ف 1.8 مليار يورو، ومع أنه لم يحمل المسؤولية مباشرة إلى مجلس الإدارة إلا أن صحيفة فرانكفورت الجيمانية الصادرة يوم 22/ 9/ 2008 ف كشفت أن البنك حول بطريقة غير سليمة 539 مليون يورو إلى بنك ليمان برادرز المفلس في أمريكا .. وكان وزير الاقتصاد الألماني أعلن إقالة عضوين من مجلس إدارة كي اف دبليو الحكومي وهي دينلييف لابنيرغار .. وفلايشكو ... بسبب مسئوليتهما عن خسائر البنك ..

في فرنسا تم الاستغناء عن سارل ميلو رئيس مجلس إدارة بنك كيس ديباري أحد أكبر المصارف الفرنسية واثنان من كبار المديرين التنفيذيين لتسببهم في خسائر 600 مليون يورو وقعت أوائل شهر التمور الجاري ..

إن الانهيار المتسارع للنظام المصرفي العالمي يهدد النظم الاقتصادية في كل بلدان العالم .. خاصةً بعد أن تحولت المصارف وأسواق المال إلى مؤسسات قيادية لكل المنظومات الاقتصادية تقريباً .. وفي ظل إدارات فاسدة وأرباح وهمية .. وخسائر حقيقية .. ودونها آليات فاعلة للرقابة والتدقيق .. وفي إطار حملة دعائية تجميلية لوجه النظام الرأسمالي القبيح في محاولة لربطه بالنزاهة والعدالة .

واليوم بعد أن سقطت ورقة التوت .. وظهرت الرأسمالية عارية على حقيقتها .. ماذا نقول لأولئك المحللين العرب الذين يملئون الفضائيات العربية زعيقاً والصحف العربية .. مقالات وتحليلات .. حول الوضع الاقتصادي .. وأسباب الانهيار .. ونتائجه .. ولنا أن نسأل هل كنا في حاجة إلى هذا الانهيار الرهيب والخطير للنظام المالي الدولي حتى نعي حقيقة الرأسمالية .. وأزمتها ؟ .. ولنعرف أن الاقتصاد القائم عليها .. هش إلى هذه الدرجة .. وضعيف بهذا القدر؟ .. بالضبط كما كانت مأساة الشعب العراقي وأنهار الدماء التي سالت في بغداد والموصل والفلوجة .. لنرى الوجه الحقيقي للديمقراطية التي يروج لها الغرب .. ولنتعرف على السمات الحقيقية للنظام الغربي الشامل والمتكامل الذي يعملون على فرضه علينا ..

ألم يسمع أولئك بشخص اسمه معمر القذافي .. الذي دق ناقوس الخطر في وقت مبكر منذ نهايات القرن المسيحي الماضي .. وقال كل ما يكررونه اليوم عن حقيقة النظام السياسي والاقتصادي السائد .. ومجموعة القيم الفاسدة الناتجة عنه .. وحديثه عن مستقبل الرأسمالية والديمقراطية الغربية .. وقتها كان الكثيرين من أولئك المتقولون على التحليل يتخذونه هُزءاً .. ويعتبرونه ضرباً من الخيال .. بل إن بعضهم شكك في صدقيته .. وآخرون أعرضوا عنه بحجة أنهم أكثر دراية ومعرفة .. حتى أخذهم تسونامي الانهيار المريع..

هل نقول لهم حقاً أن زمّار الحي لا يُطرب .. وعلينا أن ننتظر حتى يعلن ساركوزي شهادة وفاة الرأسمالية .. وأن نتابع اعترافات أقطاب الدول الرأسمالية بوهن العش الذي ينسجون .. وحتى

نطّلع على ما قاله السيد جولدون بروان رئيس وزراء بريطانيا في صحيفة الوشنطن بوست التي نشرت يوم الجمعة الماضي .. "أن الأزمة المالية الحالية نقطة فاصلة للاقتصاد العالمي .. ولا بد من إيجاد حلول عالمية لإنهائها .. وطالب بتأسيس نظام اقتصادي جديد .. يقوم على المشاركة والعدالة" .. أم أن حالة التبعية تغلغلت حتى أصابت منا كل مقتل .. نردد كالببغاوات ما يقولون .. بلا عقل ولا تفكير ..

وماذا نقول إلى من يرون في أنفسهم أهل السياسة والاقتصاد .. يحاولون عبثاً العودة إلى الخلف .. بحجة التطوير .. وتحسين الأداء .. فعملوا على تفكيك ما تأسس من بدايات لمنظومة اشتراكية جديدة في بلادنا .. تحت شعار معالجة اختناقات القطاع العام .. فألغوا الإدارة بواسطة اللجان واعتقدوا أنهم بالعودة إلى نظام مجالس الإدارة والمديرين العاميين والمفوضين العاميين وجدوا عصا موسى السحرية التي تقود إلى التطوير والتقدم .. وأعطوا الحق .. دون وجه حق إلى الشركات وإدارتها بتحديد المرتبات والمكافآت .. الخاصة بالمدراء ..بديلاً لنظام المرتبات السائد الذي يمنع التفاوت ويحول دون التحايل .. و يرتبط بمنظومة وطنية .. تعتمد على المساواة والعدالة .. وحجم الإنتاج .. وتقارب دخول الأفراد من العاملين في مختلف الشركات والأجهزة العامة .

ماذا تراهم اليوم فاعلون .. هل سيضعون مجالس الإدارة تلك التي تعمل عندنا دون رقيب ولا حسيب .. تحت طائلة المراقبة والمحاسبة .. وربما الطرد أو الإعفاء .. هل سيتدخلون للحد من قيمة مكافآتهم من الأرباح الوهمية ؟ .. التي يتقاضونها .. ويعودوا إلى تطبيق المقولة الاشتراكية التي تنص على تقاضي العاملين حصة من الإنتاج .. وهل سيتراجعون عن تحويل الاقتصاد الليبي إلى اقتصاداً إنتاجيًا لإشباع الحاجات .. يتطور ذاتياً بالمعطيات المادية والبشرية الليبية .. إلى اقتصاد مالي استهلاكي قد يقود إلى التبعية المالية والسياسية ؟.. وهل سيبحثون عن موطأ قدم لتدخل المجتمع لتوجيه النشاط الاقتصادي بما يخدم مصلحة الأفراد في إطار النظرية الاشتراكية الشعبية القائمة على أن الذي ينتج هو الذي يستهلك .. وشركاء لا أجراء .. خاصة بعد اتجاه المؤسسات الرأسمالية لطرد العمال .. وسيلةً للحفاظ على كيانات تلك المؤسسات حيث يتوقع أن يصل عدد العمال المسرحين في أمريكا وحدها قبل نهاية هذا العام إلى 900.000 موظف .. خاصة بعد بوادر فشل عملية ضخ

أموال الدولة في المؤسسات المالية والاقتصادية المفلسة .. وبعد تدخل الدولة بشكل تعسفي وقسري في الدول الرأسمالية واتباع سياسة التأميم وشراء المؤسسات المالية المفلسة .. وهل سيحتفلوا هذا العام بذكرى تأميم المصارف .. حيث حولتها الثورة من مؤسسات اقتصادية تخدم بقايا الاستعمار إلى مصارف وطنية تخدم التنمية ؟ .. هل سيعيدون قراءة الكتاب الأخضر الحل الحقيقي والنهائي الوقائي والعلاجي من الأزمات السياسية والاقتصادية ليتأسس مجتمع جديد يقوم فيه العاملون على التوافق لإدارة المؤسسات الاقتصادية بواسطة المؤتمرات الإنتاجية واللجان الشعبية .. لتحقيق الرخاء والتقدم لكل الأفراد في إطار العدالة التامة بينهم والمساواة الكاملة في حقوقهم وواجباتهم ..

*****

الرأسمالية .. تستعين بالتأميم

بالنسبة لي كمتابع غير متخصص في شئون المال والاقتصاد .. لم أفهم هذا السقوط المريع لأسواق المال في أعتى الدول الرأسمالية .. بل في مركز قيادة الاقتصاد العالمي .. فانهارت المصارف الكبرى .. وأعلنت إفلاسها تباعاً .. وانهارت أسواق المال .. مباشرة بعد الأزمة الخطيرة التي تهدد الغذاء على المستوى العالمي حيث حدث نقص خطير في حجم المعروض من المواد الغذائية مما أدى لارتفاع جنوني في أسعارها .. ووسع دائرة الجوع لتصيب ما يقارب عن $\frac{1}{6}$ سكان الكرة الأرضية .. لقد قال لنا المحللون عندما حدث الانهيار الكبير في اقتصاديات النمور الآسيوية والمكسيك قبل عقد من الزمان .. إن الأمر يتعلق بالرشوة وسوء التدبير والفساد ودخول المضاربين بشكل أساسي في إدارة شئون المال والاقتصاد.

فماذا سيقولون اليوم .. في تقاريرهم التي تتعلق بالشفافية والفساد توضع الدول الغربية والولايات المتحدة الأمريكية مقياس لذلك .. فهي في أول السلم من حيث النزاهة .. ومحاربة الفساد .. وهي نموذج الوضوح الكامل في التعامل الاقتصادي والمالي .. وهي من الناحية الواقعية القوة المسيطرة الوحيدة في العالم .. تحت يدها كل ثروات الكرة الأرضية تقريباً .. تستطيع التصرف بها كما شاءت .. فلماذا حدث هذا الانهيار في مؤسساتها المالية والاقتصادية ..

يقول السيد بير شتانيروك وزير المالية الألماني ..أن الولايات المتحدة لا تعمل مع شركائها عند وضع قواعد الاقتصاد العالمي .. وأن سبب الأزمة الحقيقي هو حملة أنجلو سكسوتيه لتحقيق أرباح كبيرة .. وصرف مكافأة كبيرة للمصرفيين ومدراء الشركات .. ويرى أن أولئك المدراء والساسة لا يرغبون في التخلي عن تلك الميزات .. أنه يرجح سبب الأزمة إلى الغطرسة .. والرشوة وفساد الإدارة ..

وقالت وسائل إعلام أمريكية أن جهاز المباحث الأمريكي FBI فتح تحقيقاً حول شبهات احتيال في حق الشركات المالية الأمريكية العملاقة .. وإن التحقيقات تشمل 26 شركة في وول

ستريت .. وبعد وضع شركتي فاي ماي وفريدي ماك العقاريتين تحت الوصاية .. اتخذت السلطات الأمريكية قراراً تاريخياً بتأميم شبه كامل لمجموعة " ايه اي جي " للتأمين.. التي حققت أرباحاً هائلة من إعادة التأمين على الديون التي ارتفع سوقها من 900 مليار دولار عام 2001 إلى 45 ترليون دولار عام 2008 ..

وفي بريطانيا قررت الحكومة البريطانية تأميم مصرف " برادفورد وبيجلي " البريطاني للإقراض العقاري .. بعد أن انهارت أسهمه قبل أسبوع .. وقرر الاستغناء عن 370 وظيفة .. وهو نفس الإجراء الذي اتخذ مع بنك " نورثون روك " الذي انهار في وقت سابق من العام الحالي .. وفق خطة بوش لإنقاذ الاقتصاد الأمريكي .. فإن الدولة سوف تضخ أكثر من 800 مليار دولار لدعم المؤسسات المالية المنهارة .. مع تأميم المؤسسات المالية والاقتصادية الكبرى .. البنك المركزي الأوروبي قرر ضخ 30 مليار يورو في أسواق المال للحفاظ على استقرارها.. ولمنع أية عملية انهيار مفاجئة ..

السؤال .. هل تمكن هذه التدخلات في معالجة هذه الأزمة الخطيرة .. أم أن الأسوأ لم يأت بعد ؟..

يقول دومينك ستراوس .. المدير العام لصندوق النقد الدولي .. بعد اجتماع مع وزراء المالية ومحافظي المصارف المركزية في الخليج العربي عقد في جدة الأسبوع الماضي ـ ربما لتكليف تلك الدول بتحمل مصاريف هذه الأزمة .. وضخ الأموال الكافية ـ قال أنها أزمة مالية خطيرة .. وإن الأسوأ لم يأت بعد .. وإننا سنشهد خلال الأسابيع والشهور القادمة انهيار المزيد من المؤسسات المالية العملاقة ..

أما السيد آلان تمرينسين .. الرئيس السابق للاحتياطي الفيدرالي الأمريكي حتى سنة 2006 .. قال أن الأزمة المالية لم يشهدها العالم منذ أكثر من 50 عامًا .. أو قرن على الأرجح على حد قوله .. وأضاف .. إنها ستؤدي إلى انهيار عدد كبير من المؤسسات المالية الكبيرة .. و أوردت صحيفة " وول ستريت " قولاً لاقتصاديين نشر الأسبوع الماضي .. أن الاقتصاد الأمريكي سيشهد وضعاً أسوأ ..

ويرى 73٪ من 55 اقتصادي استطلعت الصحيفة أرائهم .. أن أكبر اقتصاد في العالم سيواجه مزيد من الضعف .. وإن الولايات المتحدة الأمريكية دخلت مرحلة انكماش اقتصادي .. وإن نسبة البطالة سترتفع بشكل ينذر بالخطر .. فهل وصلت الرأسمالية إلى بداية النهاية .. وهل ستنهار الدول القائمة على هذا النظام .. كما انهارت منظومة الاقتصاد الشيوعي .. بالنسبة لي لا يثير كل ذلك استغرابي .. فمنهج التحليل الجماهيري كان واضحاً في تصور كل ذلك .. وإن كان الغطاء الكثيف التي شكلته الآلة العسكرية والإعلامية للرأسمالية لم يسمح للكثيرين من أن يروا حقيقة ذلك النظام الهش .. لكن سؤالي إلى أولئك الذين هم بيننا .. يعلمون ما نعلم .. لكن غشاوة على أعينهم جعلتهم يستمرون في الترويج لاقتصاد السوق .. المشروع الفاسد .. الذي ينهار .. ماذا عساهم يقولون الآن بعد أن اتجهت أعتى الدول الرأسمالية إلى التأميم وسيلة لتفادي أزمة خطيرة تهددهم وتهدد اقتصاد العالم كله .. ماذا سيقولون حول أهمية القطاع العام في معالجة بعض الاختناقات .. والدول الرأسمالية تتحول فجأة وبسرعة البرق إلى دولة ضامنة تتدخل بقوة في كل شيء .. تضخ الأموال .. لإنقاذ المؤسسات المنهارة ..

وأين هي الشفافية في النظام الرأسمالي ؟ .. كيف انهارت تلك المؤسسات .. ؟ أليس بسبب فساد الإدارة وسوء في التصرف.

لعلنا نجد في هذه الأزمة الخطيرة التي صفعت الجميع .. وسيلة لعودة الوعي .. لنرجع إلى منهجنا الذي نستطيع بواسطته من بناء اقتصاد مستقر .. مستقل .. لا يخضع إلى التقلبات الدولية .. خاصةً وأننا نعرف أن أزمة الاقتصاد العالمي .. تكمن في تحوله من اقتصاد يقوم على الإنتاج إلى اقتصاد يقوم على توليد الأموال من خلال المضاربة والسمسرة وانتشار المناشط التافهة ..

إن الأزمة المالية ونقص الإنتاج الغذائي .. واستخدام الطعام في توليد الطاقة .. وإنتاج مواد غير مفيدة وتأسيس منظومة اقتصاد عالمي تقوم على تبعية لاقتصاديات الدول المسيطرة عسكرياً وسياسياً .. بحيث أصبح العالم الثالث كله سوقاً استهلاكياً للدول الكبرى ..تطرح سؤلاً مهماً .. لعلنا نجد من هذه الأزمة من سيستخلص الدروس المستفادة .. ونلغي من أذهاننا وهم التقدم والاستقرار والآمان في الاقتصاد الرأسمالي .. وأن نقدم مشروعنا الجماهيري القائم على الاشتراكية الشعبية حلاً .. يضمن التنمية والاستقرار والتقدم ..

بحث في دفاتر ماركس

تفيد التقارير الإخبارية بأن الطبعات المتوفرة من كتب ماركس وانجلز نفذت من المكتبات الأوروبية ، وأن دور النشر اضطرت لطبع كميات كبيرة منها بشكل عاجل لمواجهة الإقبال الشديد على شرائها .. خاصة في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا والاتحاد الروسي .. والسبب .. هو البحث عن تفسير للأزمة المالية التي تضرب النظام الرأسمالي .. في عموده الفقري النظام المالي .. خاصة بعد فشل آليات السوق في الحد من المخاطر الناتجة عنه .. وبعد اضطرار الحكومات الغربية إلى التدخل المباشر .. بضخ أموال بكميات ضخمة في المؤسسات المالية .. والعودة إلى سياسة التأميم والقطاع العام للتعامل مع هذه الأزمة الخطيرة .. ولعل السؤال المهم الذي يفرض نفسه يتمحور حول .. هل يتمكن نظام القطاع العام الذي دعى له ماركس من تجاوز آثار الأزمة ومعالجة تداعيتها .. والحد من آثارها المدمرة ؟ خاصة بعد أن فشل في إرساء مقومات حقيقية لاقتصاد شيوعي .. حيث ينتج الفرد قدر جهده ويستهلك قدر حاجته .. وعجز على إحداث تطوير في مستوى معيشة الأفراد في الدول التي اتبعته ، وانهار النظام السياسي القائم على منظومة القطاع العام .. وتفككت مؤسساته، ونتج عن ذلك نظام رأسمالي عشوائي أشد بؤساً وقسوة من النظام الرأسمالي السائد في الدول الغربية .. هل سيجد أولئك بين أوراق ماركس وانجلز الوصفة السحرية التي تعيد الأمور إلى نصابها .. أم أن الأمر لا يتعدى الركض خلف السراب في صحراء قاحلة .. وشمس حارقة .. لقد بين الفكر الماركسي الوجه الحقيقي للرأسمالية ونجح في تقديم المبررات العلمية لتأزمها .. لكنه فشل في تقديم بديل يمكن من بناء اقتصاد أفضل من الرأسمالية .. والسبب يكمن في طرحه للوجه الآخر لنفس العملة .. لتنظيم النشاط الاقتصادي.

لقد غير المسميات .. دون تغيير في الموضوع .. فالأجرة هي أساس العملة الاقتصادية .. وإن كانت مجزية في النظام الرأسمالي ، فهي ضئيلة في النظام الماركسي .. وتغول الدولة الماركسية وأجهزتها بحجة تأمين حاجات الأفراد وضمان العدل والمساواة بينهم .. أدى إلى حالة من العسف والقمع ربما هي أكثر قسوة وشدة منها في الدول الرأسمالية..

إن المشكلة لا تكمن في من هو رب العمل ؟.. لكنها تكمن في وجود رب عمل .. وعامل من الأساس .. ومن هنا فإن البحث عن دفاتر ماركس وانجلز القديمة لن يجدي شيء .. فلقد جربت الماركسية ، وسقطت وانفردت الرأسمالية بالساحة السياسية .. والاقتصادية على مستوى العالم .. لكنها لم تتمكن من الثبات ، وها هي اليوم تترنح..

إن الوقت مناسب لتقديم الحل المناسب .. الكتاب الأخضر .. النظام الاقتصادي البديل .. الذي يعالج أساس المشكلة .. وليس ظواهرها وأعراضها .. لقد نشر الكتاب الأخضر في سبعينيات القرن الماضي عندما كانت الماركسية والرأسمالية في أوج قوتها .. وتحدث عن حتمية سقوطها .. وبيّن أن النظام الاقتصادي السائد بوجهيه الماركسي والرأسمالي .. يحمل بذور فناءه .. وحذر من أزمة خطيرة .. ستؤثر على البنية الاجتماعية للشعوب .. وقد تؤدي إلى تدهور خطير للحضارة الإنسانية ، وقد تقود إلى صراعات مدمرة .. ولم تمض سوى عقود قليلة .. حتى سقطت الماركسية .. وبدأت بوادر تهاوي الرأسمالية ..

لقد أوضح الكتاب الأخضر الوسيلة التي تجنب الشعوب تلك المخاطر.. وتمكن من تطور سلمي ديمقراطي للأفراد والمجتمعات .. وتحول دون التأزم.. لو تم الإطلاع على الكتاب الأخضر أنذاك .. واتباع ما جاء به ..لتجنب السوفييت سقوط الاتحاد السوفيتي .. و لتجنبت الدول الاشتراكية في أوروبا دفع أثمان باهظة .. بسبب انهيار أنظمتها السياسية والاقتصادية .. ولما أجبرت الصين على الاستعارة من الرأسمالية لتحافظ على بعض من سمات الاشتراكية .. واليوم يتكرر نفس الخطأ ..

إن الدول الرأسمالية تدفع اليوم أموال طائلة تقدر بالترليونات لكي تخفف من آثار الأزمة الاقتصادية .. وهي أموال مقطتعة بالتأكيد من مخصصات لتسيير مؤسسات الدولة وتطويرها .. وتحسين الخدمات .. وقد تضطر لتدفع أثمان أعلى.. إذا فشلت عملية ضخ الأموال تلك في تحقيق المستهدف منها .. إن حروب أهلية وأزمات سياسية واجتماعية قد تجتاح الدول الرأسمالية .. وقد تؤدي إلى معطيات جيوسياسية مختلفة على ما نعرفه اليوم ، ولنا في مصير الاتحاد السوفيتي مثل حي .. وقريب لا يمكن نسيانه .. ولنا في درس يوغسلافيا بيان غني عن التبيان ..

أما دول العالم الثالث الرأسمالية الفقيرة التي تقتات على معونات البنك الدولي .. وصدقات الدول الرأسمالية .. فهي في خطر حقيقي .. هي لا تمتلك المليارات لتضخها في مؤسساتها الاقتصادية .. ولا هي قادرة على تحمل نتائج الأزمة السياسية التي ستخلفها الأزمة .. الأمر الذي ينذر بكارثة إنسانية واجتماعية خطيرة قد تجتاح تلك الدول .. وبوادر ذلك الوضع الخطير ، تظهر في الأفق .. سواء في ظهور المجاعات والحروب الأهلية ، والهجرة والبطالة ، وانتشار الأمراض الفتاكة .. وهي أسوأ ما تتوقعه الحضارة الإنسانية من نتائج مدمرة ..

أما دول العالم الثالث النفطية .. وأهمها الدول الخليجية في الوطن العربي .. فهي مرغمة على تحمل القسط الأكبر من تكلفة الأزمة الاقتصادية .. لأنها المصدر الأساس وربما الوحيد لتلك الترليونات .. التي ستضخ في أسواق المال الغربية .. علاوة على خسارتها أموالاً طائلة من مدخراتها في أسواق المال الرأسمالية المنهارة في أيام معدودات وهي لا تمتلك اقتصاديات إنتاجية وطنية تكفل لها البقاء ذاتياً .. حيث تعتمد على السوق الخارجية في كل شيء .. فسكانها أجانب وشركاتها أجنبية وأموالهم لدى الأجانب .. إضافة إلى حالة عدم الاستقرار الدائمة في الخليج العربي .، وبوادر الصراع الأمريكي الإيراني ...والتي ستكون منطقة الخليج ساحته الرئيسية.

إن الشواهد تبين أن دول الخليج تواجه تهديد حقيقي .. ربما يعيد إلى الأذهان الخرائط المنشورة في سنوات ماضية والصادرة عن مؤسسات استراتيجية غربية حول مصير المنطقة ..

إذاً الأمر يتعلق بمخاطر سياسية .. ولم يعد من قبيل البر والإحسان تقديم الكتاب الأخضر إلى العالم الذي يحتاجه بصفة عاجلة وملحة .. إن المسئولية الأخلاقية على الشعب الليبي تفرض إيجاد الآليات لنشر الكتاب الأخضر على نطاق واسع .. فالعصر اليوم هو عصر الكتاب الأخضر .. والحاجة ملحة ليطّلع الناس عليه .. ومن الضروري التعمق في دراسة وتحليل أطروحاته .. واستخراج المعادلات التطبيقية لمعالجة الأزمة الاقتصادية .. بإعادة هيكلية المؤسسات على أساس شركاء لا أجراء.

فلماذا تترك الناس تقلب البضاعة القديمة تبحث عن منتوجات ربما لا تزال صالحة للاستهلاك ونحن نمتلك بضاعة جديدة مضمونة الجودة ومعلومة التأثير .. فتلك هي رسالتنا ليس

من باب تصدير الثورة .. والترويج لها .. بل من منظور الدور الإنساني المناط بنا كخير أمة أخرجت للناس شهداء عليهم .. وجدير بنا تسريع عمليات تطبيق الفصل الثاني من الكتاب الأخضر في ليبيا التي تعاني أيضاً جوانب الأزمة الاقتصادية بسبب استعارة غير مبررة للنظام الرأسمالي تحت شعار تطوير الاقتصاد الوطني وربطه بالاقتصاديات الدولية .. التي انهارت بحمد الله قبل أن يتم لهم ذلك .. ولكي تقدم نموذج عملي تتحدىٰ به الشعوب لتحقيق التقدم والرقي.

*****

الاشتراكية هي الحل

الغلاء.. الفساد.. التضخم .. البطالة .. كلمات تتناولها ألسنة الناس باستمرار وفي كل مكان.. بعد أن طال ضنك الحياة للأغلبية الساحقة من الأفراد في كل البلاد تقريباً.. سواء تلك التي تُحسب في خانة الدول الغنية أو الدول محدودة الموارد..

أينما ذهبت تواجهك شكوى الناس من صعوبة الحياة... في عالم يقوم على الاحتكار والدعاية.. تنظر إلى واجهات المحلات التجارية تجدها مملوءة بكل الأشياء. إذا حاولت أن تقترب ستجد أن مجرد اللمس ممنوع خاصة إذا كانت الجيوب خاوية.. فبالمال وحده يحيا الإنسان..

أصبح هم الإنسان اليوم هو البحث عن الأموال بكل الطرق والوسائل، التي تقع أغلبها في إطار السرقة المشروعة أو غير المشروعة قانوناً. لقد ابتدعت الرأسمالية آليات معقدة لسرقة الأموال وتوليدها وزيادتها، كما أوجدت طرقاً ناجعة لغسلها وتنظيفها من أية شوائب قد تلحق بها أو تشكك في مصادرها. السؤال الملح الذي يطرحه الجميع إلى أين نحن متجهين؟.. أي مصير يواجه الحياة البشرية فوق الأرض، قلة تكدس الثروة فتزداد غنى.. وكثرة تعاني الفقر وتزداد فقراً.. منظرو الرأسمالية يدّعون أنهم يوزعون الغنى بين الناس، لكن الواقع غير ذلك بكل تأكيد... فوجود أغنياء يتطلب وجود فقراء.. هناك ارتباط شرطي بين هذه الأشياء.. لا يمكن وفق الرأسمالية أن يكون الجميع أغنياء ومتساوون، لأن ذلك ببساطة يعني انتهاء الرأسمالية..

هم ينتقدون الاشتراكية على أساس أنها تنشر الفقر، وربما وجدوا مبرراً لذلك من خلال متابعة التطبيقات المشوّهة للاشتراكية هنا وهناك، حيث أطلق الاسم على غير المسمى، فسميت منظومات اقتصادية إصلاحية بالأنظمة الاشتراكية..

لو استمر الحال على ما هو عليه فإن الإنسانية تتجه إلى موت جماعي محقق بشكل مباشر ولأسباب مختلفة. ربما أهمها انتشار المجاعات الناتجة عن تزايد حالات الفقر، فبالتأكيد أعداد

الجوعى أكثر بكثير من أعداد الأغنياء في العالم الذي تشكل أغلب سكانه طبقة وسطى بالكاد توفر لقمة العيش، إضافة إلى الارتفاع المضطرد للأسعار بسبب الندرة المتزايدة في توفير المواد الغذائية والأشياء الضرورية، ناهيك عن طابور العاطلين عن العمل الذي يتوسع يومياً ليشمل نسبة مخيفة بين سكان العالم القادرين على الإنتاج، واختلال منظومات الحماية الاجتماعية في كل دول العالم تقريباً..

دون شك مستقبل الحياة البشرية على الأرض يواجه تهديداً حقيقياً إذا ما أضيف إلى ذلك التدمير المريع والمبرمج للبيئة وتأثيراتها على الحياة بشكل عام على هذا الكوكب..

دون الدخول في تفاصيل النظريات الاقتصادية والفلسفات التي تقوم عليها فإن بسطاء الناس يحسون حجم التهديدات التي تواجههم ولا يجدون الوسائل المناسبة للخروج منها ولم يهتدوا بعد إلى الطرق العلمية للتغلب عليها.

المشكلة الأكثر صعوبة على الفهم تكمن في محاولة القوى التي سببت الأزمة التي تعيشها الإنسانية وتقديم الحلول والمعالجات لها، حيث يحاول الرأسماليون الذين هم السبب المباشر فيما وصلت إليه الأوضاع لتقديم الوصفات السحرية لتجاوز الأزمة الخطيرة، معتمدين على مقدرتهم الفائقة على بيع الأوهام وصناعة الآمال الكاذبة.. لكن وصفاتهم تلك لم تؤد إلا إلى تفاقم الأزمة.. وازدياد حدتها حتى وصلت نارها إلى أصابعهم.. فبدأ الانهيار المريع للمؤسسات الرأسمالية في مركز النظام وتفاقمت مشاكل البطالة والغلاء، وانهارت الخدمات الاجتماعية في الغرب رغم محاولات يائسة لحجبها باستخدام الدعاية الإعلامية المزيفة..

الحل يكمن في الاشتراكية.. لأنها وحدها تمكن في إقامة اقتصاديات منتجة، وتؤمِّن المساواة في توزيع الإنتاج بين الناس، وتحول دون التفاوت بين الأفراد والمجتمعات..

سيقول القائلون: لقد جُربت الاشتراكية ولم تحقق أياً من تلك الشعارات التي رفعتها، فلم تمكّن من بناء مجتمعات إنتاجية، ولم تحقق عدالة في التوزيع، وأدت إلى تدني مستويات الحياة لجميع

الناس تلك الحجج التي يتوهم أعداء الاشتراكية أنها رد قوي يمنع أي محاولة للدعوة للاشتراكية من جديد هم يعرفون أن الأنظمة التي طُبقت باسم الاشتراكية ومنها الماركسية التي فُرضت لعقود في بعض البلدان لم تكن منهجاً اشتراكياً حقيقياً، فهي فقط استبدلت الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والإنتاج بملكية الدولة على أساس أن الدولة هي الشعب باعتبارها إفراز للقوة الاجتماعية الأكثر فقراً.. الدولة اهتمت بتأمين رعاية اجتماعية متساوية للجميع فأتاحت التعليم والصحة والسكن بالتساوي، وبفضل ذلك حققت المنظومة الماركسية نجاحات كثيرة في هذا المجال، وساهمت في تأمين مستوى حياة مناسب ومتساو للجميع.. هيأت حياة أفضل بكثير منها في الدول التي تتبنى النظام الرأسمالي وبإجراء مقارنة ولو من خلال نظرة سريعة على الواقع الاقتصادي والاجتماعي بين الصين والهند مثلاً وهما متقاربتان من ناحية عدد السكان وحجم الموارد الطبيعية المتاحة، أو بين كوبا والدومينكان وهما أيضا متقاربتان من حيث عدد السكان وحجم الموارد، يتضح التفوق الواضح للمنظومة الماركسية في تأمين حياة أفضل بكل المقاييس.

على سبيل المثال قامت كوبا بدعم فنزويلا بأكثر من ثلاثين ألف طبيب لتأمين الرعاية الصحية فيها بعد انتصار الثورة البوليفارية، هذا رقم ضخم يعكس حجم التطور في مجال بناء الإنسان في كوبا. إن أي من الدول الرأسمالية الكبيرة لا تستطيع أن توفر نصف هذا العدد لدعم أية دولة، وهي تعتمد في خدماتها على من تستقطبهم من المتعلمين من العالم الثالث. إذ استثنينا قدرتها على توفير القوة العسكرية الجاهزة للتدخل والحروب..

ومع كل ذلك فإن الماركسية لا تعني الاشتراكية، إنما هي محاولة نحو الاشتراكية... الاشتراكية الحقيقية هي: اشتراك الناس المتساوون الأحرار مباشرة في تملك وإدارة مواردهم الاقتصادية، أي أن يمتلك كل فرد وسيلة إنتاجه وبالتالي إنتاجه، سواء بمفرده أو بالمشاركة المتساوية مع الآخرين.

الاشتراكية ضمان أساسي لحرية الأفراد، وهي شرط أكيد لممارسة الديمقراطية التي لا يمكن أن تتحقق في غياب المساواة الاقتصادية بين الأفراد.. الاشتراكية وحدها تمنع البطالة من الأساس

لأنها تمنع احتكار وسائل العمل، وهي الوسيلة الوحيدة لمحاربة الارتفاع المضطرد والمستمر لأسعار السلع والخدمات، علاوة على أن الاشتراكية ضرورية لإقامة علاقات اجتماعية بين الأفراد على أسس قيِّمَة وأخلاقية تقدس إنسانية الفرد.. وتضمن حقوقه..

*****

تسريبات من دافوس

اعترف ساركوزي أحد قادة الدول الرأسمالية بأن النظام الرأسمالي يعاني من مشاكل عويصة قد تؤدي إلى انهياره، ووجه انتقاداً شديداً إلى النظام المصرفي عمود الرأسمالية الفقري، واعتبره السبب الرئيسي للأزمة الاقتصادية، باعتماد المصارف على المضاربة كوسيلة أساسية لتحقيق أرباح وهمية بدل قيامها بتمويل المشروعات التنموية ذات المردود الاقتصادي الحقيقي.

أهمية ذلك لا تأتي فقط لأن من قاله هو ساركوزي وفي منتدى دافوس المصمم أساساً لإحكام سيطرة القوى المحتكرة للاقتصاد العالمي على شعوب الأرض من خلال الترويج للرأسمالية وطرح مشروعات اقتصادية استهلاكية على الدول النامية لتتمكن المؤسسات والشركات الرأسمالية من نهب ثروات الشعوب وتكديسها لمصلحتها.. بل تأتي في وقت لم يتمكن خلاله النظام الرأسمالي من تجاوز أزمته الحادة رغم المليارات التي ضخت في مؤسساته والتي يعتبرها عدد من الاقتصاديين المحسوبين على الرأسمالية أكبر عملية سرقة في التاريخ- مقابلة حسن هيكل، المدير التنفيذي لمجموعة إي.أف.جي "هيرمس" المالية، مع السي إن إن الأسبوع الماضي- ورغم الإجراءات المصاحبة التي قيدت إلى حد كبير حرية النشاط الاقتصادي وأدت إلى تدخل الحكومات بشكل مباشر ودون مواربة في إدارة المؤسسات الاقتصادية.

فإن تصريحات ساركوزي تتزامن مع حديث أوباما في أمريكا عن حالة الاقتصاد حيث اعترف بأن عُشر الأمريكيين عاطلون عن العمل.. أي أنهم لا يتحصلون على أي دخل ولا يستطيعون تدبير وسائل الحياة لأنفسهم ولعوائلهم.

تأتي تلك الأحاديث لتخترق الحصار الإعلامي الرهيب والحملة الدعائية المحمومة في محاولة لتوجيه الرأي العام إلى أمور أخرى لإبعاد الانتباه عن الأزمة المالية المستمرة وآثارها المدمرة والتي فشلت في تغطية عورة الرأسمالية.

هنا تبرز عدّة أسئلة ينبغي تناولها لتحديد اتجاه البوصلة للعالم في المرحلة القادمة أولها: هل يمكن تأمين حياة كريمة للبشر مع هذا التزايد المضطرد لأعداد العاطلين عن العمل في كل مكان والذي يتفاقم نتيجة للارتباط الشرطي بين ضرورة إصلاح مؤسسات النظام الرأسمالي وتسريح مزيد العمال، وما سينتج عن تراكم الأعداد الهائلة ممن لا عمل لهم في المجتمعات الرأسمالية من مخاطر اجتماعية؛ حيث تحولت الحياة في الغرب إلى حياة فردية مادية وانتهت الأسرة والقبيلة- المظلة الاجتماعية للأفراد- ولم تتأسس مؤسسات ضمانية ولم توجد خدمات رعاية اجتماعية فعالة، وحيث يعجز الأفراد العاطلون عن العمل عن توفير الغذاء والشراب فما بالك المساهمة في بناء الحضارة الإنسانية؟.

وثانيها: حول قدرة الدول الرأسمالية على التعامل الحقيقي مع الأزمات السياسية والاقتصادية التي يشهدها العالم والتي أثبتت عجزها في مواجهة أبسط الكوارث الطبيعية.. ومثالنا نتائج إعصار كاترينا في أمريكا.. وزلزال هايتي الذي فرض طرح السؤال حول آلية تقديم المعونات وما قامت به الولايات المتحدة من إجراءات غريبة لم يتصورها أحد بأن احتلت هايتي تحت ستار توزيع المعونات.. فهل تحتاج عمليات تقديم المساعدات الغذائية والدوائية والإنسانية إلى ضحايا زلزال هايتي- مع حق الاحتفاظ بفرضية إنه بفعل فاعل بسبب تفجير نووي للقوات الأمريكية – إلى احتلال ذلك البلد بالكامل بدءاً من السيطرة على المطار وليس انتهاء بتواجد عشرات الألوف من القوات الأمريكية على الأرض وتسلمها إدارة الدولة بالكامل، وهي سابقة لم يشهد لها تاريخ العالم مثيل؟.

وثالثها: حول اتجاه الدول الرأسمالية إلى التخلي عن شعارها حول حرية الإعلام والصحافة وفرضها رقابة صارمة على وسائل الإعلام إلى درجة أن تطلب من الدول المستقلة منع وسائل الإعلام التي تمارس التحريض- التحريض مقولة يقصد بها انتقاد الكيان الصهيوني، والتعرض للنظام الغربي- وفرض إجراءات عقابية ضد المؤسسات التي تملك أقماراً صناعية والتي تسمح ببث بعض القنوات الفضائية.. وتجرؤ الكونجرس إلى مناقشة إصدار قانون علني في ذلك الصدد وهي سابقة تاريخية غريبة أيضاً.

ورابعها: حول أسباب أزمة الديمقراطية في كل الدول التي تتبنى النظام الرأسمالي.. وارتباط النظام الرأسمالي بأنظمة دكتاتورية فاسدة وحاجة الدول الرأسمالية إلى التدخل المادي المباشر لفرض تلك الأنظمة الموالية لها، وللحيلولة دون وصول أية قوى قد لا تحمل وداً للمشروع الرأسمالي إلى السلطة.. ومحاربة أية محاولة جادة لتسلم الشعوب سلطتها.

والسؤال الأكثر أهمية يتجه إلى أولئك المثقفون العرب الذين يعملون جاهدين على الترويج للمشروع الغربي والذين يمارسون التضليل الواضح للرأي العام العربي، ويحرضون ضد القيم السياسية والاجتماعية في الوطن العربي، يحاربون الهوية الثقافية للأمة لتمهيد الطريق إلى السيطرة الرأسمالية مستخدمين كل الوسائل والأساليب لتحقيق أهدافهم المشبوهة.. فهل هم غافلون.. منبهرون بحالة البهرجة في المجتمعات الغربية التي تشبه صور الخيال "السينمائي" والتي لا يوجد لها ما صدق على أرض الواقع.. أم هل هم واعون ويعملون بسابق إصرار من أجل فرض ذلك المشروع الفاشل؟.

إن الدعوة ملحة إلى تصعيد المعركة ضد الرأسمالية والتشبث بقضية الحرية الكاملة التي لا تتجزأ والتي تنطلق من رفض المشروع الغربي.. والدعوة إلى مشروع جديد يؤمِّن حرية الأفراد ويضمن احترامهم.. ويمكِّنهم من المساهمة في بناء مستقبلهم وتأسيس حضارة عالمية جديدة تقوم على العدل والمساواة التامة بين البشر في كل شيء.

*****

تعاويذ وكلمات

بعضهم ينبش بين القبور عساه يجد خرقاً يسوِّقها لباساً للمستقبل.. وآخرون يرون في المومياءات صور الغد المبهرة.. لكن دفاترهم القديمة لم تحو سوى تعاويذ لم تنجح في دفع الضرر.

عندما كانت الدولة البرجوازية تتأسس بين أقدام الفقراء الخارجين -عن طاعة نواب الله في الأرض- من أروقة الكنائس.. تمكن نفر قليل من الاستحواذ على إمكانات الناس.. ملوك القرون الوسطى يتثاقلون من التخمة وملوك الدولة المؤسسة حديثاً يتثاقلون من التخمة ومن اللهث خلف مزيد الأموال، لكن صياغة شيطانية لمفهوم الحرية قلبت الأمور رأساً على عقب.. صارت مجرد كلمات جوفاء تنبس بها الأفواه وتكتبها بعض أقلام رافضة وصارت معان في بطون الشعراء.. أن يستحوذ الحذاق على أموال الناس فذلك عنوان عريض للحرية!. وأن يكابد سدس سكان الأرض الجوع فذلك أيضاً ممارسة للحرية!.

عند أولئك تحمل الحرية وجوهاً عديدة وتكتب بلغات متعددة، فمن يا ترى يستمتع بالمعنى الحقيقي للحرية؟. سؤال لن يجد إجابة سوى بضع كلمات مراوغة. يعتبر بعضهم أن الإضراب عن الأكل حتى الموت وسيلة ناجحة لممارسة شعائر الحرية.. المضربون عن الطعام طوعاً أو كرهاً يتضاعفون كل يوم.. منهم من يعمل ذلك عن سابق إصرار وآخرون ترغمهم ظروف الحاجة.. العالم يشهد سباقاً محموماً بين الاستعباد ودعوات التحرر.. حول المضمار يجد السماسرة سوقاً رائجة للكلمات والشعارات.

في الماضي كان العبيد يربطون على مجاديف السفن كي تبحر في رحلة قرصنة أو تجارة أو غزو ما، أما اليوم فيساق العبيد إلى طوابير الانتخابات لتلتقط لهم صورة تصلح أن تكون "مانشيتاً" لصحيفة ما.. تضفي بصمة أصابعهم المتشققة من الكد.. شرعية ما للبعض لكي يستحوذ على كل الأشياء.. يقول صديقي عبد الرحمن سيدوا من النيجر: إن أكثر من أربعين في المائة من سكان النيجر

غير موثقين في سجلات الدولة يهيمون في الأرض بلا هوية.. قلت في نفسي كيف يدعي الساسة في النيجر أنهم نتاج إرادة شعبية.. حيث قرابة نصف السكان دون أوراق تمكنهم من الاقتراب من الصناديق السحرية التي تصبغ الشرعيات وتصنع الشرعيين؟.

بين الركام الناتج من شدّة القمع ووطأة الجوع يولد يومياً آلاف الأطفال.. لتجد آلة الجوع ما تطحنه.. ولكي تصطف طوابير تضاف إلى أخرى.. في رحلة باتت بلا نهاية.. لأن الحياة صارت أشد فتكاً.. أطفال في عمر الزهور يرغمون على الأعمال الشاقة.. ويجبرون على حمل السلاح في أتون معارك طاحنة.. وآخرون يجبرون على ممارسة الرذيلة مع القساوسة والرهبان.. كي ينالوا الصفح الرباني من تحت.

بعض المحظوظين من الأطفال يجدون طريقاً إلى تجارة أكثر يسراً حيث تباع الممنوعات، لأنها تدر أرباحاً دون حدود.. سيصيب الأطفال بعضاً منها.. وأطفال تبتاعهم شركات ليصيروا متسولين في شوارع المدن المخضبة بالقهر.. لأغراض ليست إنسانية فهي تجارة مربحة.. ودون ضرائب ولا تحتاج إلى تراخيص.. آلاف الأطفال في أماكن عدة وبألوان مختلفة ومن كل الأعراق والأجناس يمدون أيديهم في هذه الأرض التي حباها الله بخيرات جمّة... لكن الصدقة تطير من أيديهم إلى أياد أخرى تتلقفها..

سيقول جهابذة الرأسمالية وماذا في ذلك؟؟ المهم الحرية.. دعه يعمل دعه يمر.. أليست كلمة حق لتبرير وتمرير الباطل؟. ماذا لو سمح لكل إنسان أن يعمل ويمر؟. هل سيجد أولئك الرأسماليون مجالاً للكسب الحرام؟. سَيورِدُون حججاً من كتب صفراء بالية مردود عليها.. سيقول قائلهم الاشتراكية منظومة فاشلة عكست حالة البؤس والفقر.. تناسوا أن البؤس موجود فيهم.. يخفونه بمساحيق تجميل وأنوار كاشفة وأضواء وبهرجات.. نسألهم هل ترجمون بالغيب؟.. أين الاشتراكية لتنعوها وتدفنوها.. هل ولدت بعد؟ فكيف تكتبون عليها الموت؟ وتتشدقون أنكم أوجدتم درباً لحياة أفضل؟ تلك أسماء أنتم أطلقتموها لم ينزل الله بها من سلطان.. تلك رأسمالية في أشكال مختلفة أنتم أوجدتموها.. واعتبرتموها قضاء ربانياً.. وناموساً طبيعياً.. وهي صياغات ركيكة

لمقولات قديمة بالية.. الاشتراكية ياسادة تعني ببساطة الحرية الكاملة والتامة للكل وفي نفس الوقت وبنفس القدر.. تعني اشتراك الناس جميعاً دون استثناء في الاستفادة من خيرات الأرض.. الاشتراكية اسم آخر لمفردة الحرية التامة والمطلقة.. حيث يختار الناس التعايش السلمي معاً لأن ناموس الخلق يرغمهم على ذلك.. وبين الحرية والإرغام أمور كثيرة قد تبدو متناقضة.. لكن البدء والمآل هو الحرية.. منها تشتق عبارات الرقي.. ولها تنصب الصروح.. ولن تجدوا بين المقابر عناوين تنشر غداً لكن الغد يشرق بين أيديكم.. ولن تجدوا تعاويذ تمنعهم من دك حصون الظلم.

*****

أطفال في خط الفقر

نشر موقع سي إن إن على شبكة المعلومات يوم 12 الصيف 2010 تقريراً كشف فيه عن إحصاءات جديدة تبين أن 21٪ من الأطفال الأمريكيين يعيشون تحت خط الفقر، وهو أعلى معدل سجل منذ عقدين.. ولفت البروفسور كينيث لاند أستاذ علم الاجتماع والسكان في جامعة ديوك أن الرفاه الاجتماعي للعائلات تراجع إلى أقل من مستواه عام 1975 م.. يستند مشروع مؤشر رفاه الأطفال والشباب الذي نفذته جامعة ديوك على 28 مؤشراً منها الرفاه الاقتصادي والسلوك الأمني والرفاه الروحي والعاطفي.. ويشير التقرير إلى أن نحو 15.6 مليون طفل أمريكي يعيشون تحت خط الفقر.. منهم أكثر من نصف مليون طفل دون مأوى.

هذه الأرقام المنشورة عن حالة الأطفال في أمريكا تعد من ضمن الأسوأ في العالم.. ففي مصر بلغت نسبة الأطفال الفقراء 16.9٪ حسب رأي د. هبة الليثي أستاذ الإحصاءات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة الذي قدمته في الندوة العلمية حول الفقر التي نظمت بالاشتراك مع المنظمة العالمية للطفولة "اليونيسيف" نهاية عام 2009م.

في أوروبا.. أطلق البرلمان الأوروبي في بروكسل في شهر النوار 2010 حملة قارية لمحاربة الفقر الآخذ في الانتشار في ربوع القارة من خلال برنامج كاريتاس " لا فقر" لمكافحة الفقر والتهميش الاجتماعي.. وتطلب خطة كاريتاس من الدول الأوروبية التركيز على أربعة جوانب لاستئصال الفقر من أوروبا.. وهي استئصال فقر الأطفال، المساعدة الأساسية للجميع، الرعاية الصحية الشاملة ودعم مساعدات الدولة..

في ديسمبر عام 2009 نشر تقرير أعده ديتمر هايننج واليزابيث زيمرمان حول الوضع الاقتصادي في أوروبا بين أن 16٪ من الأوروبيين يعيشون في حالة فقر أي أن "80 مليون أوروبي" يواجهون ظروف حرمان حقيقية في كل الجوانب، والضحايا الأكثر عرضة للفقر هم من الأطفال إذ

يبين التقرير أن 19٪ من الأطفال في القارة يعانون الفقر.. في مقابل 196 بليونير فقط.. وأن الطبقة الوسطى آخذة في التقلص لمصلحة الطبقات المسحوقة..

في بريطانيا سجلت أسوأ حالات فقر للأطفال في أوروبا، إذ تشير معلومات اليونيسيف إلى أنها وصلت إلى 30٪ أي 4 مليون طفل تحت خط الفقر.. ولعل ذلك سبب كاف لتركيز الحملة الانتخابية الأخيرة على موضوع الفقر الذي أخذ حيزاً كبيراً في البرامج الانتخابية للأحزاب المختلفة.. وتستعد أوروبا لعقد مؤتمر تستضيفه الهيئة العامة للتنمية الإقليمية في السويد في شهر الحرث 2010 حول طفولة أوروبا.. سوف يتركز على مناقشة كيفية التعامل مع ظاهرة فقر الأطفال في أوروبا التي تتصاعد بشكل يثير المخاوف الحقيقية على مستقبل الشعوب الأوربية.

السؤال الأهم لماذا لا تأخذ هذه المعلومات والتقارير مساحتها المناسبة في وسائل الإعلام، السلطة الرابعة على رأي دعاة المشروع الليبرالي، ولماذا لا يتم تسليط الضوء المناسب حولها على الأقل؟. هل يوجد شيء أهم من وجود قرابة ¼ أطفال القارة الأكثر تقدماً تحت خط الفقر؟. -ذلك مؤشر كاف على وضع الأطفال في الدول الأقل نمواً- ولماذا لا نرى في الإعلام الذي تسيطر عليه المؤسسات الرأسمالية إلا صورة مجتمع الرفاهية والرخاء؟. نشاهد فقط الأطفال بياقات بيضاء وأسنان نظيفة وحقائب مدرسية جميلة وملابس زاهية وأغذية راقية وحياة مرفهة.. حدائق وألعاب من كل الأحجام والأشكال وملابس ومدن للترفيه.. من هم يا ترى أولئك الأطفال الجائعون في أوروبا الذين تتحدث عنهم التقارير.. وأين ترانا نجدهم ونراهم؟ أم أن محتويات تلك التقارير مجرد كلمات بلا مضمون أو هي مجرد دراسات أكاديمية؟. فلماذا إذاً هذا الخوف والهلع الذي يصيب المؤسسات السياسية والأكاديمية والاجتماعية في أوروبا؟ بالتأكيد إن في الأمر شيء ما.. وإن ما يظهر هو أعراض لحالة مرضية خطيرة جداً أصابت الجسد الرأسمالي.. ولم يعد في الإمكان إخفاءها والسكوت عليها.

عندما قلنا إن الرأسمالية آخذة في الأفول وأن الأزمة المالية أخطر بكثير مما يقدمه لنا الإعلام عنها.. سخر البعض مما قلناه يومها.. وقيل إن تهويل الأزمة المالية يقع في إطار الدعاية التي لا تستند

إلى حقائق.. أو هي اختلاقات من الشركات المختلفة في إطار المنافسة، وأن الدولة الرأسمالية تمتلك آليات مناسبة للتعامل معها وتجاوزها... لكن الرياح سارت بما لا تشتهي السفن، فلم يمض وقت طويل حتى بانت الحقيقة وبدأت معاناة عديد الدول الأوروبية من أزمة حقيقية قد تؤدي إلى إفلاسها.. وأخذت الفوضى تعم بعض العواصم الواحدة تلو الأخرى.. وأعلن الأوربيون سياسة شد الحزام.. والتصميم على إجراءات تقشفية قاسية.. كل ذلك يؤكد أن الأزمة لم تنته بعد، وأن نتائجها الكارثية على الشعوب بدأت تضرب الدول واحدة تلو الأخرى، فبعد اليونان يجري حديث جدي عن حالة الاقتصاد في أغلب دول الاتحاد الأوروبي، خاصة أسبانيا والبرتغال وإيرلندا وقد تضم القائمة فرنسا وإيطاليا.. أمّا دول أوروبا الجديدة على رأي جورج بوش " دول المنظومة الشرقية سابقاً" فالمعلومات المتوفرة والدراسات المنشورة تبين أن حالة الفقر فيها أسوأ بكثير منها في دول الاتحاد الأخرى.. وأن وعود الرخاء والرفاه ذهبت أدراج الرياح.

*****

تأملات في عالم ما بعد الرأسمالية

يُجمع المفكرون والسياسيون في الغرب على أن النظام الرأسمالي والمنظومة السياسية والاجتماعية الناتجة عنه في مراحله النهائية، وأنه قد وصل إلى طريق مسدود.. وهو سبب مباشر للأزمات التي تعانيها المجتمعات التي تتبنى ذلك النظام.. طاولات البحث المعمق حول البدائل المتاحة والإصلاحات الممكنة تعقد بشكل مكثف في كل مكان.. الاتجاه الأكثر وضوحاً في تلك المناقشات هو: تبني حلولاً مشابهة لتلك التي طرحها الفكر الجماهيري، سواء في مجال النشاط الاقتصادي أو من خلال طرح فكرة ديمقراطية المشاركة.. والديمقراطية المباشرة وغيرها، لتطوير النظام السياسي، ولعل الصدام بين المؤسسة الرأسمالية الحاكمة ومنظومة ما سمي بالمجتمع المدني كان السبب الأكثر فاعلية في الإجهاز على النظام الرأسمالي.

المشكلة كما يقول الساسة في الغرب: أنهم مرغمون على القيام بأعمال خارج قناعاتهم الفكرية والسياسية تحت ضغط الجمعيات المتعددة والمختلفة والمتناقضة وفي إطار استحقاقات الدعاية الانتخابية.. فمن تبني قوانين تسمح بزواج المثليين إلى عدم المقدرة على اتخاذ إجراءات فعالة لمواجهة الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي تضرب كل أرجاء الدول الرأسمالية.

المشكلة لا تكمن في كل ذلك، لأنها أصبحت حقائق معلومة يمكن للجميع الإطلاع عليها والتمعن فيها ومتابعة ما يقولون ويكتبون بكل سهولة ويسر من خلال شبكة المعلومات الدولية.

لكن المشكلة تكمن في أولئك الذين لايزالون يتوهمون أن تبني المشروع الليبرالي هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق التنمية والاستقرار والتقدم.. لا يتورع بعضهم في المجاهرة بطلب تدخل الدول الرأسمالية لتغيير أنظمة العالم وفق نموذجها وأجندتها، منهم من يمارس عمليات جوسسة لمصلحة الدوائر الغربية ولا يخجل في تقديم خدماته لأجلها، ومنهم من يجهد نفسه بالكتابة والبحث عن التبريرات عساه أن يجد لنفسه حظوة لديهم، ومنهم من يحمل الدعوة للرأسمالية سراً آملاً أن يكون إيمانه الضعيف بها صك غفران يقدمه إذا دعت الحاجة.. لكنهم جميعاً يجهلون أنهم إذا ما قدر لهم النجاح في دعواهم تلك ليلتحقوا بركب المنظومة الرأسمالية فلن يجدوا تلك المنظومة في مكانها حال

وصولهم إليها.. وقتها يكون قد غمرها طوفان التغيير.. فتلاشت واندثرت وحل محلها نظام جماهيري شعبي جديد... فماذا تراهم عندئذ فاعلون؟؟.

بالتأكيد أولئك المعتقدون في الرأسمالية وقدرتها على الصمود والاستمرار لا يمكنهم تصور عالم بدون الدول الغربية المسيطرة حتى وإن اطلعوا على ما كتبه فريد زكريا رئيس تحرير نيوزويك انترناشيونال.. وغيره من مفكري الغرب عن عالم ما بعد أمريكا.. وبالتأكيد هم يسخرون من فكرة أن العالم سوف يتبنى عاجلاً أم آجلاً الأطروحات الجماهيرية التي نبشر نحن بها العالم.

ولعل بعضهم يستهزئ بنا وبما نقول، لكن التاريخ يعلمنا أن ذلك شأن الحضارات الإنسانية الكبرى.. فكلما ظهر طرح تاريخي لتغيير العالم سيواجه بالنكران والرفض.. وفي بعض الأحيان بالسخرية والاستهزاء، لكن التغيير سيتحقق لا محالة وتصبح محاولة المتشبثين بالماضي مجرد كلمات قليلة في هوامش كتب التاريخ.. المشكلة الأخرى الأكثر مدعاة للتساؤل، تكمن في أولئك المطالبين بالتغيير إلى الخلف الذين ينبشون في المقابر عساهم يجدون عظاماً يمكنهم إعادة الحياة إليها.. لا يعرفون أن المستقبل تصنعه أفكار تصمم خصيصاً له من خلال المعطيات المتوفرة اليوم.. تنطلق من رؤية شاملة للماضي والحاضر.. لا تغطيها غشاوة زيف.. ولا تستند إلى أوهام وأكاذيب، بل تستنسخ كلمة كلمة من معاناة الشعوب وآمالها وطموحاتها.. تمزج بين الحرية والمسئولية.. تضمن العدل والمساواة وتحسم الصراع لمصلحة المقهورين المستعبدين والمهمشين المعدمين.. ترتكز على نواميس الحياة الطبيعية التي فطر الناس عليها.. فتقدم الدواء الناجع لأمراض المجتمعات وتؤمّن التعايش السلمي بين الأفراد لا مغبون ولا مهضوم ولا سيد ولا مسود بل إخوة أحرار.

*****

عام الانهيار التام

رغم المحاولات المضنية التي تبذلها المؤسسات الرأسمالية الحكومية والخاصة لتجاوز آثار الأزمة المالية التي ضربت الاقتصاد العالمي ورغم الدعاية الإعلامية المكثفة لتصوير الأزمة بأنها وقتية وطارئة ولن تسبب أضراراً مهمة في المنظومة الرأسمالية، وادعاء أن كثيراً من الدول تجاوزتها ودخلت مرحلة الانتعاش بعد حالة الركود.

لكن الواقع على الأرض لم يكن كذلك.. بل على العكس تماماً تعقدت المشاكل المالية وتفاقمت ووضعت الدول أمام كابوس الإفلاس كما أفلست المصارف والشركات فسرعان ما انهار اقتصاد اليونان واقتربت الدولة من حافة الإفلاس مما اضطر الدول الرأسمالية لجمع ما بقي في خزائنها وهرعوا إلى اليونان في محاولة انتحارية لإنقاذ اقتصادها وإبقائه على قيد الحياة ولو باستخدام أجهزة اصطناعية.

الحقيقة إن الأزمة المالية العالمية هزّت عرين الرأسمالية ومركزها الاقتصادي... أوروبا أول أو ثاني أكبر اقتصاد على الكرة الأرضية.. حيث المصارف ومؤسسات المال والشركات متعددة الجنسية والشركات الاحتكارية ودقت أجراس الإنذار.. ففي الوقت الذي يصارع فيه الأوروبيون أزمة اليونان، أخذ الاقتصاد الإيرلندي والبرتغالي في التداعي ولحقه الإسباني بسرعة البرق.. وبدأ التصدع في الاقتصاد البريطاني والفرنسي والإيطالي إلى درجة تنذر بخطر الانهيار.. أما اقتصاديات دول الاتحاد الأوروبي من مجموعة المنظومة الاشتراكية السابقة فحدث ولا حرج.. لقد صارت دولاً من ورق تعيش على ما يلقى إليها من إعانات ومساعدات.

الاقتصاديون الأوربيون عاجزون عن تفسير الأزمة كما هم عاجزون عن إيجاد وسائل لحلها.. المؤسسات النقدية الدولية التي تكونت لخدمة وتأمين النظام الرأسمالي لم يعد أمامها كثير من البدائل والحلول... قائمة الدول القادرة على تقديم المنح والمساعدات والقروض تقلصت إلى حد كبير... وربما انحصرت في ألمانيا والنمسا وبعض الدول الإسكندنافية، وهي لا تستطيع مهما كان حجم اقتصادها أن تواجه الأزمة.

الاقتصاد الأمريكي من جانبه لم يشهد أي نوع من الانتعاش.. مسلسل إفلاس المصارف استمر بنفس الوتيرة عام 2010 مسيحي... معدلات البطالة ارتفعت باضطراد.. أسعار العملات شهدت اضطرابات مدمرة استدعت ضرورة التلويح باستخدام القوة لاحتواء الصين وفق مانشر عن نصائح رئيس الوزراء الاسترالي إلى وزير خارجية أمريكا والمتضمنة في وثائق ويكيليكس.

المشكلة أن الغرب يحاول التعامل مع الأزمة بنفس الأدوات التي سببتها.. ومن غير المعقول أن يكون ذلك الأسلوب آلية مناسبة لمعالجة حالة حادة وخطيرة...

المشكلة الأساسية تكمن في النظام الاقتصادي الرأسمالي.. الذي اعتمد على توليد الأموال وتكديسها بأية طريقة.. إنه في الواقع اقتصاد الكازينوات.. والإعلانات والدعايات.

القاعدة الاقتصادية الأساسية إنتاج وتوزيع واستهلاك لم تعد موجودة.. فباستثناء بعض الموارد الطبيعية المحدودة لا يوجد في الاقتصاد الرأسمالي عمليات إنتاج حقيقية تمكن من ازدهار اقتصادي وتقود إلى الرفاه، خاصة بعد صعود الصين كلاعب اقتصادي أساسي.. السمة السائدة للرأسمالية اليوم كما كانت دائماً هي البؤس والفقر والاضطراب النفسي وانتشار الفساد بسبب التنافس غير الشريف بين الشركات الرأسمالية التي لم تقدم إنتاجاً ولا خدمات ذات جدوى.. فاضطرت إلى تقديم الرشاوى والعمولات لتصريف بضائعها البائرة.. ولأن العملية الاقتصادية مرتبطة ببعضها البعض فإن الاقتصاد الرأسمالي يدور الآن في حلقة مفرغة نتيجتها مزيد الانهيار.

إن السياسات المالية والاقتصادية المطروحة حالياً في الغرب للتعامل مع الأزمة هي نتاج المدرسة الرأسمالية في التفكير.. هدف واضعيها الأول هو نصيبهم الشخصي من الأموال مقابل مايقدمونه من اقتراحات للسياسات المالية وليس بسبب نجاعة السياسة وقدرتها على تقديم حلول مناسبة للمشكلة.. لقد أدى ذلك إلى دخول الشركات والمؤسسات الرأسمالية على خط اقتراح الحلول المالية والاقتصادية... وبالتأكيد فإن تلك الحلول المقترحة تستند على أولوية تأمين مصالح الشركات وتحقيق مكاسب مادية مباشرة لها من جراء تطبيق تلك السياسات.. لقد أسند إلى المسببين في الأزمة الاقتصادية مهمة وضع الحلول للتعامل معها تماماً كما يطلب من اللصوص وضع الآليات واقتراح الوسائل التي تمنع السرقة..

خلاصة القول عام 2010 مسيحي لم يكن عام الانتعاش الاقتصادي كما روّج له الرأسماليون مع نهاية 2008..

في تصوري ومن خلال قراءتي المتواضعة يمكن القول بأن الأزمة المالية والاقتصادية أصبحت أكثر حدّة وأشد وطأة على الدول والأفراد.. وإن مسيرة الانحدار متواصلة وقد يكون العام المسيحي القادم أسوأ من العام الحالي الذي يوشك على الرحيل.. ومع إشراقة كل صباح يستمر العد التنازلي لنهاية الرأسمالية.. فهل بينهم عقلاء ينتبهون إلى أسباب المشكلة.. والبحث في حلها.. والابتعاد عن سياسة غرس الرؤوس في الرمال كما يفعل النعام وأن ينظروا بأذهان منفتحة؟ فالحل الوحيد الذي يمكن من إعادة القطار إلى السكة ويحمي المكاسب التي حققتها البشرية في رحلتها الطويلة موجود هنا بين فصول الكتاب الأخضر.

اللجان الثورية

أيام وأيام

أكتب عن تلك الأيام الجميلة عندما كان فتية صغار في عمر الكهول يعدون العدة ويشحذون الهمة لإطلاق نداء الرحلة المجيدة.. وآخرون خارجون من أكواخ التخلف.. مرهقون من تعب العمل الشاق والجهد الفائق للتعلم يلتحقون بالركب.. أمام أنظارهم هدف واحد يحملون شعاراً واحداً.. النصر أو النصر.. عندما كان الرجال يحملون معاول البناء.. وكانت النسوة يطلقن حملة الانعتاق.. والأطفال يرددون أهازيج الفرح القادم.. والشيوخ يتلذذون بطعم النهاية الرائعة ويتحسرون على من مات وفي قلبه حسرة، ولم يشهد الفرحة ولم يذق طعم النشوة.. أيام أقيم فيها البنيان وتعززت أركانه واندفع الشعب العظيم في طريق النور، وجاء الناس ينهلون من منبع الحكمة.. أيام امتزج فيها العطاء بالحسم والبناء بتدمير الجسور التي قد يعود منها شبح الماضي البغيض.. والكلمة بالفعل.. والحوار بالعمل.. فكانت مدرسة حقيقية في الثورة.. عنوانها: نحن نفكر ونبني ونطبق.. التجربة أساس العلم، خاصة عندما تكتمل أركانها ويتقن إجراؤها.. فتصير منهجاً كاملاً للحل.. وتصبح وسيلة مثلى لوضع الخارطة.

أيام كان الناس يتدافعون خلالها نحو المجد حيث صارت أسماؤهم كابوسا يخيف الأعداء فتعلن حالة الطوارئ أينما حلّوا.. ليس لأنهم يحملون عتاداً يهدد الأمن، بل لكونهم مشروعاً حياً يهدد أنظمة الظلم.. كل بشر منهم يمشي في أي مكان سيثير القلاقل، لأن المشعل الذي يحملون سيضيء الدروب والعقول والقلوب.. سيرى الناس أن أمراً ما مختلف صار في متناول اليد.. عصا موسى السحرية أصبحت في مقبض اليد.. عندما تلقى ستلقف كل ما يطرحه السحرة في هذا العصر.. من نظريات وأفكار وبرامج.

سيعرف الناس حقيقة العدل الذي يدعون له وماهية الحق الذي يطالبون به سيخر السحرة صاغرين، لأن أولئك الرجال القادمين من صحراء ليبيا أبطلوا كلما يقولون.. وفضحوا ماكانوا يخبئون.

أيام تتأسس فيها القيم التي ستصيغ الحضارة الإنسانية لقرون قادمة من الزمان، سيحفظها الناس في كل مكان عن ظهر قلب، وتكتب عنها الحكايات والقصص، وتنحت بها التماثيل وترسم الصور.. فهؤلاء رموز العصر القادم لاشك في ذلك، وهم عنوان كل الكلمات التي ستكتب في الغد.

أيـام يـسطر فيهـا أول حـرف في التـاريخ الجديـد وترسـم خلالهـا اللوحـة الأولى للمحمـة الديمقراطية.. سيكون الناس الذين نسوا أنفسهم خلالها نموذج الأيام الآتيـة كلهـا إلى ردح طويـل من الزمن.. حتى الأسماء التي لم تذكر ستسجل بأحرف من نور.. كل لحظة من لحظاتها ستكون مادة لمجلدات تخلدها وتبحث في أغوارها عسى أن تجد الأقـوام اللاحقـة تفـصيلاً أو تفـسيراً لأمـر مـا.. هكذا كما هو حال الرسالات الكبرى التي غيرت مجرى الحضارة والتـي شـكلت فيهـا حركـة أفـراد عاديون جداً مادة ضخمة للتحليل والتأويل والتأصيل.

عندما نكتب عن تلك الأيام الفاصلة في التاريخ فإننا ندرك أن أمراً جللاً قد وقـع، وأن حـدثًا عظيمًا قد حدث، وأن عجلة الزمان لاتـدور إلى الخلـف، فالماضي لايعـود وإن تـشابهت الأحـداث في بعـض الأوقـات.. والنـاس لاتـذكر سوى تلـك اللوحـات التـي يرسـمها البـشر الأفـذاذ عـلى جـدار الزمن.. ونحن ننحت اللوحة الأكثر روعة فيه.

*****

حديث في الكلمات

لا شك في أن الكلمة هي المرآة التي يرى منها الناس الآخرين.. وهي مدخل الإنسان للتعامل مع الأحداث.. "تكلم لأراك".. حكمة تعكس بديهية الحياة، فلو لم يتكلم الناس فلن يتعرفوا على بعضهم البعض.. والكلمة هي رأس الحكمة وهي مضمون المناهج كلها.. منها تبدأ الحضارات وبها قد تنتهي.. لولا كلمات الحكماء والأنبياء وكلام الله الخالق الأحد لعم الأرض فساداً مخيفاً.. بعض الناس يتكلمون بما يرغب المستمعون... لا يقولون ما يقدمهم هم للآخرين ليتعرفوا عليهم.

يصف أحد أصدقائي شعوب الصحراء بأنهم عندما يتكلمون يقولون كلاماً ما.. ويقصدون أموراً أخرى غير التي قالوها.. ويتوقعون من المستمع أن يفهم أموراً أخرى تختلف عمّا قالوه وما قصدوه.. ولعل صعوبة الحياة في الصحراء وأجوائها القاحلة تجبرهم على ذلك، حتى إن البعض يقول: إن الرمال المتحركة تدفن معها كثيراً من الكلام الطيب والخبيث.

عندما تكون الكلمة من أجل قضية، فإنها تنزل كالمطر على الأرض القاحلة فتنبت بها العشب.. لأنها كلمة تنبع من الصدق ومملوءة بالصدق لا تطلق عبثاً دون هدف.. إنها درر من أحرف نورانية يراها الأعمى ويسمعها الأصم حتى وإن كانت لا تروق للبعض ممن يسترزقون من قضية ما.

وعندما تكون الكلمة لغاية في نفس يعقوب فإنها تنزل على الأرض الخضراء فتأتي على الأخضر واليابس، إنها سم يُسكب فيقضي على الحياة.. إنها لا تختلف كثيراً عن محتويات البالوعات... أشياء شبيهة بالوحل يتقيأ بها صاحبها فيمتعض الكل.. يقول ماوتسي تونغ "عندما يهاجمني الأعداء فإنني أشعر بالغبطة لأن خطأ إيديولوجيا فاصلاً يتكون بيني وبينهم فيمنعني من السقوط في الوحل".

الوضوح.. في الأهداف والمقاصد والسبل يتطلب وضوح الكلمات التي تعبر عنها.. أمّا الأمور المضخمة بكلمات جوفاء، فهي تعني مزيد التعقيد وتؤدي إلى الكارثة.. عندما تظهر بين

الناس فكرة جديدة تقابل فوراً بالرفض والمقاومة حتى وإن كانت رسالة منزلة من الخالق.. والحكمة لا يعلمها إلا هو فإنها تواجه بالتشكيك والتسفيه.. تطلق ألسنة عديدة كلمات نارية ضدها وتكتب وتروى أحاديث فجة حولها، لكنها تنتصر وتصبح حقيقة لا يقبل الناس مجرد المناقشة حولها.. التدافع بالكلمات سمة الخلق لا شك في ذلك، لكن عمر الإسفاف جد قصير.. عندما ظهرت الفكرة الجمهورية قبل عقود قليلة كانت مثار سخرية، لكن الأخطر أن ملايين الناس لقوا حتفهم حتى أخذت طريقها إلى العقول ومن ثم إلى الألسن.. من يقبل اليوم مجرد المقارنة بين النظم الجمهورية وتلك الإقطاعية الاستبدادية.. لقد صارت الكلمات التي دافعت عن النظام الإقطاعي البائد مجرد حكايات تروى للتندر.. لعل أكثرها شهرة قولة ماري أنطوانيت للفقراء أن يأكلوا البسكويت بعد تفاقم أزمة الخبز.

الجاهل من يسدد سهامه وكلماته إلى الفكرة الجديدة.. ولنا في الرسول العظيم أسوة حسنة... لقد كان أبو جهل نموذجاً للكلمة الحاقدة.. فصارت الجاهلية تسمية لكل أولئك الذين حاربوا الدعوة الجديدة.. ولأن كثيراً من الجهلة والسطحيين والصيادين المهرة في المياه العكرة سيقولون، ما أعرف أنهم سيقولون، فإني أقول: إن الرسالات الجديدة حتى الوضعية منها يقابلها الجهلة بالمعارضة والتسويف.. ولأن حجتها ومنطقها من القوة بمكان فليس لهم بديل عن القدح والشتم. وهكذا فعلوا مع الرسول العظيم.. فقالوا عنه مجنون وقالوا ساحر وقالوا شاعر.. وهكذا هم فاعلون في كل زمان ومكان لكن التوجيه الرباني للرسول العظيم هو: أن أعرض عن الجاهلين.

الجاهليون يقبلون الهزيمة بسهولة يتشبثون بتحليلات زائفة.. ويتقولون بكلمات جوفاء عساهم يجدوا فيها عزاء.. لكن دورة الحياة تتجه دائماً إلى الأمام وعجلة الزمان لاتدور للخلف.. عندما حاول بعض المنافقين تأليب عكرمة بن أبي جهل ليطلب أن يسمى عكرمة بن أبي الحكم كان رده حاسماً بأنه يفتخر بالاسم الذي أطلقه الرسول على والده، فكان محارباً صلباً في سبيل نصرة الدين الحنيف فكتب مع الشهداء.. مع الصديقين.. إن الأثير مليء بالأحرف والكلمات وبكل اللغات، لكن السؤال يدور حول كم من الكلمات وجدت طريقها عبر الأزمنة إلى الناس وكم من الكلمات كانت هباءً منثوراً..

نظرات إلى الخلف

بين الماضي والحاضر لحظات وكأنها لمح البصر، لكن بعض الناس يتناسون تفاصيل مثيرة ويقفزون فوق مشاهد كثيرة.. خاصة إذا تعلق الأمر بتاريخ الأمم والشعوب.. ربما هي عقدة التعايش مع الأمر الواقع أو الخوف من عودة عجلة الزمان إلى الخلف فتكشف أموراً إن بدت للناس أساءتهم.. والبعض الآخر يصر على قراءة الأحداث من منظار خاص لا يرى إلا بعض الكلمات المتناثرة والمتقاطعة فيجهد نفسه في تكوين جملة قد تكون مفيدة.. وبين كل أولئك تجد من يعمل عن سابق إصرار على طمس الأحداث لأنها قد تأتي على صورة وهمية رسمها لنفسه فتحرقها.

لكي لا نذهب بعيداً في رحلة الزمن ومسافات الجغرافيا، ففي ليبيا أمثلة تشهد لما نقول.. هذا البلد الذي يشكل اليوم رقماً في معادلة العلاقات الدولية والإقليمية.. كان نسياً منسياً قبل بضع سنين من الزمان.. لنفتح نافذة نرى منها صوراً مأساوية لشعب كان خاضعاً لقرار الإبادة الشاملة حتى تصبح أرضه الخالية من أهلها جزءاً من بلاد ما وراء البحر.. وعندما جاء إعلان الاستقلال المزيف بعد سنوات قليلة على انتهاء سيطرة الفاشست الطليان على الأرض العربية الليبية، كان معظم رجالات العهد المباد من أولئك الذين عاصروا سنوات القمع والعذاب التي أذاق فيها الطليان كل أنواع القهر والعذاب للشعب العربي الليبي الأعزل كي تكون ليبيا شاطئاً رابعاً مأموناً لإيطاليا البعيدة... وربما ساهم بعضهم ممن خدم الطليان في ممارستها.. صال المستعمرون وجالوا في هذه الأرض الطاهرة.. وكأنهم قدر لا مفر منه.. وقاموا بأشنع الأفعال وأقبحها.. فكان السؤال.. لماذا لم يطرح أي من ساسة العهد المباد وقادة النقابات والإعلاميين الذين لازال يتبجح بعضهم بأنهم مخلصون لوطنهم وأهلهم.

لم يطرح أي منهم ولم يشير من بعيد أو قريب إلى حق الليبيين الثابت في استرداد أملاكهم المغصوبة وإعادة أرضهم المنهوبة، بل لم يتطرق أي منهم إلى وجود آلاف المنفيين ظلماً وعدواناً من معظم العائلات الليبية... مع أن الأحداث لم تكن بعيدة والأيام التي تفصلها لم تكن طويلة... وصورها كانت آنذاك ماثلة للعيان.. ومن اكتوى بنارها أغلبهم أحياء يرزقون.. أين كان منظروا حقوق الإنسان والمتبجحون إلى هذا اليوم بأنهم وألستهم مجردة للحديث عنها في كل مكان؟.

هل يأتوننا بكلمة واحدة قالوها أو كتبوها عن مأساة عشرات آلاف الأسر الليبية الذين فقدوا أحباءهم وعزلوا عن أقربائهم؟. من منهم تحدث عن القواعد المنتشرة في طول البلاد وعرضها، ومن منهم أشار إلى حقيقة وجود مئات الموظفين الاستعماريين المنتشرين في كل الإدارات للسيطرة على الشأن العام، ومئات الضباط المعلنة أسماؤهم والمخفية هوياتهم الذين يتولون قيادة جميع الأجهزة الأمنية في العهد المنهار؟. ولن نسألهم عن دور الشركات الأجنبية في نهب الثروات الوطنية ولا على دور المؤسسات الثقافية في الترويج لسياسة الهيمنة والتبعية.. ولا عن دور السفارات في تشكيل الحكومات الوهمية التي تتعاقب سنوياً.. وفي التدخل في الانتخابات الشكلية التي تنظم وفقاً للدستور!!.

ولنا أن نسأل أيضاً لماذا لم ينبس أي منهم بحرف واحد عن فرق السلام التي نشرت في الأرض تحت ذريعة تعليم اللغة الإنجليزية، ولا عن مناهج التاريخ والتربية المزورة والمزيفة؟. لنراجع الصحف ووسائل الإعلام ونحصي كم كلمة كتبت في حق المجاهدين وكم مرة ذكرت أسماؤهم على سبيل الحصر.. هل ورد اسم بن عسكر أو الفضيل أبو عمر أو الصويعي الختيوني أو الجويفي أو الجالط أو أبومطاري أو أبومنيار أو البوسيفي أو فرحات الزاوي ناهيك عن أبورحيل وسعدون والمحمودي سوف ورمضان وبلخير والباروني سليمان والمبروك المنتصر وغيرهم من قادة الجهاد.. أو حتى عن عمر المختار رمز المقاومين الأحياء والأموات في كل أنحاء العالم.. ولنذهب إلى أبعد من ذلك.. هل وردت أسماء أغلبهم ضمن قوائم قدماء المجاهدين المزيفة؟.. ولنسأل عن أولئك الذين تبوءوا المراكز في الوزارات والمجالس والسفارات ولمن أعطيت الأوسمة والأنواط.. هل يمكن إعادة النظر إلى الخلف ولو لقليل لنرى طرابلس في شهر أغسطس عام 1969 من يجوب شوارعها ومن يسيطر على مواردها ومن يؤم شواطئها؟.

سيقول الناكرون الماكرون نحن أولاد اليوم فلماذا تعيدون تصوير الأمس.. ذلك منطق من لا حجة له.. وفلسفة من يخشون نبش الماضي لأنه يكشف عورات كثيرة وربما يبين فضائح مثيرة.

ولنا في الموضوع حديث قد يتكرر ويطول..

حكايات من عصر الطليان

عندما صدر الأمر الثوري باستعادة الأملاك المغصوبة وإرجاع الثروة المنهوبة.. والعفو على بقايا الجنود المحتلين وأمرهم بالرحيل الفوري عن الديار المحررة كان لابد للمرء أن يتذكر الأحداث.. ويأتي على الحوادث لأهمية إعادة تصوير الواقع الليبي آنذاك، ولسبر غور المشاعر التي انتابت أولئك الذين عاشوا ويلات القهر والذل والقمع.. والعودة إلى الأيام التي تكونت فيها اللجان التي قامت بحصر أملاك الطليان.. وتوزيعها على المواطنين الليبيين أصحابها الحقيقيين سواء ممن كان يمتلكها قبل اغتصابها أو من أجبر على العمل فيها بالسخرة نتيجة ظلم المحتل.. لقد كانت أياماً مغمورة بالفرح مليئة بأحاديث الذكريات.. حكايات وحكايات.. تصور المأساة وتبين حجم المعاناة.

ولأننا كنا وقتها أطفال صغار.. تشدنا حكايات الكبار وأحاديثهم.. فنسخت في ذاكرتنا مشاهد حزينة لمعاناة أهلنا.. وبقيت ماثلة أمام أعيننا قصصهم.. حدثني أحد الذين عايشوا تلك الحقبة المريرة من مراحل الاستعمار والتي ربما كانت أشد وطأة على الليبيين من فترة الاحتلال العسكري المباشرة.. إنه كان مضطراً للعمل مثل بقية الليبيين في أحد مزارع الطليان، التي كان يمتلكها إيطالي كان يحمل رتبة جنرال في العهد الفاشي.. مساحتها تتجاوز 300 هكتار اغتصبها من أهلها بعد الاحتلال، تملكها، استصلحها وزرعها بأشجار الزيتون واللوز وحفر بها أربعة آبار للمياه.. قال إن العمال الليبيين يأتون إلى العمل في المزرعة قبل طلوع الفجر ولا يمكنهم مغادرتها إلا بعد وقت طويل من غياب الشمس مقابل بضع قروش لا تغني ولاتسمن.. يسمح لهم بفترة قيلولة في الظهيرة لا تتجاوز الساعة.. يتناولون خلالها وجبة غداء تتكون في أغلب الأحيان من أرغفة من خبز التنور مع سلطة ليبية من بصل وفلفل وبعض طماطم في موسم الصيف.. وبعض من لبن حامض في فصل الربيع، وتمر مع حليب مخفف بالماء في فصل الخريف والشتاء.. يتبعونها بأكواب من الشاي يعد في علب المواد الغذائية الفارغة التي يلقيها الطليان.. وحدثني عن معاناتهم أيام جني اللوز وتقشيره.. أو جني محصول الفول السوداني وتجفيفه ونشره.. حيث لا تتوقف أيديهم على

العمل.. وتمنع ألسنتهم من تذوق طعم ما يجنون.. يخضعون إلى رقابة صارمة حازمة ويقوم العجوز الإيطالي بنفسه بالتفتيش الدوري عليهم ليضمن أنهم لم يتناولوا حبات من اللوز أو الفول السوداني أثناء العمل.. كان يستخدم طريقة مهينة في الكشف عن ذلك.. إذ يطلب من العمال فتح أفواههم ونطق حرف آه.. عند تناول اللوز أو الفول السوداني ومضغه فإن بقاياه سوف تبقى عالقة في الحلق إلى وقت طويل.. وسينال العامل المسكين جزاء قاسياً ليس أقله الطرد من العمل.

وحدثني أنه لا يسمح للمواطنين الليبيين المرور من المزرعة أو التجول فيها إلا من طرقات ومسارب خاصة بهم معدّة لذلك الغرض، وأنهم ينصبون بيوتهم وأكواخهم لمسافات بعيدة عن حدود المزرعة.

وحدثني عن أحد الصبية الذي حاول في غفلة من الطليان أن يركب بغلة كان يستخدمها الإيطالي في العمل، وكيف ضرب حتى سال البول بين ركبتيه وطلب من أهله الرحيل عن حدود المزرعة وإلا واجهوا عقاباً شديداً.. وحدثني أن طفلاً كان يلهو بعيداً عن المزرعة فظن أحد أبناء ذلك الجنرال الإيطالي أنه قد يتسلل إلى أشجار اللوز.. فأخذه وألقى به بين كلبين من نوع "ولف" تخيف أشد الرجال شجاعة وصبراً وعزيمة فسقط الطفل المسكين مغمى عليه من شدّة الخوف، فهرع الشاب الطلياني الذي ظن أن الطفل قد مات وأخذ الطفل في سيارته ذات الدفع الرباعي ورماه خارج المزرعة.. ولولا أن الله أراد خيراً بذلك الطفل فسخر له مرور بعض النسوة كن يجمعن حطباً ومواد أخرى من نفس المكان فأخذن الطفل.. إلى أهله.. لكن الصدمة لازمته إلى وقت طويل.. وهو حي يرزق إلى يومنا هذا..

وحدثني أن أحدهم كان يعمل بمعصرة الزيتون الخاصة بالإيطالي، حاول أن يدس بعضاً من الزيت في رغيف الخبز اليابس فرصدته عين أحد الأبناء الطليان فعاقبه بأن أمره أن ينزل في الماجن الذي تلقى به فضلات عصر الزيوت وأن يشرب منه.. وبقى به الحال لساعات طوال.. حتى شعرت أحد البنات الطليانيات ببعض الشفقة عليه فأخرجته.. ذهب مسرعاً الخطى ولم يعرف صاحبي ومحدثي عنه بعد ذلك شيئاً.. وحدثني أن بعض الأطفال الليبيين كانوا يسرقون البيض القليل من جداتهم ليبيعونه إلى الطليان مقابل قطعة خبز إفرنجي.. في وقت كانت "حارة البيض" أربع بيضات تعني دخلاً قد يؤمن لقمة العيش لأسرة ليبية كاملة..

أنا أعلم أن جميع الليبيين الذين عايشوا تلك الفترة الحزينة إبان ما سمي الاستقلال المزيف لهم حكايات ومشاهد وصور محزنة.. لكن شيئاً من ذلك لم يوثق حتى أن أجيالنا الحالية ربما نسيت الأمر تماماً.. وأن البعض قد لا يتصور أن ذلك كان يحدث في مدن ليبيا الكبرى.. فربما نجد لهم العذر في أنهم لم يع تماماً.. ماذا يعني أن تعتذر إيطاليا رسمياً وعلنياً لشعبنا؟.

في شارع سيدي خليفة : معركة حول الصابون

كان على الطلبة الذين ينهون المرحلة الإعدادية والقادرين على مواصلة دراستهم الثانوية في محافظة طرابلس في نهاية الستينيات الالتحاق بإحدى مدرستين ثانويتين.. طرابلس الثانوية المخصصة في معظمها لأبناء الذوات والعائلات المرموقة والمسئولين، أو مدرسة باب بن غشير التي افتتحت عام 1967 لاستيعاب طلاب الطبقة الفقيرة.. بغض النظر عن أماكن سكناهم.. بعدها أو قربها من المدينة، لأن البديل الوحيد المتاح أمامهم كان الالتحاق بالمدرسة الداخلية في الزاوية أو الخمس.. في ذلك الوقت كانت ثروة النفط تضخ منذ عدّة سنوات مضت، لكنها لم تنعكس على مستوى معيشة الناس فمعاناتهم لم تتغير على الإطلاق.. ولأن الفقر المدقع والبطالة التامة والعوز الشامل كان سمة الحياة في تلك الأيام الحالكة السواد، فلم يكن بالإمكان الحديث عن خدمات التعليم أو الصحة أو المواصلات والمرافق وغيرها.. كان هم الناس جميعاً البحث عن لقمة العيش.. وكوخ أو جزء من غرفة يسكنون إليها.. ولأني اجتزت المرحلة الإعدادية في عام 1967.. فلم يكن أمامي سوى خيار وحيد وهو مدرسة باب بن غشير الثانوية، الأمر الذي فرض ضرورة إقامتي مع عائلة تربطها بعائلتنا علاقة صداقة، في منزل عربي في شارع سيدي خليفة.. بالنسبة لشاب من الريف ينتقل للحياة في المدينة تبدأ القصة بمفارقات عديدة.. ومعاناة من نوع ما.. لكن الأهم كان الملل الذي يصبغ الحياة في المدينة بشكل عام، إذ كان علينا الذهاب إلى المدرسة في الصباح الباكر.. والجلوس طوال المساء والليل للدراسة أو اللعب في البيت والتمتع بمتابعة المسلسلات الأسبوعية في المذياع.. والاستماع إلى الأغاني المسجلة على الاسطوانات..

الطريق إلى المدرسة كان عبر المزارع الصغيرة والبساتين فلم تكن منطقة سيدي خليفة وقتها مكتظة بالمباني السكنية كما هي اليوم.. إذ تبدو وكأنها أحد ضواحي المدينة البعيدة عن مركزها، وكان على المرء المرور من خلال المزارع والبساتين في أبومليانة وأبومشماشة للوصول إلى المدينة لمشاهدة أشرطة الخيالة في دور "السينما" المسموح بها لنا مرّة في الأسبوع.. حسب إرادة عمي صديق العائلة الذي كان صارماً في ترتيب حياة أسرته.

في مدرسة باب بن غشير كان المدير صارماً أيضاً حتى استحق بجدارة لقب هتلر من الطلاب الذين يقفون في أماكنهم كتماثيل من حجر إذا مرّ من أمامهم.

ولأن أغلب طلاب المدرسة من أبناء العائلات التي تسكن في أحياء ومناطق طرابلس الفقيرة من سكان الأكواخ في باب عكارة ورأس حسن والمنصورة فإن درجة الشقاوة أعلى بكثير، كذلك كانت الرغبة الجادة لديهم في التعلم.. والإصرار على تحدي الواقع المرير الذي يعيشونه.. المدير كان يريد أيضاً أن ينافس بهم وبمدرسته مدرسة طرابلس الثانوية في كل شيء وكان دائماً يبحث عن التفوق.

في المدرسة وفي سيدي خليفة أحداث مهمة لكن أكثرها طرافة مشاجرة كبيرة وقعت بالمنطقة عام 1968 بسبب الصابون إذ أخذ الناس يتزاحمون على شراء صابون "التايد" بشكل ملفت للنظر ليس لأجل حملة نظافة وطنية بل للحصول على الجوائز التي أعلنت عنها شركة "تايد".. وأهمها الحصول على سيارة.. بتجميع صورها الموزعة في علب الصابون والتي تحوي أيضاً صوراً لهدايا أخرى غالية الثمن سيقتنيها من يتمكن من جمع صور كاملة لها في الحال.. ومنها مواد كهربائية.. ومواد منزلية.. وبسبب ضيق الحال وقلة المال اضطر المواطنون لعقد الصفقات فيما بينهم في مسابقة جوائز الصابون... إذ يتفق مجموعة من الناس على شراء عدد من علب الصابون ويتقاسمون ثمن الجوائز إن وجدت.

لسوء الحظ كانت فرصة الحصول على الجوائز معدومة تقريباً إذ تفاجأ الجميع بأن أجزاء الصور هي نفسها مكررة في كل العلب.. ولم يستطع أي منهم أن يحصل على صورة كاملة عدا فرد واحد تمكن من جمع صور لحوض غسيل من البلاستيك لا يساوي ثمن علبة الصابون.

لقد كانت كذبة الحصول على سيارة من خلال علبة "التايد" حديث السكان جميعاً، وخاصة بين النسوة.. حبكت القصص.. ونسجت الحكايات، ولأن بعض البسطاء اقترض بضع قروش للمساهمة في صفقة صور الصابون.. كان الأمر بالنسبة لهم بمثابة الكارثة.. اتهم بعضهم البقالين باختلاق القصة.. ودفع كثيرين منهم على المطالبة الملحة بإرجاع الصابون المفرغ في صحون وأواني.. البقالون رفضوا ذلك بشدّة فالذي يباع لا يرد... نشبت معركة حقيقية.. شتم وسب، شد وجذب هرج ومرج كر وفر.. ولولا تدخل العقلاء وكبار السن لأدى الأمر إلى انتفاضة عارمة.. كان

البقالون في موقف لا يحسدون عليه.. البعض عرض الصابون السائب للبيع بالجرامات في سوق الحوت.. والبعض الآخر لم يجد أمامه سوى التضرع إلى الله عز وجل.

استمرت معركة الصابون لعدّة شهور.. ولأن الشيء بالشيء يذكر.. تذكرت على الفور قصص النصب والاحتيال العجيبة الغريبة التي يتعرض لها بعض الناس في وقتنا الحاضر من جماعات توظيف الأموال.. وكأن النقود كائن حي يتكاثر فيولد نقوداً أخرى.. قصة صابون "التايد" على بساطتها كانت في تلك الأيام وكأنها مضاربات بالملايين.. وخسائرها كانت تساوي خسائر الشركات الكبرى التي ترغم على الإفلاس لمصلحة حماية النظام الرأسمالي.. لا أدري هل كان السبب في ذلك الفقر أم الطمع أم الفقر والطمع معاً؟!

*****

في البدايات

كان الهم الأكبر يكمن في كيفية رفع المعاناة عن الناس جميعاً، في أقصر الآجال.. طرح السؤال كيف يتاجر البشر في البشر..؟.. فصدر الأمر الأول بتحريم بيع وشراء العمال.. وجاء الأمر الثاني برفع الحد الأدنى للأجرة.. وكان الأمر الثالث البدء الفوري في أعمال البناء والتشييد.. لطي صفحة التخلف.

في الأيام الأولى انهمر الغيث النافع من السماء بشكل استثنائي وكأنه يعانق المولود الجديد... جرفت السيول الأكواخ في شوارع طرابلس التي غمرت بالماء.. الأمتعة القليلة في أحياء أكواخ الصفيح سالت أيضاً إلى البحر.. ووباء الكوليرا ظهر من جديد.. في الماضي لم يتوقع الناس أن الدولة ستأتي إليهم.. لكن ذلك اليوم كان غير الأمس.. جاء الفارس وصحبه إلى حيث الوديان الهادرة.. وأمر فوراً بإيواء المنكوبين وتعويض المتضررين.. وانطلقت في طول البلاد وعرضها حملة للتحصين ضد وباء الكوليرا.

كان الإصرار على تغيير الواقع بطرق غير عادية، في كل مكان وضعت أساسات لمشاريع إسكانية ضخمة.. تستهزئ بما سمّي مشروع إدريس الذي لم يره الناس ولم ير النور.. وذهبت مخصصاته إلى جيوب الكبار.. كان ينتظر بفارغ الصبر اليوم الذي يضرم فيه النيران في بقايا الأكواخ وكان له ما أراد بعد سنين قليلة.

تأمل في بعض الشوارع النظيفة والدارات الفارهة والقصور المشيدة في مدننا الليبية الجميلة التي يحرم على الليبيين دخولها، هي تعج بالأجانب من بقايا الغزاة والمحتلين فأمر المقموعين المقهورين من أصحاب الأكواخ بالزحف على الدارات والشقق وتملكها لأنه حقهم الذي دفع آباؤهم ثمناً باهظاً من أجله.. آلاف من أبناء الأرياف والبوادي اقتحموا تلك الأحياء الراقية

وسكنوها.. كانت فرحة لا مثيل لها وكان حدث لم يخطر على بال أحد.. صارت كل أحياء وشوارع ومساكن مدننا تحمل سمة واحدة... لقد كسر الحاجز النفسي بين الفقراء والأغنياء.. يقول الشاعر الحبوني في وصف منزل أحد رجالات العهد المباد بالثورة.. في قصيدة مطلعها: وين ثروة البترول يا سمسارة نشرها عام 1963 .. قال "حوت البحر في فيلته يجارا"..أي أن السمك يجري وسط الدارة لكن قدر الثورة حوّل تلك الدارة الفخمة إلى مستشفى لمعالجة شلل الأطفال.

لم يشغله أمر عن أمر آخر.. لا يؤجل عمل اليوم إلى الغد.. كان موجوداً في كل القطاعات.. في لقاء تاريخي مع المهندسين الزراعيين أعلن الإصلاح والتنمية.. تعهد بأن تتحول هذه الصحراء القاحلة إلى جنة خضراء.. طرابلس التي كانت تستورد كل شيء من القمح والشعير إلى البيض والبقدونس.. المحاطة بالكثبان الرملية في سيدي سليم وسيدي السائح وتاجوراء لابد أن تعود واحة خضراء.. وبنغازي التي تروى من ماء مالح أجاج والمحاطة بأرض صخرية حمراء عندما تضربها الريح تنعدم الرؤية فيها ويصبغ كل شيء فيها باللون الأحمر.. صارت محمية بعد أن ضرب سياج أخضر حولها.

نقب في الصحراء.. وجد الماء الغزير فأطلق غزوة الصحراء.. أقيمت المشروعات الزراعية العملاقة في بحور الرمال العظيمة فأسس مشاريع الكفرة والسرير ومكنوسة وتهاله.. يزرع كل شيء قابل للاستزراع.

كان يعرف أن أساس التنمية الحقيقية وهدفها الرئيسي وضمان الحرية الوحيد هو الإنسان.. فكان لابد من ثورة في التعليم.. بدأت بإجبار الناس على التعلم ذكوراً وإناثاً.. ونفذت خطة طموحة لبناء المدارس والمعاهد والجامعات.. لم تستثن شيئاً، شعارها لنتعلم كل المعارف في إطار حرية التعليم.. حتى صار حق التعلم أحد أهم الحقوق الأساسية للأفراد.. أعلن بكل وضوح .

اليوم تنطلق مسيرة بناء الإنسان الجديدة... سنصنع الأطباء والمهندسين والطيارين.. كانت ثورة في التعليم لم يشهد لها التاريخ مثيلاً.. بضع سنين فقط حولت ليبيا من شعب أمي جاهل.. إلى شعب أغلبه من الجامعيين.

ولأن بناء الإنسان يقتضي ثورة اجتماعية حقيقية.. تستهدف الجميع دون استثناء فأعلن أن الثورة لا تقبل أن تبقى المرأة الليبية الحرة حبيسة الجدران.. دعاها.. هيا أخرجي إلى النور.. أخرجي إلى ميادين العلم والعمل.. انهضي للمساهمة في بناء المجتمع الجديد.. وبدأت التشكيلات الثورية في العمل.. فاجتازت المرأة الليبية العقبة.. وامتلكت ناصية العلم واقتحمت كل القطاعات.

يتذكر الرفاق رحلته التفقدية إلى الكفرة، وكيف كان الضباط والجنود يزيلون الرمل من الطريق.. الكفرة المطموسة في الرمال.. المستباحة من الدجالين.. المروية بدماء الشهداء.. صارت اليوم عاصمة المثلث المهمل.. ومنها أرغم الماء على الإبحار شمالاً في رحلة كأنها حكاية من الخيال العلمي، عبر الصحراء بطولها وعرضها في رحلات تاريخية مهدت لبناء شبكة فريدة من الطرق الحديثة وشبكات الكهرباء ليصل النور كل القرى مهما بعدت.. فالليبيون سواسية كأسنان المشط.. شعاره أن هذه معركة التحول الثوري المادي.. لن تسمح الثورة بأن يبقى في هذه الأرض إنسان معوز.. وهذه الثروة التي منّ بها الله على هذا الشعب العظيم عائدة له دون تأخير.. عندما كان يتحدث رآه البعض يقول أحلاماً لكن كل ما قال هو اليوم أمر واقع.

*****

في البيان

نعم يا سيد الثورة.. الثورة كحرف القاف في كلمة القرن والانقلاب كحرف القاف في الدقيقة يتكرر مرتين.. يفكر فيها الفلاسفة وينفذها الشجعان.. فما أعظمها، عندما يكون المفكر هو المنفذ.. وما أروع معانيها عندما تنحت أبجدياتها في الصخر نحتاً.. ذلك يوم تغيرت فيه الأشياء يوم تبدلت فيه كل المفاهيم.. الثورة تهدم الواقع الفاسد وتقيم بنيان المستقبل المشرق.. والانقلاب إنما يقلب نفس العملة على وجهيها.. تستبدل الواقع الفاسد بآخر ربما أكثر سوءا.

ظهر الفارس من بين الكثبان الرملية هناك في مبعث النور.. يحمل مشعله في ليل حالك السواد.. وعلى ضفاف المتوسط في ليلة يملؤها الضباب أخذ قرطاساً وكتب الحرف الأول.. اليوم يبدأ التغيير.. صار ذلك الفجر فجراً للحرية.. خرجت الناس فيه من ظلمة القهر والاستعباد.. تعالت أصواتها المنادية بالتغيير وإقامة العدل والمساواة.. وكان اللقاء العظيم في السادس عشر من شهر الفاتح.. والسادس عشر من الشهر العاشر.. قدم بياناً واضحاً أمام حشود جماهير بنغازي عند الضريح المنسي.

وفي طرابلس وفي ساحة الشهداء العظام.. كان التبيان الجامع الشامل.. الآن ينطلق الناس إلى النور.. لنضرب أعناق الجلادين والسجانين.. وندمر حصون القمع والظلم.. وليطرد أولئك الأوغاد القادمون من خلف البحار.. ليس لهم بين ظهرانينا مكان.. ولن يكون إلى الأبد.. أمام الضريح المهيب قال نحن امتداداً لحركة الجهاد.. جئنا للثأر ولحسم المعركة نهائياً ضد المستعمر.. ستكنس بقاياه من أرضنا دون تردد.. وفي ميدان الشهداء أوضح منهج الثورة.. الحرية والحرية والوحدة الوحدة.. لكنه شدد على أن العدالة بين الناس أساس الحرية والوحدة.. قال بلغة واضحة بينة لم يتسلل لها الخوف لن يكون للقوات المحتلة مكان في البلد المطهر بالثورة.

يومها عرف الناس أن بيان الفاتح فتحاً حقيقياً أمام الناس.. الثورة لم تكن رسماً بلا معنى.. بل كان أساس الصرح الأعظم في التاريخ.. ولم تكن حلماً جميلاً من باب التفاؤل.. بل كانت زلزال اليوم العظيم وكانت أمراً جللاً.

قصة صراع الخيمة والقصر لم تكن حكاية بلا مضمون.. الخيمة براح واسع للأيام القادمة.. والقصر في أحسن أحواله أحد قلاع القرون الوسطى.. في كل يوم تبدأ قصة جديدة.. ليس أبسطها بسط النفوذ على الأجواء.. وليس أعظمها تأميم النفط والمصارف الأجنبية.. لكنها تتابع منظم لمنهج تغيير جذري.. تكتمل فصوله واحدة تلو الأخرى في الشهر الأول والثاني.. كان المهم تأمين الثورة.. وفي الشهر الثالث بدأت معركة الجلاء تأخذ أبعاداً حقيقية.. تنادى الناس للتدريب على السلاح تحولت المدارس المحدودة وقتها إلى معاهد لإعداد المقاتلين.. راهن الأعداء على الصراعات القبلية القديمة.. وشيوخ القبائل المتخمين بأموال القصر الملكي توهموا أن لنفوذهم بقية قائمة.. بعض من أصحاب الرتب الكبرى توهموا أن الأمر لا يعدو أن يكون انقلاباً عادياً.. نجاح الثورة دون دماء أسال لعاب بعض الفاشيين.. دبروا الأمر بليل.. بضع شهور لم تمض حاولوا الإجهاز على المولود.. لكن الناس كانوا بالمرصاد.. زحفت الجموع إلى الثورة.. وكان العهد الذي تكرر لعقود.. سقط المنافقون في شر أعمالهم.. انضموا إلى أولئك الذين باعوا العهد.. وحاولوا عبثاً ليلة الأمر العظيم عرقلة المسيرة.. لكن العهد المباد المتخم بالفساد لم يسمع منهم... كانوا صم بكم... لعلها إرادة الله.. قبل أن تكتمل عدّة الأشهر الأربع كان الفرق بيّن.. هذه ثورة حقيقية سيكون لها شأن وأي شأن.. لم تكن انقلاباً ولا تقلباً لنظام فاسد لم يعرف أحد كيف جاء ومن أين كانت نشأته الأولى الملك المقدس ذهب مع الريح.. والحامي الذي لا يقهر جمع عدته ورحل.. والمرتزقة وأبواقهم وشهود الزور لم يجدوا كلمة تنبس بها أفواههم.

في ذلك اليوم بدأت الحكاية.. وكتب الحرف الأول في التاريخ الجديد إنه عصر الناس العاديين.. اليوم يصبح الشعب إلهاً.. اليوم لا سيد ولا مسود بل إخوة أحرار لا مهضوم ولا مغبون بل سادة في عليين.. لقد كان ذلك بيان واضح بأن الفاتح ثورة شعبية.. تفتح الطريق إلى عصر الجماهير.

*****

إرهاصات الثورة الشعبية

ما أعذب طعم الحرية.. تنفس الناس الصعداء.. منهم من عبر عنها بإمكانية اجتياز الأضواء الحمراء.. ومنهم من نسج النكت حول بوليس العهد المباد.. وآخرون توهموا أنها فرصة سانحة لنشر أفكارهم.. بعض الحزبيين خرجوا من تحت الأرض خيل لهم أنهم قد يملأون الفراغ السياسي الناتج عن سقوط النظام الملكي.. لكن الثورة ورغم انشغالها في معارك التحرير والبناء كانت ترصد الأحداث بعيون مفتوحة.. أطلقت حملة التوعية الشعبية... نظمت ندوة الفكر الثوري، التي أوضحت الهوية الفكرية المحددة للثورة العظيمة.. لقد ذهل المدلسون من السياسيين وهم يرون وضوح الرؤية وصدق النوايا.. قالوا في أنفسهم هذا ليس قلباً للواقع إنه تغيير خطير قادم في الأفق.

في الجامعات كان حواراً علنياً ساخناً يجري بين الطلاب.. شارك صانع الثورة فيه بتواجده المباشر.. بعض الطفيليين من السياسيين حاول أن يركب الموجة.. لكن هيجان البحر كان أعظم فلاطمتهم الأمواج وسقطوا تحت الأقدام.

تشرفت بالمشاركة في اللجنة التحضيرية لتأسيس الاتحاد العام لطلاب ليبيا.. الذي كان مطلباً ثورياً للدفع بالطلبة في معركة التحول.. مجموعات منظمة ذات توجهات فكرية تسللت إلى اللجنة في غفلة من الجموع الطلابية الثورية الواعية.. بعضهم توقع أن الفرصة سانحة لتأسيس منظمة معادية للثورة تحت غطاء الحركة الطلابية فبدأ بالدس والمراوغة.. هدفهم كان الإعداد لصدام مع الثورة لكنهم لم ينجحوا.. كان عائداً من رحلة نضالية من دمشق يحمل مشروع اتحاد الجمهوريات العربية بين مصر وسوريا وليبيا.. أساءه ما يطرحه البعض كان يعرف النوايا.. كان لقاءً ثورياً تاريخياً في معسكر البركة بعض أعضاء اللجنة التحضيرية لاتحاد الطلبة حاول تسطيح الأمور.. لكن الرد جاء حازماً.. يتحدث عن تجربة مريرة أثناء مسيرة العمل للإعداد السري للثورة اتصل بكل الأحزاب المعروفة وقتها.. لم يلق منها سوى محاولات بائسة لاستقطابه إليها.. كانوا مشغولين عن التغيير وغير مهتمين بالتحرير.. بعضهم يرى في فساد النظام وبقاء القواعد فرصة جيدة.. لبقاء الحزب سيان تحت الأرض أو فوقها.

استمرت اللجنة التحضيرية في العمل لعدّة سنوات لم يكن الحوار حول اللائحة التنظيمية، بل كان حواراً فكرياً حول الأهداف والوسائل والغايات.. حاول البعض تحريض الطلبة للتظاهر لكن الفشل كان المآب.. واستمر الجدل إلى سنين إلى أن حسم الأمر بثورة الطلاب التاريخية في السابع من أبريل.

لقد كانت ثورة في كل الجبهات وكانت معركة حامية الوطيس.. التحرير.. رفع مستوى معيشة الأفراد.. التنمية.. المساهمة في معركة الأمة.. معاداة الاستعمار.. لم تمض سوى سنين قليلة حتى تحولت ليبيا النسي المنسي إلى قبلة الثوار والأحرار.. وتأكد أن جمال عبد الناصر كان محقاً عندما قال إن معمر القذافي هو الأمين على القومية العربية والوحدة العربية والثورة العربية، ولعله نسي الثورة العالمية.. لكن المهمة الأولى كانت العمل على إحداث تحول تاريخي في النظام السياسي في ليبيا، والبحث في آليات جديدة لتنظيم الشعب وتمكينه من السيطرة المطلقة على مقاليد أموره.. فبدأ الحوار السياسي المعمق مع مختلف الفئات الشعبية حول الأسلوب المناسب للدفع بالجماهير في المسيرة الثورية.. في لقاء مع جماهير طلاب الجامعة في المدينة الرياضية ببنغازي.. آلاف الطلاب.. كان حواراً حقيقياً.. استمع إلى وجهات النظر المختلفة.. لكن بعضهم حاول طرح المفاهيم القديمة.. بدأ البعض بالمزايدة.. حوار حول سلطة الثورة.. والوحدة القومية.. البعض انتقد استعارة تجربة الاتحاد الاشتراكي.. جاء الرد الواضح.. أعلن أنه سيقود ثورة بالعمال والفلاحين.

عندما وقف في مدينة زوراه في ذكرى المولد.. تحدث عن الوحدة وضرورتها والمقاومة وأهميتها.. وأنها أساس المشروع الثوري لأن تحرير الأرض العربية وبناء الدولة القومية هو هدف حركة الوحدويين الأحرار منذ تأسيسها في مدينة الشرارة في وسط الصحراء الكبرى.

لكن المفاجأة الكبرى كانت إعلان الثورة الشعبية والثورة الثقافية التي أسقطت أوراق القوى المعادية للثورة وضربت كل مشروعاتها وخططها وأجهضت مؤامراتها.. زحف الناس العاديين في المدن والقرى والأرياف يسقطون بقايا سلطان الحكومة.. في طرابلس زحف الفلاحون على قطاع الزراعة.. عينوا فلاحاً أمياً لإدارة القطاع في طرابلس.. حاول بعضهم بحجة أن الثورة عملية منظمة أن يمنعه عن منصبه.. لكن أمين لجنة الزراعة الجديد كان من الوعي والنصاحة والفصاحة بحيث تمكن أن يتجاوز كل المخططات لإزاحته عن اللجنة.. اتصل به أحد أعضاء مجلس

القيادة آنذاك.. أبلغه أن القيادة تطلب منه الخروج من أمانة الزراعة كان رده واضحاً.. يا أخي.. أقدم لك احترامي لكنك تسلك الطريق الصعب.. هناك وسيلة سهلة لإخراجي من القطاع.. قال العضو ما هي.. قال تذهب إلى القائد وتقنعه بوجهة نظرك.. وتطلب منه أن يذهب إلى زواره ويلقي خطاباً جديداً ويقول فيه على الفلاحين عدم الزحف على الزراعة عندها سأمتثل للأمر فوراً.. هذه الحادثة حقيقية.. لكنها صارت نكته يتداولها الناس خاصة في منطقة الجفارة.. وهي أيضاً تعني أن الناس تعرف جيداً ثورتها منذ البداية..

*****

لقطار فوكه رأي آخر

كان طلاب كلية القانون في الجامعة السبّاقون إلى الزحف الشعبي على إدارة الكلية وتشكيل لجنة شعبية طلابية لإدارتها.. ربما يكمن السبب في أن عميد الكلية آنذاك كان يديرها على طريقة إدارة مدرسة ثانوية عُليا.. كان هم الطلاب في ذلك الوقت هو الالتحام بالجماهير.. وإيجاد علاقة حقيقية بين الجامعة ومؤسسات المجتمع المختلفة.. بعض أعضاء اللجنة الشعبية التي تشكلت بعد الزحف الطلابي نادوا بأن يبدأ العمل الثوري بالنزول إلى الميدان.. قررت اللجنة الشعبية للكلية تنظيم حملة للمشاركة في الأعمال التنموية العملاقة.. قرروا إيقاف الدراسة والانخراط في ميادين العمل.. زحف الطلاب على الميناء والمصانع في محاولة ثورية بسيطة وربما غير مدروسة ومحسوبة جيداً.

في كلية الآداب كان الأمر مختلفاً.. كان عدد أعضاء اللجنة الشعبية الطلابية أكبر عدداً بالنظر لإصرار كل الأقسام بضرورة المشاركة في اللجنة.. رأت اللجنة أن العمل ينبغي أن ينصب على تطوير المناهج وتغير ظروف الدراسة.

في بقية الكليات توالت الزحوف الطلابية.. وتشكلت اللجان الشعبية بها.. وهكذا كانت ثورة طلابية حقيقية لكن القائد تخوف من تسطيح فكرة الثورة الشعبية، الأمر الذي دعاه إلى اللقاء المباشر والمفتوح مع طلبة وأعضاء هيئة التدريس بكل الكليات في الجامعة... كان حواراً عميقاً وثورياً حول الثورة الثقافية ودور الجامعة.. تطوع بعض الطلاب وأنا منهم بالعمل على توعية الجماهير بماهية الثورة الشعبية.. أهدافها.. أبعادها الحقيقية.. كانت الجماهير تتدافع في زحوفها على كافة المواقع.. القطاعات.. المحلات المحافظات.. كانت مناسبة للتواصل مع القيادات الشعبية الثورية التي تفرزها الجماهير بشكل تلقائي.. آلاف الناس صاروا أعضاء في اللجان الشعبية، تلك القيادات كانت أهم اللبنات في البناء الثوري الذي أدى إلى قيام سلطة الشعب.

في شهر الصيف 1973 وجه القائد نداء بالزحف على الإذاعة والسيطرة عليها وتسخيرها لخدمة الثورة الشعبية.. كانت أياماً مجيدة، زحف الطلاب على فرع الإذاعة في بنغازي، وتشكلت لجنة شعبية في مقر الإذاعة الرئيسة في طرابلس.. كان لابد من تغيير الخطاب الإعلامي.. ليعكس مرحلة الثورة الشعبية وما تتضمنه من ثورة ثقافية، ولأن الوحدة كانت الهدف الأساسي للثورة تصاعد الخطاب القومي في الإذاعة.

في منتصف الليل تم توجيه برنامج مباشر على الهواء سمى صفحات على طريق الثورة العربية.. تطور ليصبح فيما بعد إذاعة صوت الوطن العربي.. كان برنامجاً تعبوياً تحريضياً فضح ما يحاك من مؤامرات ضد الأمة.. ونبه إلى المخاطر التي تواجهها.

في أحد الليالي جرى حوار جريء معمق وهادف بين القوة الثورية من الطلاب.. حول الآلية المناسبة لتحويل البرنامج التعبوي المؤقت إلى عمل طويل المدى، وجاءت فكرة معسكرات الإعداد السياسي حتى يتم رفع حالة الوعي لدى اللجان الشعبية لكي تتمكن من تأسيس إدارة شعبية وفقاً لمنهج الثورة..

في الفترة من شهر الطير 1973 إلى شهر ناصر من نفس السنة كان زخماً شعبياً منقطع النظير.. وكانت أعمال ثورية شعبية حقيقية تجري على الأرض تتركز على التحريض لتصعيد الثورة الشعبية والسيطرة على كل المؤسسات.. ورفع الوعي السياسي بأهداف الثورة خاصة في موضوعات الديمقراطية والوحدة.. وتوج العمل بالدعوة إلى مسيرة شعبية حاشدة تنطلق من رأس جدير إلى مصر للضغط على النظام المصري بضرورة الالتزام بإنجاز الوحدة بين ليبيا ومصر من جانب وتطوير اتحاد الجمهوريات العربية من جانب آخر... لكن قطار فوكه كان له رأي آخر.

*****

معارك على كل الجبهات

كان لضرورة حسم المعركة في الجامعة لمصلحة الثورة أهمية بالغة في تصعيد الثورة الشعبية للوصول إلى هدفها الأهم وهو إقامة سلطة الشعب.. بعض الحزبيين حاولوا عرقلة المسيرة الشعبية في الجامعة بالالتفاف على فكرة اللجان الشعبية وتسطيحها والمضي في تكوين منظمات سياسية لمواجهة مشروع الثورة تحت عباءة الاتحاد الطلابي.. لكن قوة الثورة من الطلاب كانت منتبه لذلك.. فوقع الصدام الأول بين بقايا اليمين والطلاب الثوريين.. فكان اللقاء التاريخي مع الجماهير الطلابية في مجمع عكاشة في طرابلس الذي خط فيه القائد منهج الثورة الطلابية.. وصارت كلمته الشاملة بيان لها... أساسه أن الدراسة ليست غاية في حد ذاتها إنها الغاية خلق الإنسان الجديد الحر.. شتان بين الخبرة والحرية.. الأولى ثمنها نقود والثانية ثمنها دم.. أعلن في ذلك اليوم عن بداية الزحوف الطلابية للسيطرة الفعلية على الجامعات وتحويلها إلى قلاع ثورية تخدم المجتمع.. وكان له ما أراد.. زحف الطلاب على الكليات وتشكلت اللجان الشعبية بها وتكونت اللجنة الشعبية الطلابية للجامعة.. واندفعت الجماهير الطلابية للتدريب العسكري العام في إطار برنامج التعبئة الشاملة لتأمين الثورة والمساهمة في معركة الأمة.. كان الطلاب غافلون على أن بعض الفاشيين كانوا يدبرون مكيدة لتقويض الثورة الشعبية.. استغلوا حماس الطلاب وإقبالهم على التدريب لزرع التذمر في نفوسهم باتباع أساليب قاسية ووحشية في بعض الأحيان أثناء التدريب.. لكن الطلاب تحملوا وصبروا.. وربما ساهموا في كشف المؤامرة ووأدها في مهدها... وفي هذا الزخم الثوري الطلابي.. كان المتطوعون العرب من أجل حرب التحرير الشعبية يتوافدون على ليبيا للانخراط في معسكرات التدريب استجابة لدعوة القائد إلى قومية المعركة وقومية العمل الفدائي.. فتحت معسكرات تدريب حركات التحرر من كل دول أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا.. توافد كوادر المؤتمر الوطني في جنوب إفريقيا وحركة سابوا وزانو وحركة تحرير ناميبيا وثوار الكونغو.. إضافة إلى ثوار الجبهة السنديانية وحركة فارابوندو مارتي وثوار كولومبيا وبوليفيا وتشيلي جنباً إلى جنب مع حركات التحرر في الفلبين وتايلاند وثوار ألفيت كونغ وغيرهم.. لقد صارت ليبيا في بضع سنوات قبلة لكل الثوريين وأصبحت مقراً لعمليات التدريب والإعداد لكافة قادة وكوادر حركات التحرر على أرضها..

اختلطت الأعراق واللغات والديانات تحت هدف واحد وهو مقاومة الاستعمار والدكتاتورية.. كان لشعار أن قضية الحرية لا تتجزأ الذي رفعه القائد وقعاً مهماً في الدفع بتلك الحركات إلى الأمام.. في نفس الوقت وبنفس القدر والحماس كانت الدعوة للصحوة الإسلامية... تقاطر العلماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي لتبني المشروع النهضوي الجديد تحت شعار إسلام بلا مذاهب.. وتأسست جمعية الدعوة الإسلامية التي نظمت برامج دعوية جادة على المستوى العالمي بتسخير عوائد ضريبة الجهاد التي فرضت على كل الليبيين باعتباره فرض عين على كل مسلم ومسلمة فمن لا يجاهد بدمائه فبماله حتى لا يضطر المرء إلى الجهاد بأضعف الإيمان..

لقد كانت تلك الأيام المجيدة مليئة بأحداث تمتزج فيها عمليات ترسيخ المشروع الثوري في ليبيا بالعمل من أجل انتصار حركات التحرر العالمي مع الدعوة إلى نهضة إسلامية شاملة دون تجاوز الأهمية القصوى لبناء الكيان القومي للأمة الواحدة مع الدعوة إلى حوار جاد للتقريب بين الأديان التي رأت النور لأول مرة بعد قرون من الصراع والدماء فكان الحوار الإسلامي المسيحي وإن لم يحقق أهدافه كاملة إلا أنه كان بداية جادة لتأسيس علاقات تعايش سلمي بين الأفراد والمجتمعات.. وانطلق حوار مع الاتجاهات التقدمية الإنسانية في أوروبا على قاعدة الثوابت القومية والدينية.. فكان الحوار مع الديغوليين باعتبارهم حركة تحرر أوروبية وتقديراً لمواقف ديغول وبومبيدو المؤيدة لقضايا التحرر في العالم.. وكان الحوار مع دول المنظومة الاشتراكية سابقاً في إطار الاحترام التام والمساواة.. دون تجاوز منظمة عدم الانحياز التي حرصت الثورة على إعادة تنظيمها وتعبئتها كمنظومة غير منحازة للشرق ولا للغرب وإبعادها عن شراك الدول الكبرى ومصالحها المتناقضة وطرحها كبديل كوني للثنائية القطبية التي كانت سائدة في ذلك الوقت.. من خلال فهم جديد لفكرة الحياد الإيجابي على أساس لا شرقية ولا غربية.

بالفعل كانت أياما معدودات من عمر الثورة لكن دورها على الأصعدة كافة كان كافياً ليعطيها بعداً قومياً وإنسانيا... التنمية.. التعليم.. الثورة الاجتماعية، الثورة الثقافية.. حركة التحرر العربي.. العمل الوحدوي.. حركة التحرر الإفريقي.. حركة التحرر العالمي.. تجديد حركة عدم الانحياز.. صيغ جديدة للعلاقات مع الدول الكبرى عنوانها نصادق من يصادقنا ونعادي من يعادينا.. ومعاملة الند للند والاحترام المتبادل.. كلها عمليات ثورية معقدة تحتاج إلى أزمنة طويلة لإنجازها.. لكنها تتم بالتوازي وفي نفس الوقت وبنفس الحماس والجدية.. كلها على نفس الدرجة

من الأولوية والأهمية لا تقدم إحداهما على الأخرى.. معارك الوحدة والإحباطات التي واكبتها وحدها تحتاج إلى جهود ثورية خارقة.. فما بالك إذ اقترن ذلك بتدريب وإعداد وتأهيل كل حركات التحرر من تشيلي والسلفادور إلى فطاني ولاوس ومن جنوب إفريقيا إلى جزر الرأس الأخضر.. ومن معركة تحرير الساقية ووادي الذهب التي هي أحد العلامات الخاصة بالقائد معمر القذافي إلى إعادة دمج موريتانيا في المنظومة العربية إلى معارك حضر موت وعدن لتحريرها إلى وحدة الإمارات العربية ووحدة اليمن دون التنازل عن المطالبة المشروعة بسبتة ومليلة ولواء الإسكندرية.. إلى المعارك السياسية والإعلامية مع شاه إيران وطغيانه في الخليج ومواجهة سطوة سوموزا في نيكاراجوا ودعم سلفادور الليندي في تشيلي..

إن نظرة معمقة في خارطة تلك المعارك تبين حقيقة الأحداث التي بدأت في الفاتح العظيم وتوضح معانيه وتبين رسالته..

*****

في التنمية

من أهم أهداف البرنامج التنموي إخراج الليبيين من حالة البؤس التي يعيشونها.. فكانت الأولويات التي فرضت نفسها.. زيادة الحد الأدنى للأجور.. وتحريم الإتجار في اليد العاملة أولى القرارات التي صدرت في الأيام الأولى، لكن الناس يحتاجون إلى كل شيء.. الأغلبية الساحقة من سكان المدن وكل سكان القرى يقطنون أكواخ الصفيح.. وكل سكان البوادي والأرياف يقطنون الخيام.

صدر الأمر الثوري لبناء مساكن صحية لإيواء كل المواطنين في كل مكان خلال عدد قليل من الشهور، شهدت ليبيا بناء عشرات الآلاف من المساكن الحديثة، سلمت مجاناً للمواطنين.. وملكت آلاف المساكن لمستأجريها دون مقابل.. ورصدت الأموال لمنح القروض طويلة الأجل المعفية بالكامل من الفوائد لغرض بناء المساكن وتأسيس مصرف خاص لذلك.. فقط بعد بضع سنين قليلة من الفجر العظيم تم إحراق آخر كوخ في ليبيا.

يوم الفاتح كان جل الليبيين لا يستطعون الالتحاق بالتعليم.. كل البنات تقريباً محرومات من الدراسة.. ومعظم الأولاد بالكاد يكملون الصفوف الأولى من التعليم الابتدائي، قلة هم من تمكنهم الظروف من استكمال التعليم المتوسط والعالي.. فصدر قانون إلزامية التعليم الأساسي كأحد أهم إنجازات الثورة منذ أيامها الأولى.. وما ترتب عليه من بناء آلاف المدارس والمعاهد.. وإعداد المعلمين.

لقد كانت الخدمات الصحية معدومة وتقدم فقط للأجانب من بقايا المستعمرين الفاشيست والمحتلين الجدد وبعض الليبيين الميسورين من رجالات العهد المباد.. صدر القانون الصحي والذي يعتبر إلى اليوم مفخرة لكل الليبيين والليبيات.. حيث ساوى بين جميع الناس في الحياة والمرض..

وفرض التطعيمات والتحصينات.. وحقق العلاج المجاني للجميع.. وبنيت المراكز والمستشفيات.. فتحت المعاهد الصحية والكليات وجيء بالخبراء الأطباء من كل مكان، ثم كانت الثورة في بناء الطرق والكهرباء والاتصال وغيرها.

إنها مرحلة التنمية الشاملة والمستدامة في كل القطاعات الإنتاجية والخدمية، لكن الهم القومي كان حاضراً دائماً.. فالثورة تعي أنه لا يمكن تنمية جزء مفصول من الأمة.. ولا يمكن تحقيق الاكتفاء الذاتي وضمان حياة كريمة للأفراد وأن التنمية الحقيقية هي التنمية القومية.. فطرحت مشروعات جادة وجدية للتكامل الاقتصادي بين الدول العربية على اختلافها.

وبالرغم من أنها لم تحقق كامل أهدافها المرجوة إلا أنها كانت ولا زالت خطوات مهمة يمكن أن يبنى عليها.

واستناداً إلى أن التنمية المستدامة لابد وأن تنطلق من بناء الإنسان.. فكان أحد أهم الإنجازات التنموية على المستوى القومي هو تأسيس معهد الإنماء العربي لتحقيق عدة أهداف.

أولها: استقطاب العلماء العرب المهاجرين الذين أغواهم المستعمر وسخرهم لخدمة أهدافه وامتص عرقهم وجهدهم وعزلهم عن أهلهم وأمتهم.. ومن ثم إعادتهم إلى وطنهم والاستفادة من خبرتهم.. وتوفير المناخ العلمي والإداري المناسب لهم لتطوير البحث العلمي لأنه الوسيلة الوحيدة لتحقيق النهضة العلمية الحقيقية.

وثانيها: المساهمة في توفير العلوم داخل الوطن العربي من خلال برامج علمية لترجمة المعارف المختلفة والمساعدة في حركة التأليف والنشر.. أسس المعهد عدداً من الفروع ورصدت له الإمكانات المادية المناسبة.. وأنجز بعض من أعماله وساهم في تعريب كثير من العلوم الإنسانية والتطبيقية في الجامعات العربية.. وبالرغم من أن المعهد لم ينجح في تجاوز التدخلات السياسة في أعماله ومحاربته من قبل قصيري النظر من الانعزاليين والإقليميين إلا أنه كان خطوة هامة أنجزت في هذا المجال تسجل شخصياً لقائد الثورة.

ولم تتوقف محاولات التنمية القومية الشاملة، بل طرحت آليات لتجاوز العقبات التي واجهت إنجاز الوحدة وبناء الدولة القومية فطرحت الثورة مشروعات اقتصادية تنموية ثنائية ومتعددة الأطراف مع كل الدول العربية تقريباً لبناء اقتصاد عربي قادر على المنافسة.. وقدمت التسهيلات الكافية لتطوير حركة التجارة مع الدول العربية فأعفيت منتجات أغلب الدول العربية من الضرائب والتعريفات الجمركية.. وتأسست شركات الإنتاج والخدمات المشتركة.. الهدف كان دائماً تسخير الثروات العربية الهائلة لمصلحة المواطنين العرب ولتحقيق أهداف الأمة ولرفع حالة المعاناة عن الفقراء فيها والبحث عن آلية مناسبة لاستثمار الموارد العربية في الوطن العربي.. وإنجاز التقدم العلمي وإفساح المجال أمام الجميع للمشاركة في التنمية.

ومن نافلة القول أن تلك البرامج التنموية المحلية والقومية حققت في مجملها أهدافها.. فليبيا اليوم كنتيجة طبيعية لتلك البرامج التنموية تختلف جذرياً عن ليبيا الأمس، فلا يوجد ليبي دون مسكن صحي لائق، ولا يوجد ليبي محروم من التعلم بسبب عدم توفر الإمكانيات.. الكماليات لدى الشعوب الأخرى صارت ضروريات بالنسبة للمواطنين الليبيين كاقتناء السيارة والثلاجة والأثاث وغيرها.

ولعل المؤشر الأهم لنجاح التنمية في ليبيا هو ارتفاع متوسط الأعمار في ليبيا من 38 سنة عام 1969 إلى 72 سنة عام 2010 وهو مساوٍ لمعدل الأعمار في الدول المتقدمة.. وارتفاع مستوى المعيشة.. ونوعية الغذاء واللباس.. والحصول على الخدمات بالقدر والوقت المناسب.. عندما تراقب الناس في الأسواق وتراهم في الشوارع.. وعندما تجلس في أفراحهم ومناسباتهم الاجتماعية وتقارنها بالحال قبل والآن فإن الفرق سيكون بيناً جلياً، لقد نجحت الثورة في زرع المساواة بين الناس.. الكل يريد نفس مستوى الحياة.. نفس حجم وشكل المنزل.. نفس المركوب نفس الخدمات.. كلها درجة ممتازة.. بالتأكيد ذلك يفرض التزامات كبيرة على التنمية ويتطلب تسخير موارد أكبر.. لكن التنمية هي تحقق العدالة والقضاء على الظلم والضيم والتفاوت.. إنها الطريقة الأكثر ضماناً للقضاء على الطبقية.. واستخدام متساوٍ وعادل للإمكانات المتاحة في إطار إتاحة الفرص المتساوية للجميع.. أن ينتقل مجتمع بكامله في وقت قصير بنفس الدرجة تقريباً من حالة الفقر والبؤس إلى حالة الرفاهية والرخاء هذا أمر بكل المقاييس عظيم.

آليات مبتكرة للتثقيف

السؤال الأهم كان دائماً في البحث عن آلية لتنظيم الشعب ليتمكن الأفراد من ممارسة السيادة على مقدراتهم بحرية تامة.. الصيغة الأقرب كانت تبني فكرة الاتحاد الاشتراكي العربي التي كانت محل توافق أثناء مناقشات ندوة الفكر الثوري والتي تعرضت إلى موضوعات أساسية أخرى وحددت الموقف الفكري الذي تستند إليه الثورة ومستوى الوعي بالقضايا المطروحة لدى القائد، فلقد كان مجرد طرح السؤال حول مشكلة الديمقراطية في مرحلة التحول الثوري.. والتنظيم الشعبي وعاءه يعني الكثير.. ولقد بينت أيضا مدى سطحية كثير ممن يدّعون الوعي والمعرفة من بين المجموعات الحزبية.. وأظهرت حقيقتهم... وكشفت صمتهم على معاناة الشعب وهيمنة الشركات والسفارات والقواعد أيام العهد المباد.

ومن النتائج المهمة لذلك الحوار المطول هو انطلاق لجان التوعية الشعبية لتوسيع قاعدة النقاش لتصل الأفكار المطروحة إلى الجماهير وتعمل على تحريضها للاستعداد للمرحلة الأهم من الثورة وهي الثورة الشعبية.

بالتأكيد ساهمت تجربة الاتحاد الاشتراكي في إعداد المواطنين للمساهمة الواعية في إدارة الدولة ومكنت من إفراز قيادات شعبية ثورية حقيقية من بين الجماهير.

ولقد كان المؤتمر الوطني العام يمثل مدرسة لتعليم أساسيات الممارسة الديمقراطية المباشرة.. بدءا من الأمور البسيطة ككيفية طلب الحديث ونقطة النظام والتعقيب والسؤال وما إليها.. إلى الاستماع للآخرين وترتيب الأفكار.. وساعدت أيضا في تسهيل إجراءات الانتقال من سلطة الثورة إلى سلطة الشعب، بتحويل وحدات الاتحاد الاشتراكي إلى مؤتمرات شعبية أساسية.. وتحويل المؤتمر الوطني إلى مؤتمر للشعب العام..

وبالنظر إلى الحالة السائدة في العالم آنذاك والتي كانت تتسم بالدكتاتورية فلم يكن من السهل في ذلك الوقت الحديث عن الديمقراطية المباشرة دون مقدمات ثورية تقحم خلالها الجماهير في عمليات سياسية لتتعلم بالممارسة الديمقراطية.. ودون برامج حوارية وتسيسية على نطاق واسع تمكن من رفع حالة الوعي لدى الناس.

السنوات الأولى من عمر الثورة كانت ساعات حوار دائم في كل المستويات وفي كل الأمكنة في المدن والقرى والأرياف.. بهدف رفع الوعي الثوري والسياسي لدى الجماهير.

كان اللقاء المباشر والمناقشة الحرّة هو الوسيلة الأجدى، بالرغم من انهماك الثورة في البرامج التنموية الشاملة التي كانت تستنزف جهداً ووقتاً.. إلا أن القائد استقطع أوقاتاً ثمينة جداً وبذل جهوداً مضنية في عمليات التوعية والتثقيف السياسي، وساهم مباشرة فيها.. وكان يرعى كل مراحل الحوار ليطمئن على تحقيق الهدف وهو توعية الجماهير.. فانتظمت الدورات التسيسية للقيادات والفعاليات الشعبية التي أفرزتها مرحلة الاتحاد الاشتراكي العربي.. وأقيمت المعسكرات التثقيفية لطلاب الجامعات والمدارس والمعاهد.. كانت كل الموضوعات تطرح مجردة تتركز حول آليات إقامة الوحدة العربية، وأسس تطبيق الديمقراطية وقواعد إقامة مجتمع العدل والمساواة.. كان برنامج التثقيف في المعسكرات يبدأ بمحاضرات لتقديم تلك الموضوعات تعقبها حلقات نقاش مطولة حولها.. فتأسست مدرسة جديدة في الإعداد الفكري... التثقيف من خلال المناقشة.. أي اشتراك المستهدفين بالتوعية في عمليات التثقيف.. واستبعدت أسلوب التلقين والتعليم المتبع في برامج إعداد الكوادر في دول العالم الأخرى، وكان من أهم إيجابياتها إفراز كوادر ثورية قادرة على الحوار والنقاش مع القوى السياسية المختلفة ساهمت في قيادة مرحلة الثورة الشعبية لاحقاً وانتصرت في إدارة المعارك التي فرضت على الثورة..

في ذلك الوقت كانت الماركسية في أوجها وتمكنت من فرض تقاليدها وآليات عملها على كل حركات التحرر في العالم تقريباً.. فالمنهج اللينيني في الإعداد والتثقيف والتعبئة هو المنهج المعتمد لدى تلك الحركات.. نفذ بانضباطية تامة أوهمت القائمون عليه بأنهم نجحوا في إعداد كوادر لا يتزعزع إيمانها بأفكارها مهما كانت المتغيرات، لكن أحلامهم تلك تبخرت مع الريح مع السقوط

المريع للماركسية الذي لم يخطر على بال أولئك في ذلك الوقت.. وتلاشت في لمح البصر تلك الكوادر المعدّة بإتقان.. بل تحول أغلبها إلى دعاة إلى الليبرالية والنظام العالمي الجديد.. ربما يكمن السبب في أسلوب الإعداد حيث دربوا ليكونوا دائماً أدواة في إطار حلقة تدور حول مركز ما.. فإذا سقط المركز واندثرت جاذبيته فإنها تتلاشى.. أو تجد لنفسها مداراً جديداً حول مركز آخر.

في ذلك الوقت كانت أوروبا أيضاً ترزح كلها تقريباً تحت أنظمة دكتاتورية مطلقة.. بعض أرجائها كان خاضعاً لسيطرة الدكتاتورية الفاشية التي يمثلها سالازار وفرانكو.. فلم تكن هناك فرصة سانحة في أوروبا لطرح الرؤى الفكرية والعقائدية في السنوات الأولى اللاحقة للحرب التدميرية الكونية.. وفي المراحل الأولى لبداية تراجع سلطة الاستعمار وانطلاق حركة التحرر الوطني ونجاحها في تحرير عدد كبير من بلدانها من قبضة الدول المستعمرة.. في ذلك الوقت المبكر طرحت الثورة آليات مبتكرة للتثقيف والبناء الفكري تختلف عن الأنماط السائدة في الشرق والغرب.. ذلك يعطي قيمة حقيقية للحدث الهام الذي وقع يوم فجر الفاتح من سبتمبر.. إنه ثورة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. ثورة تنظر للأشياء من خلال منظار كلي وليس جزئي فهي تتعامل مع كل الأمور بطريقة ثورية جديدة..

لقد أدى كل ذلك إلى التحول من حالة التخلف والفقر والتبعية والارتهان للأجنبي والأمية إلى حالة المشاركة المباشرة والفاعلة في إدارة شئون الدولة.. أي تحولت تلك البقعة من العالم التي كانت في خانة النسيان إلى الجماهيرية.. وتوليها عن جدارة قيادة حركة التحرر العالمية.. ونجاحها في طرح نظرية عالمية ستتشكل وفقها الخارطة السياسة والاقتصادية والاجتماعية في الكرة الأرضية عاجلاً أم آجلاً.

*****

اللجان الثورية

اللجان الثورية هي الإطار السياسي والعملي للثورة الجماهيرية، تتشكل من الأفراد الذين، يكتشفون عن طريق الكتاب الأخضر زيف الأنظمة السياسية السائدة وفساد النظم الاقتصادية والاجتماعية المفروضة على البشرية.. فيتنادى أولئك الأفراد المؤمنون إلى بعضهم البعض لتشكيل لجان ثورية تتولى مهمة توعية الجماهير وتثقيفها وتحريضها على إقامة النظام الديمقراطي الحقيقي وبناء الاشتراكية التي تمكن جميع الأفراد من الاستغلال المتساوي للموارد الطبيعية وفقاً لقدراتهم وجهودهم، وتأسيس علاقات اجتماعية قائمة على العدل والاحترام التام للأفراد والمجموعات من الأسرة إلى الأمة.

حركة اللجان الثورية تهدف إلى إقامة سلطة الشعب والاشتراكية الشعبية، فهي تختلف جذرياً عن كل الحركات والتنظيمات السياسية المعروفة في كونها لا تسعى إلى الوصول إلى السلطة لتحقيق التغيير، بل تعمل على تمكين الجماهير من السلطة ومن ثم تحريضها على التمسك بها والدفاع عنها، وترشيدها لإقامة علاقات متوازنة بين الأفراد تضمن وتحفظ لكل فرد من المجتمع مصالحه وحقوقه وتحدد واجباته .

وتتشكل حركة اللجان الثورية وفق الأسس الآتية:

التنادي: تتكون حركة اللجان الثورية من المؤمنين بالنظرية الجماهيرية.. الذين يتنادون إلى بعضهم البعض وهذا يعني المساواة في العضوية، إذ لا يوجد مركز يستقطب آخرين حوله لتشكيل منظمة سياسية، بل مجموعة مراكز يتجاذبون إلى بعضهم البعض، فهي حركة فردية بكل ما تعني الكلمة من معنى، لها قوة الفرد من حيث حرية التفكير والإبداع والخلق والبحث عن آليات العمل، وهي حركة جماعية في نفس الوقت.

لا ثوري بدون فقه ثوري: لا يمكن من الأساس الانضمام لعضوية حركة اللجان الثورية لغير المثقفين ثورياً، ذلك أن الإيمان بالنظرية الجماهيرية هو قاعدة التنادي إلى الحركة والإيمان يتطلب الوعي بالنظرية وفهمها والتعمق فيها.. أي أنها حركة للمثقفين الثوريين.

الجماعية: مع أن الحركة فردية في الأساس إلا أن العمل الفردي يبقى عملاً انتحارياً يائساً لا يقدم شيئاً إلى المشروع الجماهيري.. فلكي يحدث الفعل الثوري يتنادى الثوريون إلى بعضهم البعض ليشكلوا جماعة ثورية تعمل معاً.. في داخل اللجنة الثورية تعد الخطط وبرامج العمل اليومية والأسبوعية والسنوية.. ثم ينطلق كل عضو إلى وسط الجماهير لتثقيفهم ببرامج العمل بالطريقة التي اتفق عليها، وتتولى اللجنة الثورية مجتمعة متابعة العمل وتقييمه..

أي أن اللجان الثورية لها قوة الجماعة من حيث التفكير والتخطيط والمتابعة، فهي حركة فردية لكنها جماعية في نفس الوقت.

اللجان الثورية حركة قاعدية: إن الأفراد المؤمنون بالنظرية الجماهيرية متواجدون داخل أوساطهم الجماهيرية يعملون من خلالها إلى إقامة نظام سلطة الشعب والاشتراكية الشعبية يلتقون في اللجنة الثورية لوضع الخطط والبرامج ولمتابعة تنفيذها.. وقد تلتقي مجموعة لجان ثورية مع بعضها البعض لتنفيذ بعض المهام الثورية على نطاق جغرافي أوسع، أي أن حركة اللجان الثورية ليست تنظيماً هرمياً به قمة وقاعدة.. رؤساء ومرؤوسين كما هو حال المنظمات السياسية الأخرى المعروفة.

مهام اللجان الثورية: على خلاف جل التنظيمات السياسية المعروفة والسائدة اليوم فإن مهام حركة اللجان الثورية واضحة ومحددة بشكل دقيق بما ينسجم مع هدفها الأساسي، وهو إيصال الجماهير إلى السلطة وليس الحكم نيابة عنها.. إنها لا تدعي القدرة على إدارة شئون الجماهير لكنها تؤمن بأن الجماهير وحدها قادرة على إدارة شئونها وتدبير أمورها بنفسها.

لذلك فإن مهامها تنحصر في العمل على دفع الجماهير لممارسة السلطة مباشرة دون نيابة وتمثيل.. تنحصر في الآتي:

- ترسيخ السلطة الشعبية.
- تحريض الجماهير على ممارسة السلطة.
- تحريك الجماهير لممارسة السلطة.
- ترشيد أمانات المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية .
- الدفاع عن السلطة الشعبية والدعاية لها.

وهي أداة الثورة الشعبية: إذ من المؤكد أن وصول الجماهير إلى السلطة لن يكون عملية تلقائية سهلة، لأن أدوات الحكم لن تتنازل بمحض إرادتها عن سيطرتها على الجماهير.. والطريق الوحيد هو تفجر الثورة الشعبية وتكوين المؤتمرات الشعبية.. فاللجان الثورية هي المحرض على تفجير الثورة الشعبية، وهي التي تقودها وتدفعها إلى نهاياتها الطبيعية، وهي إقامة نظام سلطة الشعب.. وعندما يتأسس النظام الجماهيري القائم على أساس السلطة والثروة والسلاح بيد الشعب تبدأ مهمة اللجان الثورية وهي تحريض الجماهير على ممارسة السلطة.. والعمل على ترسيخها بحيث لن يكون بالإمكان اغتصابها لمصلحة القلة.. وتحريك الجماهير للمساهمة الفاعلة من خلال مؤسسات وآليات السلطة الشعبية المختلفة.. **كما تتولى:**

ترشيد أمانات المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية للتأكد من دورها الذي سيكون إدارياً وتنفيذياً فقط.. وأن لا تمارس واجباتها خصماً من سلطة الشعب.. وعند الضرورة فإن اللجان الثورية تتولى مهمة الدفاع عن النظام الجماهيري وحمايته والدعاية له والدعوة من أجله.

ولأن اللجان الثورية تتشكل تلقائياً بتنادي المؤمنون بالفكر الجماهيري إلى بعضهم البعض، فهي ليست كالحركات والمنظمات الأخرى التي تمارس أنواعاً مختلفة من المركزية سواء في التنظيم أو

أثناء عمليات التنفيذ، ومن هنا فإن اللجان الثورية تفرز نفسها ذاتياً من الانتهازيين والوصوليين والنفعيين.. فهي كحركة جماهيرية ترتبط عضويتها بالالتزام بتنفيذ مهامها، وهذا عمل ذاتي.. ولا يتمتع أعضاؤها بأية امتيازات.. حافزهم الأساسي هو العمل من أجل قيام النظم الجماهيرية.. هو قناعتهم وإيمانهم بأن النظام الجماهيري وحده يؤمن حياة كريمة لهم ولأطفالهم.. وللناس كافة.

*****

معركة من أجل الإعلام

عندما اندلعت حرب أكتوبر ارتدى ملابس الميدان وطار على عجل.. اعتقد كالآخرين أنها معركة الأمة.. ذهب إلى غرفة العمليات لكنه عاد محبطاً.. لقد اتضحت له تماماً حقيقة حرب أكتوبر.. فهي لاتعدو كونها حرباً تحريكية لإنجاز مهمة سياسية ما.. بالرغم من الضجيج الإعلامي الذي قدمها كحرب لتحرير الأرض ومجّد العبور وتفّه الثغرة.. وتناسى الخيمة 101.. في غرفة العمليات كانت الصورة جلية بينت أنها حرب تدار بطريقة إدارة معارك ألعاب الكرتون لتحقيق أهدافها المرسومة مسبقاً.. كان عليه أن يصارح الأمة بما رآه، فهو الأمين على القومية العربية والوحدة العربية.. وعلى الثورة العربية لكي لا تنخدع بانتصار زائف.. ولأن السادات كان يعرف خطورة ما يقوله وأهمية ما يطرحه وإمكانية قلب الطاولة رأساً على عقب.. فبادر بتحويل المعركة إلى الغرب وشن حرباً إعلامية ضروس ضد الثورة استخدم فيها كل شيء وتجاوز خلالها كل المحظورات.. في مواجهة ذلك كان لابد من تعبئة الرأي العام العربي بطبيعة مجريات الأحداث ونتائجها المرتقبة.. كان علينا في فرع الإذاعة ببنغازي المساهمة في حملة التصدي للحملة الإعلامية المعادية، وتم على عجل إعداد برنامج مرئي ومسموع يوضح مجريات الأحداث وينبه الأمة للمخاطر.. يبدأ بث البرنامج المسموع الساعة 12 ليلاً لمدة ساعة عنوانه صفحات على طريق الثورة العربية يحوي مادة إعلامية دسمة، ويبث البرنامج المرئي يومياً بعد نشرة الأخبار على الهواء مباشرة يقدم تحليلات للأحداث.. ولما شكله ذلك البرنامج من إزعاج لنظام الردة في مصر أسماه السادات برنامج نصف الليل.. كان علينا وفق إمكانات الاتصال المتاحة تقديم معلومات حقيقية حول المعركة وآثارها المتوقعة وعن الوضع العربي في ذلك الوقت بما يساهم في رفع حالة الوعي القومي للتصدي للمخاطر التي بدأت تهدد أمن الأمة.. جهود مضنية بذلت في جمع المعلومات المتاحة وإعداد المادة والبحث في المكتبة المرئية والمسموعة عن المناسب من الأناشيد والأغاني الوطنية والقصائد الشعرية والكلمات التحليلية والأخبار.. ولأن الخطاب القومي تراجع في مصر وفي غيرها من بلدان المشرق العربي فإن كثيراً من أبناء الأمة وخاصة القوى القومية كانت تتابع البرنامج باهتمام بالغ.. ومن هنا كانت ضرورة إعداد وتقديم برنامج يلبي متطلبات المشاهدين والمستمعين، وأن لا يكون كلاماً خطابياً دون معلومات حقيقية وتحليلات صحيحة.. لم يمض وقت طويل حتى تحول

ذلك البرنامج إلى إذاعة مستقلة اسمها صوت الوطن العربي الكبير.. إذاعة هدفها الأول استنهاض الأمة وبث روح المقاومة، ونقل تحريض القائد المستمر لأهمية قومية المعركة وقومية العمل الفدائي للحيلولة دون تجزئة قضايا الأمة وعزل بعضها عن بعض فتصير قضية العرب المركزية فلسطين مشكل تفاوض فلسطيني صهيوني على الحدود والبناء والإقامة وما إليها.. ويسمح لحفنة من التجار بإبرام صفقات حولها.. وهو ما أصبح حقيقة واقعة اليوم.. وكان ينبه بشكل دائم إلى خطورة قطار الموت الصهيوني الذي سوف يزحف على الوطن قطراً قطراً.. إلا أن آذان النظام العربي آنذاك كانت صماء فلم تصغ لما يقول حتى وقعت الواقعة.

في تلك الأيام الحبلى بالثورة كان جيل جديد من الإعلاميين الشبان يعد بهدوء.. عشرات الشباب اندفعوا إلى الإذاعة.. وعشرات آخرون انخرطوا في الصحافة الثورية.. كان أحد الأهداف هو تأسيس منظومة بشرية للإعلام الثوري.. عمليات تأهيل جادة للفنيين من مخرجين وخبراء صوت وتصوير ومونتاج تجري بنفس وتيرة إعداد معدي البرامج والفنانين والمبدعين.. وكانت المسارح تخلق من العدم... مدرسة الإعلام الجماهيري مدرسة عصامية، فهي لم تستعر سوى أعداد قليلة من الخبراء من مصر وسوريا ولبنان إلا أنها تأسست ذاتياً تقريباً.. وهذا ما أعطى للإعلام الليبي الثوري دوراً متميزاً أثناء فترات الصراع في السنوات الأولى من الثورة.

لقد تحولت المؤسسات الإعلامية الرسمية إلى مدرسة جماهيرية لإعداد الإعلاميين ودمر الحاجز الذي كان يفصل عوام الأفراد عن المؤسسة الإعلامية بسبب تلك الهالة الوهمية التي حاول بعض رجالات العهد المباد إحاطة الإعلام بها.. أبناء القرى، والأرياف، الطلاب، والعمال اقتحموا مجال الإعلام الذي لم يعد حكراً على فئة معينة من الشعب.. إنها خطوة أولى في جمهرة المواقع من رحم الثورة في مجال الإعلام ولد الفنانون الكبار والممثلون الرائعون.. نعم لقد فعلت الثورة الشعبية في الإعلام فعلها وتمكنت من فتح الأبواب الموصدة وتأسست منظومة جديدة للإعلام.. الفرق الفنية في الجامعات والكليات أخذت مكانها في خارطة الإعلام.. وكان على الطلاب في الكليات الانخراط في الفرق الفنية بمختلف ألوانها حتى تستطيع كلياتهم المنافسة وتقديم مستوى يتناسب وطموحاتهم.. وفي المدارس كان تعليم الموسيقى والأدب والفنون يأخذ طريقه إلى المناهج التعليمية.. خلاصة القول أن الثورة انتبهت إلى خطورة وأهمية الإعلام في مرحلة مبكرة من عمرها

وعملت على تأسيس قاعدة للإعلام الجماهيري في ظروف غاية في التعقيد شعب أمي متخلف لا يعي معنى كلمة إعلام وآداب وفنون وفي خضم معارك مع قوى الماضي وأطروحات التخلف المادي والاجتماعي.. وفي إطار ثورة ثقافية هي العمود الفقري للثورة الشعبية.. فكانت معركة بناء الإعلام من أهم معارك الثورة.

*****

نساء في قيادة المعركة

كانت تنظر والحسرة تملأ عينيها وهي ترى أخاها الأصغر يستعد للذهاب إلى المدرسة.. ذهب خيالها الطفولي بعيداً... تصورت المدرسة ساحة خضراء مليئة بالأكل.. وأن المعلمين ملائكة تحمل زهوراً تقدمها للأطفال.. أمامها صورة أخيها عائداً من المدرسة يحمل بعضاً من التمر المجفف والجبن المعلب وقطعاً من الحلوى الشامية.. فلقد كان يدخر بعضاً من نصيبه ليحمله إلى أسرته التي لم تتذوق تلك الأشياء من قبل.. هكذا كانت المدرسة بالنسبة لها، فهي تعرف أن التقاليد لن تسمح لفتاة مثلها أن تدخل ساحتها ولا أن تراها حتى لمجرد إشباع غريزة الفضول لديها، ولا أمل لها على الإطلاق لتحقيق ذلك فقد كان بعض ممن ينصبون أنفسهم رجال دين يعتبرون فكرة الذهاب إلى المدرسة خروجاً عن الدين في حد ذاته.. وأذكر حواراً طريفاً جرى أمامي بين شيخ مفترض ومعلم أكمل فقط السنوات الخمس من الدراسة ليعين معلماً مؤقتاً، كان معلمنا في الصف الثالث.. كان الشيخ يطنب في تبيان مفاسد المدارس وكونها لا تقدم العلوم النافعة للأطفال ولا تعلمهم أصول الدين وقصص الأنبياء واستدل على كلامه بأن سأل المعلم المسكين الذي يعرف من العلم القراءة والكتابة عن اسم أخ سيدنا يوسف.. فرد المعلم بأن أخ سيدنا يوسف غير معلوم الاسم.. ضحك الشيخ باستهزاء وقال: ألا تعلم بأن اسمه لنكتل وقرأ عليه الآية الكريمة.. وكلما قرأت سورة سيدنا يوسف يخطر ببالي ذلك الحوار الشيق فاستغفر الله كثيراً.. في ذلك الوقت لم يكن لأي فتاة الحق في الحلم بالذهاب إلى المدرسة.. فما أن يطول قوامها يبحث لها عن عريس يطعمها ويسقيها.. كان ذلك حال الفتاة الليبية في الريف والمدن والقرى على حد سواء.. بعض الرجال يتشاءمون من مرور نساء أمامهم في الصباح فيعودون أدراجهم.. فلقد كانت المرأة الليبية تعيش حياة مزرية من عسف شامل وقمع رهيب تعامل على أساس أنها في مستوى أعلى بقليل من مستوى حياة الحيوانات الأخرى، فهي تأكل فضلات الرجال وتسير خلفهم وتعمل عضلياً مثلهم في الحقل وفي المنزل، فهي الصانعّ والزارع والنظّاف والطباخ والراعي.. تحصد وتدرس.. تجمع الحطب وتحيك الملابس إنها آلة بدم ولحم.

المرأة في ليبيا قبل الثورة تشكل حالة فريدة لا مثيل لها في بلاد العرب ولا العجم.. إنسان مطعون دائماً في شرفه وعفته وأخلاقه.. حديثه عورة وخروجه عورة فما بالك بتعليمه وتدريبه وتثقيفه.

من خلال هذه الصورة يمكن للمرء أن يتصور صعوبة وأهمية تفجير الثورة الاجتماعية.. والدعوة لتحرير المرأة وتحريضها للمطالبة بحقوقها السياسية والاجتماعية تامة دون نقصان..

فتيات يحلمن بمستقبل أفضل لأنفسهن وأخواتهن دخلن معركة التحدي التاريخي.. تنادين إلى بعضهن البعض وشكلن حركة التشكيلات الثورية.. انطلقن بصعوبة بالغة وبتحريض ودعم دائم من القائد.

كان القرار الأول إلزامية التعليم الأساسي للذكور والإناث خطوة أساسية هامة في فتح الطريق أمام المرأة العربية الليبية لتشق لنفسها منهجاً جديداً في الحياة يستند إلى فكرة المساواة التامة بين المواطنين في كل الحقوق.. وكان على أعضاء حركة التشكيلات الثورية القيام بأعباء متعددة في نفس الوقت.. فهن المعنيات الحقيقيات بتحرير المرأة العربية الليبية.. وعليهن تقع مسئولية إقناع أسرهن بأهمية الانخراط في تنفيذ البرامج الثورية والتقدم إلى قيادة عمليات الثورة الاجتماعية، وبالتالي الخروج إلى المجتمع وتنفيذ الخطط والبرامج التوعوية والتنظيمية المناسبة لتحرير المرأة ودفعها للانخراط في تنفيذ برامج التحول الكبرى التي تجري في ليبيا... وعلى عضوات التشكيلات الثورية تقع أيضاً المساهمة مع إخوتها الثوريين في العمل من أجل إنجاز المهام الثورية الشاملة وبناء اللبنات الأولى للمجتمع الجماهيري.

لو نظرنا فقط إلى الجهد الذي بذل في السنوات الأولى من عمر الثورة في مجال تحرير المرأة لاعتبر ذلك عملاً خلاقاً وثورة في حد ذاته.. الثورة تعي جيداً أن تحرير المرأة يبدأ بتحرير التعليم وينتهي بالحفاظ على القيم.. إنها معركة حقيقية على عدة محاور وجبهات.. تحريض المرأة على التعلم.. دفعها للانخراط في الحياة العامة والدفاع عن منظومة الأخلاق الحميدة.. وكان لابد من الفصل بين حقوق المرأة المستضعفة المستعبدة في استعادة إنسانيتها والحفاظ على آدميتها.. وبين حقوق المرأة في الحرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية كإنسان يتضرر من الدكتاتورية والاستغلال والعسف بكل أنواعه.

ولقد كان الطرح الثوري أن تعمل المرأة أو لا تعمل ليس هو السؤال الجدير بالطرح لأن العمل ينبغي أن يكون حقاً للجميع، لكن البحث في ماهية العمل الذي يناسب طبيعة المرأة ولا يعرض دورها في المجتمع للمخاطر.. كان منهجاً لحركة التشكيلات الثورية وفقه يتم التعامل مع تلك المعطيات وريادة العملية الثورية والدخول في مجالات العمل المختلفة.. وجب عليهن الالتحاق بالكليات العسكرية والمدنية لتولي مهام القيادة السياسية والاجتماعية.

ومن الإنصاف القول إن العضوات الأوائل في حركة التشكيلات الثورية كن نموذجاً ومثالاً ينبغي أن تعرفه الأجيال الجديدة من النساء الليبيات اللائي تربين وترعرعن في ظل الثورة.. لقد كنّ مناضلات حقيقيات اقتحمن الصعاب ولم يترددن في خوض كل المعارك.. كان صوتهن قوياً وكن يتحلين بالشجاعة والإقدام في تنفيذ مهامهن.. في كثير من الأحيان كن أكثر جرأة وإقداماً من أقرانهن من الرجال.. انخرطن في عمليات التدرب على السلاح والتحقن بالمجموعات الأولى للحرس الثوري.. وفرضن دخول المرأة إلى الكليات العسكرية كأمر واقع، نتيجته أن سبقت المرأة الليبية نساء العالم في هذا المجال بما في ذلك الدول التي تدعي التقدم والتمدين.. عرفن أن الحرية تنتزع ولا توهب فحملن مشعل الثورة في كل المجالات حتى صارت للمرأة الليبية مكانة في الصفوف الأولى من كل شيء..

المرأة الليبية لم تتحرر شكلياً وبقت مقهورة مستعبدة موضوعياً، بل خطت خطوات متوازنة في انتزاع حقوقها.. فصدرت التشريعات والقوانين الثورية التي تبناها الشعب بفضل تحريض الحركة الثورية من الرجال والنساء الذين كان لها دور مهم في تسريع عمليات التحول نحو المساواة الحقيقية بين الذكور والإناث دون أن يرغم أي من الجنسين على التنازل عن مكوناته البيولوجية لتحقيق المساواة، وبالتأكيد فإن الطريق لا يزال طويلاً وشاقاً أمام المرأة الليبية لتصل إلى الصورة النموذج التي يقدمها النظام الجماهيري إلا أن شوطاً كبيراً قد قطع.. الفضل فيه يعود بالتأكيد إلى كفاح أولئك المناضلات في حركة التشكيلات الثورية اللائي يستحق أن نقف أمام جهودهن وأن نقدم لهن كل الشكر والتقدير والثناء وهن جديرات بالتكريم والتبجيل.

*****

العمال درع الثورة

لقرون طويلة كانت حياة الشعب الليبي بدائية فقيرة بائسة، سواء في المدن أو الأرياف لا يختلف نمطها كثيراً.. يلبي الأفراد حاجاتهم من خلال منظومات إنتاج وخدمات فردية.. دون أي نوع من علاقات العمل المعقدة، ولم تتشكل داخله فئات متمايزة طبقياً ولا اجتماعياً.. إذا استثنينا قلة قليلة من الأثرياء المرتبطين بالمستعمر والمتعاونين معه والذين كانوا يماثلونه في أسلوب حياتهم.

أما بقية الجماهير الشعبية فهي تحت خط الفقر بمسافات هائلة، مجبرون على القيام بكل الأعمال تحت كل الظروف وبأقل أجر لتوفير لقمة العيش ولتأمين استمرار الحياة.. كان الليبيون في كدّ وتعب متواصل إبّان النهار والليل، فتجدهم يرعون الغنم والإبل مقابل كساء وطعام ونذر يسير من المواشي، ويمارسون الأعمال الزراعية بطرق بدائية شاقة... قلة منهم تعمل في البناء لدى الجالية الأجنبية في ظروف قاسية.. وبعضهم ممن يعيشون في المناطق التي يتواجد بها مستوطنون طليان فإنهم يشكلون آلة عاملة رخيصة تنجز كل الأعمال دون مقابل يذكر... إنهم عمال بالسخرة.

مع ظهور النفط وتطور النشاط الاقتصادي تشكلت فئة عمالية، لكنها لم تتكون كطبقة متميزة داخل المجتمع.. في وقت مبكر بعد الاستقلال المزيف تأسست نقابة للعمال، وفي الستينيات من القرن الماضي انطلقت حركة من العاملين في قطاع النفط عملت على تأسيس حركة نقابية بسيطة عددياً وتنظيمياً ذات توجه ثوري قومي بشكل عام.. ساهمت إلى حد ما في رفع حالة الوعي بالقضايا القومية، والتحمت مراراً مع الجماهير الغاضبة ضد العهد الملكي المرتبط بالخارج في انتفاضات متكررة، وقامت بمبادرات عملية محدودة ضد سلطات الاحتلال الإيطالي، والإنجليزي والفرنسي والأمريكي.. إذ يذكر التاريخ لها الامتناع عن تفريغ شحنات السفن البريطانية والفرنسية في الموانئ الليبية إبان العدوان الثلاثي على مصر.. وكذلك المشاركة الفاعلة في الانتفاضة الشعبية أيام العدوان الصهيوني على الأمة العربية عام 1967 التي عمت المدن والقرى العربية الليبية.. ولأن العهد المباد كان يتخوف من أية حركة شعبية تعرضه للخطر فلم يتوان في التنكيل بالحركة العمالية

الفتية.. فزجّ بقادتها في السجون وحاول بناء نقابات عمال حكومية مرتبطة به، أغدق عليها الأموال الطائلة.. لكن طوفان الثورة كان قوياً وشديداً فسقطت تلك النقابات الوهمية مع سقوط النظام الملكي.. ولأن الفاتح كان استجابة صادقة لنداء العمال والفلاحين الذين هم الأغلبية الساحقة للشعب الليبي العظيم.. فلقد التحم العمال بالثورة العظيمة منذ اللحظات الأولى لبزوغ فجرها وخرجت الجماهير إلى الشوارع رغم حظر التجوال.. وتشكلت حركة شعبية حقيقية لحماية الثورة منذ أيامها الأولى.. كان العمال قوتها الأساسية.. وكانت الثورة على العهد فكان أولى خطواتها لرفع الظلم عن العمال بتحريم الإتجار باليد العاملة ومضاعفة الحد الأدنى للأجور.. وتحريضهم على إقامة نقابات عمالية حقيقية تمكنهم من المساهمة المباشرة في العمليات الثورية.. والمشاركة في إنجاز مشروع الثورة الاجتماعي وإقامة الاشتراكية.

انطلقت جماهير العمال في إعداد العدة لتنفيذ واجباتها الوطنية ابتداء بحملات تعبوية وتثقيفية واسعة النطاق توجت بإنشاء الاتحاد العام للعمال الذي كان له دور بارز في تعبئة الجماهير العمالية للدفاع عن الثورة والتصدي للمؤامرات المتوالية التي نفذتها القوى الرجعية المرتبطة بالاستعمار ضدها وتمكن العمال من خلال التحامهم بالثورة من تحقيق نصر حاسم ضد القوى المعادية للثورة وأفشلوا كل محاولاتها.. كما نجحوا في تعبئة الجماهير للخروج إلى الشارع في أكثر من مناسبة لإظهار قوة المساندة الشعبية للثورة وبرنامجها الثوري.. ونظمت دورات إعداد سياسي وفكري شملت أغلب القيادات العمالية.. مكنت تلك البرامج العقائدية التي انبثقت من بناء كوادر عمالية قيادية مؤمنة بالفكر الثوري الجماهيري لعبت دوراً فاعلاً على المستوى القومي والإقليمي والعالمي، فصار لعمال الجماهيرية كلمتهم الحاسمة في تلك المحافل وتمكنوا من قيادة عدد كبير من المنظمات العمالية القومية والإقليمية.. وأثّروا إيجابياً في سياساتها ومواقفها التقدمية التحريرية..

يمكننا القول بأن التفاعل بين الثورة والعمال أدى إلى خلق حالة من الوعي العمالي لا مثيل لها.. لم تقارن بالتجربة الماركسية رغم ادعائها بأنها ثورة الطبقة العاملة... فكان العمال الهدف الأول بالتحرير من قبل الثورة، وكانوا أيضاً أداة الثورة وقوتها الرئيسية وساهم من جانب آخر في تعبئة العمال للنضال الثوري لإطلاق المشروع الجماهيري.. وهكذا كان العمال في ليبيا جاهزون ليوم إعلان قيام سلطة الشعب وإعلان الثورة الاشتراكية.. وقيادة الزحف العمالي الذي أعلن عام 1978

وأظهروا كفاءة مناسبة في إدارة الوحدات الإنتاجية والخدمية المملكة بالرغم من وجود بعض السلبيات المحدودة التي صاحبت ثورة المتنجين.

لقد تمكن العمال في ليبيا من وضع إطار ثوري للعمل النقابي أصبح منهاجاً اتبعته كل الفئات الأخرى عند تأسيس نقاباتها وروابطها وجمعياتها، لقد كان الفضل الأول لتأسيس حركة نقابية ثورية تقدمية في ليبيا واستمرارها وفق المنهج الثوري راجع بلا منازع للعمال، وخاصة الطليعة الثورية منهم الذين تصدوا للعمل النقابي في أيامه الأولى.. وتصدرهم لقيادة العمل الشعبي الجماهيري والتحامهم مع جماهير الفلاحين والطلاب إبان مرحلة الثورة الشعبية.. وقيادتهم للاتحادات العمالية العربية لمواجهة الردة والاستسلام وتبني مشروع مقاومة التطبيع والتصدي للعدو.

لقد هتف العمال في ليبيا بشعار واحد لعدّة عقود من الزمن " العمال درع الثورة" هتاف يعكس حقيقة وضع الحركة العمالية في ليبيا التي كانت ولاتزال حصناً حصيناً لثورة الفاتح وأطروحاتها الفكرية الرائدة.

*****

أيام صنع فيها التاريخ

لقد كان إعلان الثورة الثقافية والثورة الشعبية في شهر الطير 1973 حدثاً تاريخياً لم يأخذ حقه من التغطية الإعلامية المناسبة لأسباب مختلفة أهمها محدودية المؤسسات الإعلامية في ليبيا في ذلك الوقت، إضافة إلى العائق الأهم وهو سياسة التعتيم التي اتبعتها الدول الغربية المحتكرة للإعلام ضد المشروع الثوري في ليبيا.

في الداخل كان الحال يختلف كثيراً.. مباشرة بعد انتهاء القائد من خطاب زواره.. زحفت الجماهير بعفوية للسيطرة على المواقع الإدارية في طول البلاد وعرضها.. وتم تشكيل اللجان الشعبية في البلديات والمحافظات والقطاعات المختلفة.. الفلاحون زحفوا على الزراعة والعمال على الصناعة والمهنيون الصحيون على الصحة.. صُعِّدَ فلاح بسيط أميناً للجنة الشعبية للزراعة بطرابلس.. حاول البعض إزاحته عن موقعه بحجة التنظيم والإعداد فتدخل أمين الاتحاد الاشتراكي في ذلك الوقت.. رد أمين الزراعة المصعد بسيطاً وحكيماً.. "لا تجهد نفسك الأمر جد بسيط يمكنك الذهاب للقائد وإقناعه بأن يعود إلى زوراه ويطلب من الفلاحين أن لا يكونوا ضمن عضوية اللجان الشعبية، عندها سأغادر فوراً".. هذه ليست نكتة لكنها واقعة حقيقية.

من الجامعات انطلقت القوافل الثورية الطلابية لتوعية الجماهير بأهداف الثورة الشعبية وأبعاد الثورة الثقافية إلى المدن والقرى والأرياف.. مع بعض الرفاق كانت وجهتنا إلى ربوع الجبل الأخضر الأشم.. بقيت تفاصيل لقاءاتنا الجماهيرية القاعدية منحوتة في ذاكرتنا، وساهمت إلى حد كبير في تطوير تكويننا الفكري والثقافي والحركي.. كانت حياة الناس في السنوات الأولى من الثورة بسيطة... بالنظر إلى أن الخطة التنموية الأولى لم تؤت ثمارها بعد... وهكذا اتسمت اجتماعاتنا ومناقشاتنا بالعفوية والتلقائية.. وكعادة الماركسيين دائماً حاول بعضهم الترويج لبعض الأطروحات الشيوعية من خلال استحضار بعض المشروعات اللينينية بعد انتصار ثورة 1917.. كما عمدوا إلى خلط مفاهيم الثورة الثقافية المطروحة والسائد عنها في البلدان الماركسية.. لكن وعي القائد لذلك

وتفصيله لمفهومه للثورة الثقافية وسرعة الاستجابة الجماهيرية، وضع حداً فاصلاً مكن الجماهير من الوعي بتلك الأطروحات وخطورتها.

بدأ التفكير في البحث عن آلية جديدة لفهم وتطبيق بنود الثورة الثقافية أدت إلى إنتاج برامج عمل ثورية حركية وتعبوية مختلفة.. كانت اللجان الشعبية تتشكل في المحلات والبلديات والمحافظات باتباع أسلوب التصعيد المباشر الذي وجدت فيه الجماهير حلاً مناسباً، خاصة وأنها عانت من ويلات صناديق الانتخابات وفكرة الاقتراع السري وخزعبلات مأموري الانتخابات ومخيمات المرشحين وأسعار الأصوات وشيوخ القبائل ودورهم كشهبندر تجارة التصويت التي كانت رائجة.. وأيضاً لازالت ماثلة في أذهانهم شعارات انتخبوني أنا أحسن من أمثلكم.. وصور وإعلانات مرشح الشباب ومرشح المستقبل ومرشح العمال وما إليها من شعارات لا تساوي ثمن الأقمشة التي كتبت عليها.. كان على الطلاب الثوريين مساعدة الجماهير في إفراز قيادات شعبية حقيقية قادرة على التفاعل العملي مع المشروع الثوري..

في مبنى المحافظة كان المحافظ مغتاظاً جداً لأنه يعتقد أن الثورة الشعبية مقتصرة فقط على المحلات ولم يتصور أن تصل زحوف اللجان إلى مكتبه بمبنى المحافظة.. دعانا إلى لقاء على عجل.. واستطرد في الحديث ليوحي لنا بأنه من العارفين ببواطن الأمور، وأن الأمر لا يعدو كونه خطاباً فقط من أجل التعبئة وليس كما نتوهم، نحن باعتبارنا طلبة صغار في السن لا ندرك أبعاد ما يطرح.. لكن الزحوف الشعبية فاجأته وخيبت آماله فسقط.. اللجنة الشعبية للمحافظة أفرزت أدوات جماهيرية شابة ساهمت إلى يومنا هذا في بناء النظام الجماهيري.

التنمية الحقيقية تحققت في ظل الثورة الشعبية.. لسبب بسيط وهو أن الناس حددت حاجاتها بدقة واندفعت لتنفيذ خطة التحول الأولى والثانية بقوة هائلة تمكنت من تحقيق كامل مستهدفاتها فقلبت ليبيا رأساً على عقب.. حرق آخر كوخ واستكمل بناء سلسلة مستشفيات وعيادات ومراكز صحية حديثة وانتشرت المدارس والمعاهد والجامعات.. واستكملت مرحلة التنمية الزراعية والصناعية.. واحتفلت الجماهير في كل مكان بافتتاح مشروع صناعي استراتيجي كل شهر.. تحولت ليبيا في أعوام قليلة من بلد فقير متخلف إلى بلد صناعي متقدم.

من حق البعض أن ينتقد أداء القطاعات الخدمية أو الإنتاجية المختلفة اليوم.. لكن المهم هو ضرورة الأخذ في الاعتبار أن هذه القطاعات بنيت من العدم..

الثورة الثقافية والشعبية أبرزت المحتوى الاجتماعي والفكري لثورة الفاتح... ولولاها لربما تحققت بناءات مادية دون محتوى وبلا هدف.. ذلك أن شعار التنمية كان "الإنسان أداة التنمية وهدفها" بمعنى أن تبنى ليبيا بالليبيين ومن أجلهم.. وبمعنى آخر بناء الإنسان القادر على البناء، والبناء من أجل الإنسان المستهدف بالبناء.. لقد كانت أياماً مجيدة عاشها الليبيون والليبيات فكتبت صفحة جديدة في تاريخ ليبيا الحديثة..

*****

الفاتح ثورة إبداع

"بشائر يا ليبي بشائر" بتلك الكلمات العفوية المعبرة الرائعة عبّرت الجماهير الشعبية عن استجابتها الفورية مع البيان الأول للثورة العظيمة.. كونت الأساس الذي استند إليه المبدعون وهم يصوغون مشاعرهم وأحاسيسهم في وصف الحدث الهام الذي بدأ يوم الفاتح.

كل الفنانين دون استثناء ساهموا إلى حد كبير في إثراء المكتبة المرئية والمسموعة في ليبيا: الشعراء، الملحنون، الموسيقيون تسابقوا لتعبئة الجماهير وحشد هممها وتحية الثورة والثوّار، لكن إبداعات متميزة لفنانين كبار من أمثال حسن عريبي ومحمد حسن وعادل عبد المجيد ومسعود الدراجي وأحمد سامي وغيرهم لابد أن تقدر.. لأنهم أسسوا لمدرسة جديدة في الأغنية الثورية، بعيداً عن الحماس الزائد والعاطفة المفرطة وبكلمات بسيطة تخاطب الوجدان وألحان شجية رائعة تتسلل إلى العقول والقلوب.. أولئك كانوا الرواد الأوائل الذين فتحوا الطريق أمام هذا العدد الهائل من المبدعين الذين نسمعهم ونشاهدهم اليوم والذين ميزوا الأغنية الثورية الليبية فتمايزوا عن أقرانهم من المطربين والمطربات في طول الوطن العربي وعرضه.. ظهروا في وقت كان الفن الغنائي في البلاد العربية يتسم بالسطحية والعبثية، ولد شعراء ثوريون كبار من أمثال علي الكيلاني وعبد الله منصور، سليمان الترهوني، فضل المبروك.. أولئك العمالقة كانوا حالة استثناء في البلاد العربية بلا منازع.. لقد سجلوا بكلماتهم العذبة صور النضال اليومي في كل مراحل الثورة الشعبية.. ووضعوا ألحاناً جميلة تتردد على أفواه الجماهير كل يوم حتى قد يخيل للمرء أنه يستمع إلى تلك الألحان لأول مرّة..

في الجامعة كان الطلاب في خضم الثورة الشعبية والثورة الثقافية يصوغون لحناً لم يتوقعوا يومها أنه سيكون النشيد الرسمي لحركة اللجان الثورية فيما بعد.. طلاب من المرج كتبوا وغنوا بعفوية الكلمات الأولى لنشيد جماهيرية.. رددوها في مدرجات جامعة قاريونس.. "جماهيرية.. سلطة شعبية ومعمر هو أمين القومية"... فتلقفها الطلاب وأضافوا إلى أبياتها أبياتاً أخرى معبرة.. الواحد تلو الآخر حتى نسجت قصيدة طويلة رائعة تعبر عن الفهم الصحيح لمفهوم الجماهيرية والإصرار الدائم على المساهمة في تأسيسها وحمايتها والدعاية لها.

في المؤتمرات الشعبية كان الشعراء الشعبيون يتغنون بالقصائد الشعبية التي تصور فهمهم لذلك الحدث المهم.. تنافسوا في ذلك وانتظمت مهرجانات الشعر الشعبي التي كانت مدرسة حقيقية لنشر الثقافة الشعبية الثورية ونفض الغبار عن قصائد تاريخية هامة سجلت ملاحم الجهاد الوطني ضد الغزاة المحتلين.. ورسمت صورة رهيبة لمعاناة الشعب الليبي العظيم، لعل أهمها قصيدة رجب أبوحويش في معتقل الإبادة الجماعي الرهيب في العقيلة " مابي مرض غير دار العقيلة" وأجزم أن قلة قليلة من الليبيين استمعوا لتلك القصيدة قبل بزوغ فجر الفاتح، والسبب راجع إلى سياسة العهد المباد وحرصه على طمس التاريخ المجيد للشعب الليبي العظيم.

كتبت ملاحم شعرية شعبية رائعة بكل ما تحمل الكلمة من معان في كل المدن والقرى الليبية، وولد شعراء كبار من رحم ذلك الزخم الأدبي الشعبي الهائل.

الحركة الأدبية في ليبيا تأسست في واقع الأمر بعد الثورة.. وظهرت مدرسة ليبية رائدة في الشعر والقصة والمسرح أفرزت أدباء كباراً خرجوا من أبواب تلك الفسحة التي وجدت بفعل الثورة ليكتبوا أسماءهم بجدارة في الأدب العالمي.. فلقد كانت ثورة الفاتح حدثاً سياسياً وفكرياً جديراً بالتناول الأدبي.

بقايا الماركسيين حاولوا عبثاً الحفاظ على بقية باقية منهم بالتسلل إلى وسائل الإعلام والنشر.. اتبعوا نفس وسائلهم التقليدية في صناعة أدباء مزيفين والترويج لهم.. لكنهم لم يجدوا طريقهم إلى الناس ولم يعرفهم أحد، رغم الهالة التي حاول الماركسيون إحاطتهم بها.. وما هي إلا برهة قصيرة حتى اكتسحهم طوفان الأدباء والكتاب الثوريين.. فسقطوا غير مأسوف عليهم.

بالرغم من محدودية الماكنة الإعلامية الثورية إلا أن حالة نهضة حقيقية في مجال الأدب انطلقت مع فجر الفاتح العظيم.. فسجلت أسماء ليبيين بجدارة ضمن قوائم التميز على الصعيد القومي والعالمي.. أسماء كبيرة جداً لها كل التقدير والاحترام أخذت طريقها إلى العالمية.. حتى أصبحت مقارنة المدرسة الأدبية الفتية في ليبيا بمدارس عريقة جداً في الوطن العربي وخارجه أمراً معقولاً ومقبولاً.. ليبيا هذه التي كان عدد الجامعيين فيها قبل فجر الفاتح.. يحصى فقط بالعشرات.. وعدد المثقفين لا يتجاوز أعداد أصابع اليد.. أغلبهم من أولئك الذين ورثوا آباءهم وأجدادهم، ممن

صنعهم ومكنهم الاستعمار الإيطالي ولازالت أسماؤهم مدونة ومكللة بـالخزي والعـار في الـصحف الدعائية التي كان يـصدرها مكتـب الحـاكم الإيطـالي وهـم يـصوغون قـصائد المـديح في المـستعمر ويكتبون الروايات عن السفاحين المجرمين.

لقد ظهرت حركة أدبية وفنية ليبية مـن العـدم فكـان الأدبـاء والفنـانون مناضـلون ثوريـون يمارسون العمل الثوري بالفكر والقلـم ويـساهمون في وضـع الدعامـة لمنظومـة سياسـية واجتماعيـة جديدة اسمها الجماهيرية.

*****

الفاتح في الجامعة

استجابت الجامعة لنداء الثورة الثقافية التي أوجدت مناخاً مناسباً أمام الطلاب للتعبير عن أنفسهم وتقديم إبداعاتهم.. فشهدت الحركة الثقافية والأدبية والفنية والرياضية في الجامعة نهضة حقيقية.. حيث عجت المدرجات الجامعية بالمناشط الثقافية.. من أصبوحات وأمسيات شعرية وندوات ثقافية ومحاضرات وحوارات.. فلا يكاد يمر يوم دون أن تشهد مدرجاتها نشاط ثقافي متميز.. ظهر من بين الطلاب الشعراء والكتاب والقصاصين.. أغلبهم أصبحوا اليوم من أعلام الأدب والثقافة في بلادنا.

الحركة الفنية لم تكن أقل شأناً فتأسست الفرق الموسيقية وقدمت أعمالاً إبداعية راقية.. كما تكونت الفرق المسرحية التي عرضت أيضاً أعمالاً متميزة.. وصار من المتعارف عليه أن تقيم الجامعة مناشط فنية موسيقية ومسرحية راقية مع نهاية كل عام جامعي..

ولقد كان للنشاط الرياضي حيز متميز حيث تدور النشاطات والمنافسات الرياضية طوال العام في مشهد أقرب ما يكون إلى فكرة الرياضة الجماهيرية التي يطرحها الكتاب الأخضر.. كما كان للمنافسات بين الكليات في مختلف الألعاب الرياضية أهمية بالغة لدى الطلاب.. كانت أحد أهم وسائل التواصل بين طلاب مختلف الكليات.. ولأن الشيء بالشيء يذكر فلقد تذكرت مباراة كرة القدم بين فريق كلية الطب حديثة التأسيس وعدد طلابها لا يتجاوز 150 طالباً وطالبة وبين كلية الآداب العريقة.. حيث تغلب فريق كلية الآداب على فريق كلية الطب بأحد عشر هدفا دون نقصان.. فكان علينا طلبة الطب أن نتقبل الهزيمة بصدر رحب، وأن نمازح مشجعي كلية الآداب بأننا متميزون في الدراسة وهم فائزون في اللعب..

الأيام الرياضية في الكليات الجامعية كانت مناسبة لتنظيم نشاط ثقافي ورياضي يشارك فيه كل الطلاب فتتاح الفرصة للجميع لممارسة هواياتهم المفضلة..

في نهاية العام الجامعي يقام اليوم الرياضي الجامعي الذي يشهد مناشط رياضية نهائية بين الكليات، وعادة ما تتخلله بعض المناشط الثقافية في الشعر والقصة.. يختتم بحفل فني ساهر.. وعرض مسرحي.

وكان القائد يشارك في أغلب الأحيان في المناشط الثقافية ويحضر المناشط الفنية والرياضية التي كانت تتم تحت رعايته وبتشجيع معنوي منه.. في واقع الحال كانت صورة الجامعة بعد الثورة تختلف كلياً عن صورتها قبل الثورة.. مناخ الحرية والحوار الذي فتح بالثورة ساهم في إعطاء الجامعة دوراً قيادياً في المجتمع.. لكن بعض الحزبيين حاولوا استغلاله للترويج لأفكارهم.. أغرب ما في الأمر هو تحالف بين الإخوان المسلمين والشيوعيين.. لتقاسم النفوذ في الجامعة.. لكن الوعي الطلابي كان عالياً فلم يجدوا مكاناً مناسباً لهم.. انتفض الطلاب ضدهم.. كانت المناضلة الميساوي وحيدة في باحة كلية الآداب عندما حاول بعض أولئك الحزبيون تهديدها.. صرخت في وجههم بعد أن خلعت حذاءها ووجهته بشجاعة نادرة إلى وجه أحدهم أنتم مجرد خفافيش.. فتحولت صرختها إلى هتاف ثوري تردد في أصداء الجامعة " جاءك السابع من أبريل أخرج يا خفاش الليل ".. لقد شكل طلبة الجامعة سداً منيعاً حال دون تسلل تلك القوى للسيطرة على الجامعة.. فشلوا في الوصول إلى قيادة الاتحاد الاشتراكي العربي فرع الجامعة.. وسقطوا في انتخابات تشكيل الاتحاد العام لطلبة ليبيا في معظم كليات الجامعة.. حاولوا عبثاً استغلال أي أمر يمكن استغلاله لدفع الطلاب في أعمال عدائية ضد الشعب لكن الطلبة كانوا دائماً بالمرصاد.. بعضهم تمكن من التسلل إلى قيادة الاتحاد الطلابي بكلية القانون.. لكنهم لم يلبثوا إلاّ بضع شهور.. حتى اقتلعتهم انتفاضة طلبة كلية القانون في الثاني من أبريل 1976 الشرارة الأولى التي أدت إلى انتصار ثورة الطلاب في السابع من أبريل.. المناخ في الجامعة كان ثورياً، لذلك كانت الاستجابة لنداء القائد في سلوق يوم 5 الطير 1976 بتطهير الجامعات من بقايا اليمين الرجعي المتعفن فورية وقوية وحاسمة.. وكان الهتاف العظيم.. الفاتح في الجامعة.. شعار رفعه طلبة الجامعات الليبية عن وعي واقتناع وإيمان.

*****

طربوش الوزير

يعرف الليبيون الذين عاصروا العهد الملكي المباد استخدامات طربوش الوزير وأهميته، خاصة قبل اعتماد نتائج الانتخابات فهو الصندوق الأخير الذي تتجمع فيه أصوات الناخبين لتتم الغربلة وتحسم النتائج ويعلن الفائزون.. ولهم في ذلك حكايات وحكايات.. لكن لطربوش الوزير قصصاً أخرى أظرفها حكاية السائق المسكين مع الطربوش اللعين... كان رجالات العهد المباد يتنقلون في أرتال من السيارات الفخمة تضم المرافقين.. وجرت العادة أن يجلس كبار رجال الدولة في الكراسي الخلفية على يمين السائق.. ومن المحظورات على السائقين النظر إلى الخلف أو التحدث مع الراكبين في الكراسي الخلفية... وتكفي إشارات أو لمزات من عكاز أو همسات من مرافقين جالسين في الكراسي الأمامية لإعطاء الأوامر بالسير.. وتحديد الوجهة إلى ذات الشمال أو اليمين.. سيارات الوزراء ومن في مستواهم من المسئولين مجهزة بستائر سوداء تحجب أعين الناظرين وأخرى تمنع نظر السائقين.. في أحد الأيام كان أحد الوزراء راجعاً من رحلة طويلة في عاصمة الملك الشرقية مرفوقاً برتل مهيب من السيارات وفي الطريق استمع إلى المذياع يحكي قصة عن سلطان أراد أن يعرف شئون العباد فخرج متنكراً إلى الأسواق... طاف الزقاق فلم يلق إلا وجوهاً بائسة ولم يسمع سوى اللعن والسب والشتم... فعلم علم اليقين كيف كان رجال البلاط يحجبون عنه الحقائق حول حياة الناس رغم براعتهم في إحاكة الدسائس والمؤامرات.. "استمخ" الوزير الأمر وأراد أن ينزل إلى الناس.. ليتفقد الأحوال ويسمع مباشرة من أفواه الشعب الأخبار.. وعندما وصل الرتل إلى مدينة مصراته توقف الوزير وأمر الجميع بمواصلة السير.. لأنه مضطر لزيارة خاصة إلى بيت صديق.. ولأن المرافقين كان قد أعياهم السفر فلم يترددوا في إطاعة الأمر.. طلب الوزير من السائق أن يعرج إلى اليمين... جال في المدينة لوقت قصير، لكنه خشي من أنه لو نزل إلى الشارع سيعرفه الناس وربما تذهب الأمور إلى مالا يحمد عقباه.. فصرف النظر عن فكرة تفقد الأحوال وأمر السائق أن يستمر في الرحلة الميمونة إلى عاصمة الملك الغربية.. ولأن الخوف تسرب إلى فؤاده.. خشي من مصاعب الطريق وآفات الليل وغضبة الجماهير التي كان يعلمها علم اليقين.. كان عليه أن يجد وسيلة

لتصحيح الخطأ الذي أوقع نفسه فيه.. فلا بديل عن البحث عمن يؤمن الطريق .. فلما وصل مدينة زليتن طلب من السائق أن يتجه إلى مقر الحكمدار ليتدبر أمر بعض الحراس والبحث عن مرافقين.. متحججاً بطول الطريق والخوف من المتاعب والمصاعب.. وكان له ما أراد.. وفي الباب أوقف السائق السيارة.. لكن الوزير وضع طربوشه المهيب على الرف الخلفي للسيارة ونزل.. تسلل النعاس إلى السائق المسكين فأخذت عينيه غفوة على حين غرّة... لكن الأمر لم يطل واستيقظ على صوت ما.. تسللت أصابعه لتزيل الستار ونظر إلى الخلف فرأى الطربوش بين الأضواء الخافتة.. فخيل له أنه الوزير.. وأن رأسه قد يطير إن أطال الوقوف.. فما كان عليه إلا أن ضغط على البنزين وانطلق في الطريق.. يسابق الريح حتى لا يشعر الوزير بأن نعاساً أخذ من عينيه وليتأكد أنه دائماً شديد الانتباه..

وقتها لم توجد شبكة للاتصالات.. ولا هواتف "نقالات"... ولا حتى وسائل تخابر متطورة، تجاوز السائق مدينة الخمس.. والوزير جالس في معية الحكمدار يحدثه عن الأخبار.. وعندما هم بمواصلة المسير بعد أن تدبر الحكمدار بعض من سيارات ترافق سيادة الوزير.. كانت سيارة الوزير قد تجاوزت قصر الأخيار.. فكانت الطامة الكبرى.. وفقد الوزير صوابه.. ومن مقر الداخلية المركزية كانت أرتال وقوات تتجه نحو الشرق لتبحث عن سيارة الوزير.. وأعلنت حالة الطوارئ في الأجهزة السرية وبدأ البحث في ملف السائق الغلبان.. الذي دفع ثمناً باهظاً من جراء ذلك الطربوش.. هذه ليست قصة من نسج الخيال.. بل هي واقعة مضبوطة،.. تواريخها معلومة.. وشخوصها معروفة.

طربوش الوزير كان له في ليبيا شأن كبير بالرغم من أن الليبيين لا يلبسون الطربوش.. ولا يقيمون له أية طقوس.. ويغطون رؤوسهم بالشاشية التي تسمى شنة أو طاقية.. فمن أين تراه قد جاء الطربوش؟؟.. هل هو من بقايا الجنود الأتراك.. أو جيء به مع بعض المتعلمين من الأزهر أو الشام.. أم أن وزراء العهد المباد وجدوا فيه وسيلة ليتميزوا عن الناس؟. سؤال لا يحتاج إلى بحث وعناء.. والجواب عليه لا يفيد ولا يضيف أي جديد.. لأن الطربوش وكذلك الوزير صار حكاية من الماضي ومادة للتندر.. وصورة تعلق في المتاحف وعظاماً نخرة تملأ المقابر.

في صلب الموضوع

انتقل الشعب العربي الليبي بفعل ثورة الفاتح في فترة وجيزة من خانة الفقر والجهل والتخلف والمرض والأمية الناتجة من عصور الاستعمار والهيمنة والاستيطان الإيطالي، إلى دولة تصدر العلماء من أطباء وطيارين ومهندسين يقدمون خدماتهم الإنسانية للشعوب كافة دون تمييز.. لكن بعض المأجورين يحاولون عبثاً استخدام ذلك لتشويه مسيرة ثورة الفاتح الظافرة، والحديث عن ذلك وكأنه أحد سلبياتها.. في عمل بائس ويائس للبحث عن قاعدة لدعم أعمالهم المشبوهة ضد شعبهم الذي انتصر لنفسه واسترد حقوقه وفرض احترامه على أعدائه.. والإيحاء بأن جميع الليبيين الموجودين بالخارج يتخذون موقفاً عدائياً من ثورة الفاتح الشعبية.

يجهلون أن ثورة الفاتح أدت إلى ارتفاع الوعي السياسي والثقافي والمعرفي لدى المواطنين الليبيين بحيث لم يعد في الإمكان لأي كان استغفالهم أو استغلالهم.. لخدمة مشاريع وبرامج يعلمون أهدافها المعلنة والمخفية.

سؤالنا إليهم هل يحجب غربال مهترٍ أشعة الشمس الساطعة؟.. هل يمكن تجاوز الحقائق بالأكاذيب؟. لماذا ينكرون بأن ليبيا تصدر العلماء إلى العالم وأنها تعتز وتهتم بكل أبنائها أينما وجدوا؟.

من كان يصدق قبل وقت ليس بطويل أن أطباء ليبيين سوف يتبوأون مكانة علمية راقية في أهم المراكز الطبية في العالم؟ هل كان ذلك ليتحقق لولا الجهد الجبار الذي بذلته الثورة العظيمة لنشر العلم والمعرفة وإتاحة التعليم للجميع والاهتمام بنوعيته حتى مكن من تخريج أناس دخلوا المنافسة العالمية باقتدار ونجحوا فيها؟.

من كان يمكنه أن يتصور قبل عقود ليست طويلة أن بريطانيا وألمانيا والسويد وكندا وأمريكا وفرنسا وإيطاليا ستحتاج إلى خبرة الأطباء الليبيين للتعامل مع المرضى، فتعمل معهم كل أساليب الإغواء والاسترضاء.. حتى يبقوا بها لتستفيد من خدماتهم الجليلة؟. هل نظروا في الدول التي من حولنا سواء النفطية أو الفقيرة ماذا تصدر سوى عمال بسطاء فقراء يندفعون في البحر في رحلة بحث

عن لقمة عيش... أو أثرياء مترفين ينفقون الأموال بلا حدود في مواخير الغرب أو تجار سماسرة يروجون لبضاعة الأعداء.. ليقارنوا ذلك.. بالرجال والنساء الذين تصدرهم ليبيا إلى الخارج.. لم تتنكر لهم ولم يتنكروا لها رغم المجهودات المضنية لتجنيدهم ضد ثورتهم وشعبهم.. ورغم الحملات الدعائية الشعواء التي حاولت تصويرهم كأعداء لشعبهم.. وإيهامهم بأنهم مطالبون ومطاردون..

الخيانة والعمالة والجوسسة لا علاقة لها بأماكن تواجد الناس في الداخل والخارج.. لكل بلد أعداء ومن كل بلد عملاء هذه طبيعة تدافع الناس بعضهم ببعض.. ليبيا ليست استثناء.. ولأنها تلعب دوراً قيادياً في التصدي للهيمنة الإمبريالية والاستعمار والدكتاتورية وتطرح مشروعاً فكرياً ينسف مقومات الأنظمة السائدة.. فإن شراسة الأعداء تزداد.. ودائماً كان هناك نفر قليل من الخونة والعملاء سواء أثناء مرحلة الاستعمار أو بعدها وسيبقون إلى يوم الدين.

في خارج ليبيا يوجد بعض من ضعاف النفوس الذين تغريهم المادة للعمل ضد بلادهم فجندتهم دوائر الاستعمار، لكن نسبتهم ضئيلة.. ولا تذكر من هذا الكم الهائل من الليبيين في المهجر الذين يحترمون أنفسهم وعائلاتهم وتاريخهم.

فمتى سيصمت أولئك عن الكذب ومحاولات الزج بالأبرياء في معارك وهمية من صنع خيالهم.

نعم ليبيا جزء من أمة ممزقة مفروض عليها الإقليمية والحدود الوهمية.. وهي محدودة الإمكانيات بالرغم من توفر النفط.. وهي بسبب طبيعتها الجغرافية القاحلة ومناخها الصحراوي لا تتحمل أن يسكنها أعداد كبيرة من البشر، لذلك كان من أولويات البرنامج الثوري استخدام النفط في تأمين حياة كريمة ورغدة لجميع الليبيين والليبيات ولكل الأجيال القادمة دون استثناء وبالمساواة التامة حتى لا تتكرر معاناة الآباء والأجداد.. وشظف الحياة.

وتعي ثورة الفاتح العظيم أن أهم وسيلة لتأمين حياة مناسبة لكل الناس تكمن في تعليم الليبيين.. ليخرجوا إلى العالم سادة محترمين وليسوا عبيداً مأجورين ولكي يتمكن من يرغب من أبناء ليبيا من الإقامة والعمل في أمكنة تليق بالشعب العربي الليبي وتضحياته الجمة.. ومن نافلة القول

التذكير بإحدى استراتيجيات البرنامج الثوري تشجيع الليبيين على الإقامة في أماكن تتوفر بها مصادر دائمة للحياة الكريمة.. وحتى لا يضطر الليبيون في يوم ما تحت وطأة الجغرافيا من القبول بمستوى حياة أقل مما هم عليه الآن.

نعم هناك عتب من نوع ما على الأطباء في الخارج بأن أهلهم وذويهم في حاجة ماسة لخدماتهم.. لكن هذا العتب يوضع في إطاره الصحيح حيث الحرية الكاملة لكل الليبيين..

أيها الواهمون.. كفاية.. ألم ينهككم العواء.. ألم تتعبوا من الدجل والتزوير.. يا من تدعون أنكم معارضون.. استحلفكم بالله إن كان منكم مسلم.. ألم تسألوا أنفسكم كم هي أعدادكم.. أين أنتم.. ألم تعتبروا من مصير عشرات الناس الذين غررتم بهم ودفعتموهم في رحلة الانتحار ضد بلادهم وشعبهم وآبائهم وأخواتهم وأطفالهم.. ألم تتعظوا من مصير رفاق السوء لكم في العراق؟. كم من هؤلاء الآلاف من الليبيين أغويتم.. وكم من الأموال أنفقتم وأنفق أسيادكم عليكم حتى تبيّنوا حقيقتكم..

بملء الفم نقول لكم هؤلاء إخوتنا وأبناؤنا مرحباً بهم في كل حين في بلادهم.. ومرحباً بهم في ديار المهجر التي أرادوها طواعية.. أمّا أنتم موتوا بغيظكم.

*****

عن الإقصاء .. والتخوين

يدعي منتقدو حركة اللجان الثورية أنها حركة إقصائية تقوم على تخوين الآخر .. واستبعاده .. وهي حركة شعارتيين .. تتكون من مجموعة من الانتهازيين والفاسدين وهي حركة شمولية مركزية .. ملشياوية .. تسلطية .. إلى آخر ما تحويه اللغة من مفردات الشتم والقدح.. في اعتقاد منهم أن ذلك يحبط عزائم أعضائها .. ويدفعهم للتخلي عنها .. وأنا ممن يفتخرون بانتمائهم إلى حركة اللجان الثورية العظيمة التي تصنع تاريخ جديد للحضارة .. يعلمون علم اليقين أن تلك الصفات إنما هي سمات الأحزاب والحركات النخبوية التي تدعي قدرتها على قيادة الشعوب ومعالجة مشاكلها .. فهذه الانتقادات إنما هي التهمة التي نوجهها نحن أعضاء حركة اللجان الثورية للنظام العالمي السائد القائم على تفويض مجموعات قليلة من الناس للتحكم في مصائرهم .. وما يصاحبها من عمليات فساد وإفساد .. وتعتبرها من أهم الأسباب التي أدت إلى تنادينا إلى حركة اللجان الثورية القاعدية .. فهي حركة فردية تتكون تلقائياً من المؤمنين بالنظرية الجماهيرية .. نظرية سلطة الشعب.. نظرية الاشتراكية الشعبية .. للدعوة لها .. وقيادة الثورة الشعبية لتحقيقها وهي لا تسعى للوصول إلى السلطة كبديل للأنظمة القائمة ولا تمنح أي نوع من الحصانة لأعضائها .. فممارساتهم شخصية تحسب عليهم ويتحملون مسؤوليتها وتبعاتها .. فالجماعية في اللجان الثورية ليست حالة تنظيمية مركزة ومنضبطة .. وإنما تحدث فقط أثناء وضع الخطط والبرامج الثورية .. وتنفيذها .. عدا ذلك فعضو اللجان الثورية مواطن عادي واجباته وحقوقه ومسؤولياته مثل الآخرين سواءً بسواء .. فمن تراه يجد طعن في حركة هكذا تنظيمها .. وهكذا أهدافها .. لا أظن أن أحداً يتجرأ أن يقول أن سلطة الشعب .. والعدالة في امتلاك الثروة بين الأفراد .. وإنهاء القمع .. بإنهاء أدواته وأجهزته .. وإيجاد بدائل جماهيرية له.. أمراً خاطئاً أو ناقصاً .. وهو ليس بديل حقيقي وعملي للنظام السائد اليوم.. ولن يستطيع أخذ المحاجة بأن ذلك المنهج الجديد للإنسانية لا يحتاج إلى دعاة ومبشرين ينتشرون في الأرض للدعوة له .. والعمل على تأسيس نظام قائم عليه .. ورعايته .. وحمايته .. من أيدي الطامعين وأن يقدموا دليل واحد على نجاعة أي من أشكال الممارسة السياسية السائدة في عالم

اليوم .. لهذا هم يزورون الأشياء .. فيسمونها بغير مسمياتها .. ولن أدخل في جدل عقيم حول ذلك .. سيقول قائلهم إن هذا صحيح من الناحية النظرية .. أما الواقع فأمر آخر .. هم يرددون كلام باطل لوجهة باطلة .. يدعون أنهم لايعترضون على السلطة الشعبية .. ولا على الفكرة الثورية النبيلة .. ولا على المنهج الثوري الجماهيري .. لكن كل غضبهم وسخطهم ينصب على ممارسات أعضاء اللجان الثورية .. التي لم تتمكن على رأيهم من تطبيق النظام الجماهيري التي ادعت الإيمان به .. واستغله بعض أعضائها لتحقيق مآرب خاصة بهم .. ومع أنني أرفض وأنكر ذلك جملة وتفصيلاً .. استناداً إلى تاريخ حركة اللجان الثورية والمعارك التي خاضتها لتأمين حرية ليبيا واستقلالها والانتصارات التي حققتها .. يشهد لها ولأعضائها رغم جحد الناكرون ..

لكني أقبل جدلاً بذلك .. وردي عليهم ينطلق من إيمان عميق بصدقية المشروع الجماهيري .. أقول لأولئك .. إذاً لا توجد مشكلة .. أنا أول المؤيدين .. المسألة المطروحة تتعلق بمشروع جديد ينقذ شعبنا .. أولاً من التخلف .. وهو ثانياً رسالة للعالمين .. مشروع تؤكد الأحداث المتالية في العالم صدقيته .. وحتميته .. فليتقدم أولئك لتبنيه إن كانوا صادقين فيما يقولون .. وبأي شكل يرتأون .. إما معاً مع اللجان الثورية الحالية ، أو بمفردهم واللجان الثورية تؤيدهم .. أو بمفردهم واللجان الثورية في استراحة محارب .. المهم العمل من أجل إقامة وتثبيت ركائز المجتمع الجديد .. ولا مبرر لهذا التحامل على اللجان الثورية .. التي لم تطرح نفسها كبديل لهم .. وإنما تدعو إلى الدفع بالجميع إلى دائرة السيادة والسلطة .. ولم تستثني أحد .. وهذا يدفعنا للتساؤل .. لماذا يطرح هؤلاء العودة إلى بديل قديم للمشروع الجماهيري ؟ .. ولماذا يطالبون بالعودة إلى النيابة .. والتمثيل والحزبية؟ .. ألا يعرفون أن ليبيا جربت الأحزاب الوهمية عندما تأسست في فترة الاستقلال المزيف مثل حزب المؤتمر والحزب الفيدرالي .. وجمعية عمر المختار .. وكان الشعب الليبي كله تقريباً مع الاتجاه الوطني في حزب المؤتمر وجمعية عمر المختار .. لكن الفوز كان من نصيب الحزب الفيدرالي .. حزب الاستعمار .. الذي مكنه من حكم ليبيا أثناء فترة الاستقلال الصوري المزيف.

ألم يتحكم في شعبنا مجلس نواب وشيوخ مزيف أيضاً .. كان أداة طيعة في يد الدول الاستعمارية وكبّل ليبيا باتفاقيات مذلة ، وسلم الاقتصاد الليبي إلى المستوطنين الطليان .. وعندما تسلل بعض الوطنين في حدود 5 أعضاء إلى صفوف مجلس النواب تم حله وأسقطوا عنوة وأمام

الملأ.. لم يتعرض ذلك المجلس النيابي المزيف في يوم ما للقضايا المصيرية للشعب الليبي .. المتعلقة بالحرية .. خاصةً القواعد الأجنبية والاستيطان الإيطالي .. والمنفيين .. وثروة النفط .. وغيرها ..

على أي منطق يستند أولئك في تبني ذلك المشروع القديم .. أو الدعوة إلى استيراد وصفات جاهزة من الخارج جربها العالم وأثبت خطورتها على مستقبل الشعوب .. وهي واضحة للعيان في كل مكان .. لمجرد عدم فاعلية اللجان الثورية لأي سبب كان..

السؤال الأهم .. من منا يمارس الإقصاء ؟ .. اللجان الثورية .. الحركة المفتوحة للجميع لكل من يؤمن بضرورة وأهمية مشاركة المواطن الليبي في إدارة أمره .. والتي لا توجد بها أساليب تنظيمية أو استقطابية إقصائية .. لأي كان أن يدخل الحركة لتنفيذ واجبه في قيادة الشعب نحو امتلاك سيادته الحقيقية .. أعضائها لم يقدموا أنفسهم يوماً على أساس أنهم أقدر من الآخرين لإدارة شئون الشعب .. أو هم من يمتلك عصا موسى لحل المعضلات السياسية والاقتصادية .. أو هم القادرون وحدهم على قيادة دفة السفينة إلى بر الأمان على رأي الحكومات .. كما يفعل .. ويردد المتقولون على اللجان الثورية .. أعضاء اللجان الثورية يعلنون على رؤوس الأشهاد أنهم فقط محرضين على إقامة السلطة الشعبية .. مرشدين لضمان آلية ديمقراطية لتطبيقها.. ليس إلا ..

أما التهم الجزافية بالفساد .. والانحراف التي تطلق دون تحقيق أو دليل .. في محاولة بائسة من أولئك الإقصائيين لتشكيك الجماهير الشعبية في حقيقة قادتها الثوريين .. غافلين على حقيقة أن الشعب الليبي الذي يمارس الثورة والحرية لعقود من الزمان لن تنطلي عليه الأكاذيب والدعايات .. فهو أكثر شعوب العالم وعياً .. لأنه يمارس السلطة .. وهو يعرف الأشياء كلها .. التي تعلمها من الثورة والممارسة .. ولن يختلط عليه الحق مع الباطل .. فهو يحمل أهم مشروع سياسي في القرن العشرين.. ويقدم رسالة للشعوب التي تعاني القهر والظلم والعسف .. إذا كان أولئك حريصون على ليبيا .. كما يدعون .. عليهم أن ينضموا إلى الصفوف العاملة الجادة .. التي مكنت هذا الشعب الصغير من أن يتبوأ موقعاً قيادياً في العالم.. وأن يعتزوا بثورتهم وقيادتهم التي يعترف بقدرتها ومهارتها الأعداء والأصدقاء .. حتى صارت ليبيا قِبلة الأحرار .. وملاذ المظلومين والمحرومين ..

فذكّر .. وأعرض عن الجاحدين ..

عندما كتبت عن الإقصاء والتخوين .. علق البعض مشككين فيما ذكرت .. فوجدتني مضطراً للاستطراد في الموضوع للتذكير ولتنوير من لا يعرف حقيقة اللجان الثورية ..

في النشأة .. لم تظهر حركة اللجان الثورية هكذا كالأحزاب السياسية المعروفة والحركات الثورية التي تعتمد على الاستقطاب والضم ودقة التنظيم .. وسرية منهجية العمل .. بل انطلقت بعد أن بذل الأخ قائد الثورة جهداً مضنياً كبيراً في تقديم النظرية الجماهيرية من خلال المعسكرات التثقيفية والدورات التسيسية وحلقات النقاش والندوات والمحاضرات والملتقيات والتي كان أهمها .. معسكرات الثورة العربية عام 1974 مسيحي .. لطلبة الجامعات والمدارس الثانوية . والدورات التسيسية من الأولى إلى الرابعة عام 1975مسيحي .. ومعسكرات السابع من أبريل لطلبة وأساتذة الجامعات عام 1976 مسيحي .. والتي اختتمت بالملتقى العام للفعاليات الثورية في شهر الكانون عام 1976 مسيحي في معهد الفاتح بطرابلس .. والذي شهد حواراً جاداً بين الأخ القائد والفعاليات الثورية حول الأداة التي يمكن بواسطتها تسريع إقامة الدولة الجماهيرية دونما أن تشكل خطراً على ممارسة الجماهير للسلطة .. بعد أن تم استعراض نقدي لكل البدائل السياسية المعروفة ..

وفي شهر ناصر عام 1977 مسيحي .. حسم القائد الأمر .. وأعلن تأسيس حركة اللجان الثورية .. أداة الثورة الشعبية .. القيادة الثورية للجماهير المتحولة ثورياً من المؤمنين بفكر الكتاب الأخضر حلاً للمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية الملتزمين قومياً ودينياً .. وحدد مهامها في الدعوة لإقامة سلطة الشعب والتحريض على ممارستها والتمسك بها .. والدفاع عنها .. وفتحت السجلات الخضراء في كل مكان .. وتأسست المثابات في كل مكان .. ولا زالت السجلات الخضراء مفتوحة إلى يومنا هذا ..

لقد تنادى المؤمنون بالنظرية الجماهيرية .. وربما تنادى معهم آخرون لأغراض ما في أنفسهم .. لكن مهمة اللجان الثورية الواضحة المحددة بدقة وحزم تمنع دون تحول الحركة إلى غير اللجان

الثورية مهما حاول العابثون .. فهي مفتوحة للمؤمنين موصودة على غيرهم من الانتهازيين والنفعيين ..

ولقد حاول البعض الطعن في فاعلية الحركة .. لأنها كذلك .. يصفونها بالهلامية .. والضعف .. وإنه يدخلها كل من هب ودب على رأيهم .. وطرحوا أهمية الفرز والتنظيم .. لكن الثوريين فهموا مراميهم .. وحافظوا عليها حركة ثورية للجميع .. قوتها في ضعفها الظاهر ..

لن تراها هكذا .. فلا لجنة مركزية ولا مكتب سياسي ولا قيادات ولا رموز ولا بارزين مهما حاول المغرضون طرح هذه المسميات والمفاهيم .. لكن في ساعة الحسم الثوري ستظهر لمن يريد أن يرى اللجان الثورية .. قوتها .. فاعليتها ..

فالعمل الثوري حالة فردية يمارسها العضو دون ضوابط تنظيمية محددة وجامدة .. وهذا مكمن قوة الحركة .. خروجها عن القوالب الجاهزة .. وابتعادها عن الأساليب البالية المحنطة ، فالفرد يمتلك براح واسع للخلق والإبداع .. وهي حالة جماعية عند التخطيط والمتابعة .. وهذا مكمن قوةٍ آخر للحركة .. ولأنه لا علاقة بين لجنة ثورية وأخرى إلا في ساعات الحسم الثوري .. الأمر الذي أوجب حالة تواصل وتنسيق بين اللجان وبين اللجان وقائدها .. فكان مكتب الاتصال باللجان الثورية أداة تواصل وتنسيق وليس جسماً قيادياً للحركة .. وكان لوجود الشهيد البطل محمد المجدوب قدَّس الله سره .. منسقاً عاماً له .. عامل أساس في عدم انحراف المكتب عن مهمته التنسيقية المحضة ..

حركة اللجان الثورية لا تسعى إلى السلطة و إلا كانت كبقية التنظيمات السائدة .. ولم تمارسها في ليبيا على الإطلاق رغم الدعاوي الزائفة الباطلة.. التي يطلقها أعدائها الذين إنما يهدفون إلى التشكيك في صدقية الحركة .. وصدق تمسكها بأهدافها .. فتراهم يخلطون بين دور الأخ القائد في التحريض والترشيد والتزام الشعب الليبي بأغلب ما يطرحه عليهم .. لثقةٍ فيه .. ولأنه رمز لهذا الشعب .. متناسين أن الشعوب تقدر دائماً قادتها ورموزها .. وتتبع آرائهم حتى وإن كانوا من الغابرين .. فما بالك بمعمر القذافي الموجود معهم .. فكراً .. وروحاً .. وجسداً .. وبينهم من يحاول

الدس متهماً أعضاء الحركة باحتكار ممارسة السلطة في ليبيا إلى حد ذهاب بعضهم للقول أن الحركة هي الحزب الحاكم .. وهذا كذب وبهتان .. نرد عليه بأصدق البيان .. فلنراجع آلاف المصعدين في الأمانات واللجان .. كم منهم أعضاء في حركة اللجان ؟ .. وكم من أعضاء الحركة من تولى موقع أمين اللجنة الشعبية العامة ؟ .. وأمانات اللجان النوعية .. في المؤتمرات والشعبيات وعلى المستوى العام .. وحتى من تولى منهم تلك المواقع هل صعد فقط لأنه عضو في اللجان الثورية أم أنه اختير لكفاءته وخبرته .. وهو تصعيد شخصي .. هل قامت اللجان الثورية يوماً ما بتقديم عناصر محددة إلى المؤتمرات في أي مستوى وطلبت تصعيدها فقط لأنهم أعضاء بها .. أجزم أن ذلك لم يحصل .. وإن كانت اللجان الثورية تقوم دائماً بتحريض الجماهير على الدفع بالعناصر المؤهلة والقادرة .. خاصة في مجتمع تغلب عليه الفكرة القبلية والعشائرية .. التي قد تؤثر سلباً على التنمية .. والديمقراطية ..

سيدفع بعضهم بأن شروط التصعيد تقضي بالالتزام بمبادئ وأهداف ثورة الفاتح العظيم .. وهذا دفع مردود .. لأن أهداف الثورة العظيمة هي أهداف الشعب الليبي في شموليتها .. فهي الحرية والكرامة والعدالة والاستقلال والمساواة .. فمن لا يقع في دائرة هذه الأهداف والمبادئ هو بالتأكيد خارج دائرة الشعب الليبي .. وهو ثانياً خيار الشعب الليبي .. فليس أعضاء اللجان الثورية وحدهم الملتزمون بأهداف ومبادئ ثورة الفاتح العظيم .. الشعب الليبي كله إلا ما ندر يجمع على تلك الأهداف والمبادئ .. ويلتزم بها ..

يقول بعض كتبة المقالات في المواقع المشبوهة أن اللجان الثورية منعت الليبيين من التعلم لأنه يشترط موافقتها للإيفاد إلى الخارج .. ورغم سذاجة وسطحية هذا الطرح الذي يربط التعليم بالدراسة بالخارج إلا أنه زور باين .. لأن الأمر يتعلق بإفادة من مثابات اللجان بأن فلان أوعلان لم تسجل بشأنه ملاحظة سلبية ضد الشعب والثورة من خلال ممارسة الرقابة الثورية .. ولو صدق ما يقولون لكان كل العائدين من الدراسة بالخارج أعضاء في اللجان الثورية .. ولا اعتبرنا الآلاف من أعضاء هيئة التدريس الجامعي كلهم أعضاء بها .. والسؤال من هم الذين اعترضت اللجان الثورية على إيفادهم إلى الخارج وكم عددهم ..

إن جميع الدول تتخذ الترتيبات الضرورية لضمان أمن واستقرار شعبها .. وليبيا ليست استثناء من ذلك .. واللجان الثورية تمارس هذه المهمة بكل الشفافية والوضوح .. وليس في جنح الظلام وخلف الكواليس .. فلا مجال لها على الإطلاق أن تمارس أي نوع من الاحتكار .. فهي أداة .. لمحاربته ..

اللجان الثورية .. حركة تعتمد الحوار أسلوباً وحيداً لممارسة أعمالها وتنفيض مهامها.. وإن حاول المغرضون وصف مهامها بالعنف والتسلط .. والمعارك المادية التي خاضتها دفاعاً عن الثورة حدثت دائماً في إطار الأخلاق الثورية التي تقدر قيمة الإنسان وتسمو به إلى العلى ..

أنا أعرف أن الجاحدين يعرفون ذلك وهم له ناكرون .. لكن خطابي إلى أولئك الواقعين تحت طائلة عدم الفهم أو عدم الوضوح .. فليس من قبيل التراجع أو التملق .. والادعاء الباطل بالقبول بالآخر أن أقول أني أوافق بالمطلق جملة وتفصيلاً على تعقيب السيد جمعة عتيق في صحيفة قورينا بتاريخ 12 التمور 1376 و.ر. حول مقالتي عن التصعيد والإقصاء .. والتي عنونها بالتلقين والإملاء .. فحركة تعمل على نشر فكرٍ تراه حلاً لمشاكل الإنسان .. لن تجد غير الحوار وسيلة لذلك .. فهي تؤمن بأن الحرية والعدالة لن تتحقق إلا بالديمقراطية الحقيقية في مداها الأقصى .. وبالاشتراكية .. وإن ليبيا جزء من أمة لن تتمكن من تحقيق إنجاز ملموس في مجال الحرية والتنمية دونما نهضة شاملة لأمتها .. وهي جزء من عالم إسلامي يشكل هويتها الثقافية والفكرية والاجتماعية .. وشريعتها القانونية والأخلاقية .. فالتلقين إنما هو منهج أولئك المسيطرين على العالم اليوم الذين يتوهمون قدرتهم على فرض مشروعهم الفاشل على العالم.

*****

كلمات من سفر الخوف ..

يتغنى الشعراء بالليل .. يضيء نور القمر الخافت وجه العشاق .. يتحلق السمّار في أروقة الظلمة .. بحثاً عن البهجة .. هل يخاف الإنسان النور .. أم يخشى أن يرى الناس العورات دون سواتر .. يقول البعض أن في العشق كثير من الغش .. ولهذا كان العتاب لغة العشاق المفضلة .. لكن حالات الهروب من الخوف بالخوف .. والتستر بالظلمة ليس أسلوب العشاق وحدهم .. في السياسة التي هي فن ممارسة الكذب .. يخاف الناس من كل شيء .. الغفير يخشى المدير .. والمدراء يخشون المراتب الأعلى .. فلا مفر للكل من حساب دقيق لكل الأشياء .. انتبه هذا فلان .. وذاك صديق علان .. توقف ألا تعرف مع من تتحدث .. إنه موصول برباط وثيق مع هذا أو ذاك .. كل الأعمال التي تؤدي في الوظائف المختلفة المرتبطة بالدولة ليست سوى نتائج لخوف ما .. من شيء ما..

هل الإنسان مخلوق للخوف .. لننظر في الأديان فهي تطرح تعاليم مجللة بالخوف .. حتى وإن قيل لا إكراه في الدين .. أو أن العقل مأخوذ في الحسبان .. بعض الناس في سدّة هرم السلطة هم أكثرهم خوفاً .. يخشون من كل الأشياء .. هذا الإنسان البسيط الموضوع في أسفل سلم العلاقات في المجتمعات البشرية ليس أكثر خوفاً من أولئك الذين تمكنوا من تسلق السلم فوصلوا إلى أعلى .. لكنهم دائماً يلهثون نحو القمة .. حتى وإن كانت أمر في اللامتناهي .. يبحثون عن مزيد الصعود هروباً من الخوف بالطمع إيماناً بأن الأمن في الأعلى .. هذا ليس سوى تفسير منطقي للهلع والطمع .. والطمع صنو الخوف .. رحلة الخوف والطمع في مزيد الآمان والتأمين جد شاقة .. تولّد أشياء أخرى .. وتحدث مزيداً من الخوف .. هل يتمكن الخائفون من إبعاد الخوف عن الناس أم أنهم يسببون مزيد المخاوف .. قد عرف الشعراء أن طوق النجاة يكمن في التغني بالليل .. فهو يبعد المخاطر لأن العتمة تمنع الناس عن رؤية الأشياء على حقيقتها .. فتحل السكينة بالناس ويعم النوم الأبدان .. يتمنى السمّار أن لا يأتي النوم أبداً .. فساعاته مخصومة من لحظات الأمان المفقود ..

على مستوى الدول .. يمارس القهر خوفاً من القهر .. ويقتل الناس خوفاً من القتل .. قتل جورج بوش ملايين الناس من كل الأجناس .. ليجعل العالم أكثر أمناً .. فمن تراه يخاف؟ .. لكن الحرب من أجل الأمن لم تجلب سوى مزيد الخوف من أمر ما قد يقع .. السمع والطاعة وسيلة الخائف لجلب الأمن .. لكنها سبب المزيد من القلق والخوف .. فيتطلب الأمر مزيد السمع والطاعة .. لماذا نلوم حكامنا إذاً .. إذا كان الخوف شيء من روح ناموس الخلق .. لعل الله عز وجل أوجده ليضمن ولاء الخلق الدائم .. والحمد الدائم .. وفهم قيمة حياة الأمن في اليوم الآخر .. قد يبدو أن الناس تخاف المجهول .. لكن الواقع يبين أنها تخاف الظاهر .. هل نلعن اديسون لأنه اخترع شموس الليل .. ليبعد الظلمة .. أم نتبع الشعراء كالغاوين في كل واد هائمين ... حتى نتدرع بالليل ضد الخوف أم ينفرط عقد الناس ؟ .. في البدء لم يخشى آدم أن يقترب من الشجرة الملعونة وتحمل النتيجة .. أما اليوم فيهرب الناس من كل الأشياء التي يعرفون .. ربما خوفاً من أمر مجهول مدسوس فيها .. أو شيء ما مخبأ بين الأشياء ..

في لحظات التأمل الكبرى على الجماعات البشرية أن تمعن التفكير في الأشياء البسيطة فمنها تظهر المعجزات .. قد تجد حلولاً في متناول اليد لمشاكل عويصة .. أو فك رموز غامضة .. فتصير معلومة واضحة .. ما أكبر حجم علامات التعجب لو تحدث المرء في شيء قد يبدو غريباً .. فالناس تنظر فقط من الخلف وإلى الخلف .. الأمام طريق محفوف بالمخاطر .. الناس حبيسة الأمس حتى عندما تتحدث عن المستقبل .. والشعراء وحدهم يقتحمون الظلمة .. عندما قال جاليلو إن الأرض تدور ... أُحرق .. لأن الناس خافوا من الوقوع لحظة الدوران .. لكن نيوتن وحده علل لماذا يسقط التفاح من أعلى الأشجار .. كم من الناس يجمع التفاح بعد السقوط .. أخذ قانون نيوتن أجيالاً من الزمن حتى صار أمراً علمياً وحديث المستقبل ..

الشعراء يقولون الشعر .. وهم واقفون خلف الضوء.. عندما يمدحون شخص ما فلا يعدوا الأمر كلمات هجاء بمفردات مهذبة قد تكفي العطايا لتجعل منها كلمات للشكر .. هم يستخفون بالنور فيلتجؤن إلى الليل .. كمن يحمل فانوساً في سرداب طويل .. لكن أكثر الأشعار روعة في العالم وعلى مر الأزمان .. تلك التي كتبت لليوم التالي ..

الدعوة اليوم ملحة لمواجهة حاجز الخوف .. من أي شيء .. عندها ستظهر قوة الإنسان .. هل يستطيع الخائف أن يخيف الناس .. افعل ما يمكن أن تفكر به في جنح الليل .. سيكون النجاح حليف مضمون .. تأكد من أن ذلك سيكون طريقاً للآخرين .. في أمتي يحتاج الناس إلى فأس كبير ليحطموا هذا الخوف النابع من الخوف وأمتي مسئولة بحكم التكليف الإلاهي أن تطرد الخوف عن الناس .. فيكون الإنسان خليفة الله في الأرض .. لا يخشى شيئاً على الإطلاق .

*****

محاولات إحباط ممنهجة

دعهم يكتبون ما يشاءون .. نحن هنا نبني مع الناس مستقبلها .. وهم يرددون كالببغاوات ما يقال لهم .. حرفة الكتبة .. تبدو مجزية .. تدر بعض المال .. وربما بعض الجاه أيضاً .. يرددون اسطوانة قديمة .. ملت الآذان سماعها .. الديمقراطية .. حقوق الإنسان .. أسماء متعددة لمسمى واحد .. لكن ورقة التوت سقطت عنها بسبب رياح أبو غريب وغزّة وكابل العاتية .. نفس الأسماء وبنفس المسميات .. البعض يعيب علينا .. الإيمان بمشروع الغد المشرق .. ينكر علينا حقنا في المساهمة في صنع مستقبل أكثر أملاً لشعبنا .. مع أن الناس في كل أصقاع الأرض .. يكتبون أحرف مشروعنا حرفاً حرفا .. يصوغونه من جديد .. يتحدون به العالم .. لكن العابثين منا يحاولون إعادة عقارب الساعة إلى الخلف .. ماذا يضير أن نسمع نحيبهم .. عواء في جوف الليل .. ألا يعلمون أن الصبح قد أقبل .. فلن يجدوا عتمات يختبئون فيها .. من النور يسطع النور .. والعتمة تفتح أساديم الظلام .. يومها رأينا أن الخفافيش تجوب الزوايا المظلمة .. فأوقدنا مشاعل الثورة .. خرت من شدة الضوء صرعى .. هذا طابور واحد .. يبدأ من كابل .. ولن ينتهي بغزّة .. من تراه أفشى سر صدام ؟! .. ومن تراه دس السم لياسرعرفات ؟!.. ومن أوشى بالشيخ أحمد ياسين ؟! .. هذا نفس الطابور .. بالأمس كان حسين طاهر يختال بين الأعداء .. فقد أهداهم رأس الفضيل أبو عمر .. وذاك الوغد أوشى بالجالط الذي قاتل كتيبة كاملة مع ابنتاه .. أبداً الخيانة .. لن تصبح مجرد رأيٍّ آخر .. عندما كان الناس يعانقون الثورة يوم الفاتح .. وكان الزحف يخترق أمر حضر التجوال .. كان بعض الظلامين في دار ابن سَلول .. يرتجفون من الخوف .. دنت النهاية .. قال قائل منهم .. نحن وقعنا اتفاق القواعد لجمع أموال نطعمكم بها.. كذبوا .. فلم يجد الناس إلا الجوع .. كان أبناء الشهداء والمجاهدين يكابدون الحياة .. يمتشقون سلاح الصبر لمقاومة الفقر .. عندما صدر الأمر الثوري الأعظم .. أيها الجند الفاشست.. أخرجوا من هذه الأرض المقدسة فوراً .. قال البعض المتيم بالطليان .. .. يا للهول .. كيف يدار اقتصاد بلد فقير بدون الخبرة الطليانية .. ستقفل كل الورش ..

وتنهار الأسواق .. وحتى الخضر التي نستوردها .. لن تجد من يدفع فيها درهم واحد .. سيكون كساد كبير .. سينهار بلد منهار .. كيف سيكون حال الدارات بعد أن يستلمها أناس من قبور الصفيح .. أقسم أن البعض قال أكثر من ذلك .. لكن الأمر الثوري الأعظم صار أمراً واقع .. من يتصور اليوم متاجر للطليان في طرابلس المجد أو بنغازي العزَّة .. من يتخيل طلاباً طليان في نزهة مدرسية يصطادون الحمام بكلاب طليانية .. في مزارع طليانية .. من يتصور أن تقفل الكنائس الطليانية وتقام المآذن ..

أين البهتان إذاً .. نحن من يتحداهم .. هاتوا حرفاً واحداً من العهد الساقط تحت الأقدام .. هاتوا فعلاً واحداً .. من أجل الشعب الطيب .. نحن لا نملك إلا المفاخر .. من حق الثوريين أن يصدعوا بأعلى الصوت .. هاتوا عملاً واحداً .. أنتم فقط خبراء النميمة والقيل والقال .. لن تجدوا موطأ قدم واحد .. هذه أرض مطهرة بالثورة .. أكتب ما شئت فهذا جيل لا يهتز بكلمات جوفاء .. وعمليات الإحباط الممنهج لن تجدي نفعاً .. لن يبتعد الإصبع عن الزناد مهما قلتم .. زيدوا غيضاً وازدادوا حقداً .. عميانٌ من شدة الجهل أنتم .. هذا جيل ولد من رحم الثورة .. تربى في حضن الثورة .. يتذرع بحصن الثورة .. زيدوا إمعانا في الجهل .. مهما أعطوكم من دولارات الكون المزورة لن يجدي نفعاً .. هذه أرض الناس الأحرار .. فرد حر وفرد حر وفرد حر .. كفاكم عبثاً .. الشعب الليبي لا يقاس بمقاييس الواقع السائد .. كل فرد ليبي يساوي أمة في الوعي .. كل فرد ليبي رأس .. كم من الرؤوس ستقطفون .. لتنالوا من هذا الشعب الرأس .. هذه أرض يولد الطفل فيها يحمل مشروعاً وقضية .. حتى وإن كانت حماسة فائقة لنادي لكرة القدم .. انظروا حماسة الطفل الليبي لنوادي كرة القدم .. هذا مقياس أناس أحرار .. من فرد حر وفرد حر ..يتأسس بنيان أصلب من الصلب .. شيء ليس من المعقول .. أدعوكم إلى مزيد العبث .. لن تجدوا إلا ورقة توت أو خروع تسترون بها عورات سيدكم .. خطوا عليها ما شئتم من كلمات الكذب .. مزيد من القيء قد يطفئ جمرة الحقد فيكم .. لكن الرجال لا يكترثون لكم .. من يتوهم تشويه النصر لمجرد أن تنشر الأكاذيب حول الرجال العظام .. أهذا بشر .. أم هو من جنس العوائين بلا هدف .. يقول قائلهم أنه يشفق على الناس منّا .. ينصحنا كيف ننظم وسائط نشر الفكر .. نتحداه أن يعلن إيمانه بالفكر

الأخضر .. بأي شكل .. نحن نفهم المغازي جيداً .. ونرد بأعلى الصوت .. لن ندعي أننا نمتلك ناصية الحق .. ولا المقدرة على قيادة الشعب .. نحن نقول أن الشعب الفرد الحر والفرد الحر هو آلهة في الأرض .. لهم الحق في كل الأشياء دون سادة من سديم الغيب .. يتوهمون أنهم يستخفون بالناس .. لكن الناس من يستخف بهم .. في هذه الأرض الناس الذين تسمونهم عاديين وبسطاء .. في تهذيب واضح لكلمات الدونية والسطحية .. والحقارة .. والسذاجة .. هم أناس من نوع آخر .. ناسٌ واعون .. يعلمون ما لا تعلمون .. امتلكوا الفعل .. فما بالك بالتحليل والتدبير .. لا يقبلون أن يدعي الفسّاد مقاومة الفساد ونشر العدل وقهر الظلم .. هل يقبل الناس الواعون دعاوى الشرف والعفة ممن باع الأرض .. وجلس يقتات على فتات الأعداء .. لينظروا هؤلاء المرجفون في المرآة .. سوف يخجلون من أنفسهم .. عجبي !! كيف يقبل المرء أن يكتب ما يقال له .. دون وعي أو تمحيص .. يردد ما يقال له دون وزن للكلمات والمعاني .. أبواق في طوابير موسيقى نحاسية بائسة ..

من يكترث بهم .. وإن كتبوا .. وإن قالوا وحتى وإن فعلوا .. هذه معركة دائمة بين الشر وبين الخير .. فليس بأربطة العنق والقمصان المنمقة وحفلات الميلاد .. وشرب الأنخاب .. وشراء الكتّاب .. تبني الدول .. الناس يقودون أنفسهم خلف الحق .. انظروا كيف صمدت غزّة .. إن كنتم نسيتم درس المختار .. الناس يتنادون إلى صوت الصدق مهما كانت كلمات الكذب .. منمقة وملفقة .. انظروا كيف يتنادى الكل إلى خيمة القذافي .. رغم حجم التضليل لعقود .. نحن تعلمنا الصدق وليس لنا من درب إلا الحق .. لن يعرف الإحباط طريقاً إلينا .. سنكمل هذا الدرب .. فنور الشمس الساطع لن يغطيه غربال أو طبل أجوف ..

*****

أيامٌ صُنع فيها المجد

خلف صخرة يتصل حولها البحر بالصحراء.. تحلق الفتية حوله .. استمعوا إلى عناوين الخطة.. كانوا ينصتون للتفاصيل عساهم يعرفون الموعد .. من بعيد جاء رجل في ثياب رثة .. يمشي وحده على الشاطئ .. سؤال حائر دار في كل الرؤوس .. ماذا يفعل هنا .. لعل هناك من أرسله ليسترق السمع.. أو أن البعض أوشى بالسر فأرسله لتأكيد حضور الجمع.. لاشك فإن خلف الأمر سر ما.. حتى لو صدقت روايته بأنه سمع هاتف يدعوه لمباركة اللقاء.. كان يوماً مشهوداً.. وكان يوماً عصيباً.. الله أعمى أبصار الأعداء فلم يروا شيئاً .. وصم آذانهم فلم يسمعوا شيئاً .. كم كان حجم الكتمان والصبر .. بعض الرفاق ملّوا الانتظار .. منهم من أصابه الوهن فاعتذر عن مواصلة المسير ..ومنهم أوجد بعض الأعذار ليراقب عن بعد.. حتى لو كانت ورقة إجازة يقدمها ليطلب البراءة لو كان المصير الفشل.. في تلك الأيام لم يدر بخلد الناس أن أفقاً جديداً بدأ يتفتح.. أو أن الفجر قارب من الولوج.. أياماً معدودات.. لكنها في حساب الأزمان كأنها عقود أو سنوات.. فيها تحصى كل الأمور وتحسب كل الأشياء.. خلالها بدأت لحظات العد العكسي بالساعات بل بالدقائق.. عندما جاء المخبرون لإلقاء القبض.. أغرتهم وليمة غذاء فأجلوا الأمر إلى المساء.. لكن مكتب المأمور لن يفتح إلا في ساعات الصبح .. إنها إرادة الله .. أن يتأخر الفاعلون عن فعلهم ليجلسوا إلى وجبة غذاء فاخر.. وقتها كان الناس يقطعون الأميال ليظفروا بقطعة لحم في مأدبة فرح.. أو عشاء لتكريم الموتى كما تجري العادات.. فما بالك أن يدعى المرء إلى وجبة دسمة.. البوليس الملكي لم يكن استثناء من ذلك .. رائحة الطبخ تخترق الأنوف وتشد الأنفس.. مع أن ترتيب المعتقل وسط الغابة يجري على قدم وساق.. لكن مأموري القبض وضعوا أمر القبض تحت الوسادة.. ناموا ينتظرون الصبح ليظفروا بالصيد الثمين.. كم كانوا سكارى.. لا يعلمون أن الريح تذهب بما لا تشتهي السفن.. وأن الخطة اكتملت.. وأن ساعة الميلاد قد أزفت.. ولن يجدوا وقتاً لوجبة غذاء أخرى..

في ليالي طرابلس المكتظة بالطليان وعصابات المتعاونين كانت ملاهي الودان تغص بالمومسات.. وكانت طاولات القمار مليئة بالأوغاد.. وبعض المترفين يلقي عظاماً من سيارة فارهة في وجوه أفواه جائعة .. تقتات من تجارة أعقاب السجائر.. وكان البوليس الملكي يغط في نوم عميق... لم يكن يدري أن رجال يحملون أرواحهم إلى الموت لبعث الحياة.. قادمون... يرفعون علامة الصبح إشارة ..

في عاصمة الملك الشرقية كان الوزراء المتخمين قد خروا من فرط شرب الخمر.. عندما داهمهم الفجر بانت كروشهم عارية مملوءة بالعفن.... كان الجنود يشحنون الجثث الحية في عربات النقل.. أحدهم كان بلسانه لوثه.. سئل قال ..وز..وز.. ظن الجند أنه وزير.. أَلْقَوْهُ مع المُلْقِين.. عندما وصل بنغازي أكمل الجملة .. كان وزير مفوض .. ترك في حال سبيله..

في ضواحي طرابلس .. المملوكة لبقايا الفاشست كان أطفال صغار يُسامون عذاب قاسي .. ضرب .. وكلاب تنهش الملابس الرثة... وتقطع لحماً هزيلاً يكسو عظام مصابة بالكساح.. لقد قذف أولئك الأطفال طلاب مدارس طليان كانوا يتنزهون في رحلة مدرسية أيام العطلة في أحد مزارعهم... الأطفال يلوذون هرباً بحمارهم .. لكن الطليان كانوا يريدون الأطفال والحمار للتصوير .. وكان الحجر وسيلة الدفاع الوحيدة .. توهم ضابط التحقيق الأحمق عندما استمع صوت الدبابات تتحرك في عملية القدس أن الطليان العسكر قد جاءوا يطلبون دم الأطفال.. يزداد حنقه .. وتزداد معاناة الأطفال المساكين ..

وحدات القوة الملكية معبأة ضد الشعب .. لكنهم ناموا.. ظنوا أن الناس قد نامت.. في جوف الليل كان الضباط الكبار يتحلقون حول وليمة أرز .. ولحم ضاني وبعض من كؤوس الخمر .. قال قائلهم .. الليلة خمر وغداً خمر.. لكن رياح الجبل العليل كانت تحمل أنباء مختلفة .. لم يجدوا ساعة ليروا الزحف القادم .. كانت أسلحتهم من خشب .. لم تطلق طلقة واحدة .. قيل أن شيوخ القبائل المنافقين كانوا يعلنون أنهم يقودون آلاف الشباب المسلحين.. ليلة الأمر العظيم.. لم يخرج منهم أحد.. إنهم شيوخ مزيفين.. سقطوا على قارعة الطريق مع أول امتحان حقيقي.. لم يجدوا من يلقي عليهم التحية..

في صبراته كان دعاة الشخصية الليبية يعدون العدّة لتغيير اسم المملكة تيمناً بممالك أخرى .. جاءوا بالمطربين والمطربات من هنا وهناك.. سمّوا بلد الشهداء الطاهر بالدم باسم إنسان فاسد .. في الهزيع الأخير من ليل صبراته حيث كان الروّاد بعض الطليان وبعض الأمريكان.. خروا صرعى من شدّة الخوف .. لقد جاءهم النبأ العظيم .. لم يتسنى لهم الوصول ثانية إلى طرابلس .. فلقد قضي الأمر وانقلب رأساً على عقب ..

نهاية شهر ناصر كانت بداية النهاية .. كل لحظة بعدها كانت تاريخ جديد يكتب.. كلمات أخرى تولد... وأيام أخرى قادمة تتغير فيها الأشياء كلها.. كل لحظة بعد 31 يوليو 1969 كانت تحمل ملامح مشروع جديد .. عندما بدأ العمل السري قبل عقود من الزمان.. كان في شوق إلى تلك اللحظات.. لتبدأ عملية الهدم والبناء .. كان عليه أن يحسب الوقت بدقة.. في رأسه المخطط الشامل .. عليه أن يضع قطع اللوحة مع بعضها البعض.. بعد تلك الليلة المباركة .. وطأت قدماه كل ليبيا.. في غضون أيام معدودات كان يقطع المسافات.. من أقصى المشرق إلى المغرب .. من طبرق حتى الزاوية مروراً بكل القرى والوديان... من مصراته إلى فزان النسي المنسي.. قابل كل الرجال بحث معهم كل التفاصيل.. بعضهم لم يصدق الأمر ولم يدرك أن الساعة جاء موعدها.. لم تطرح الأسئلة حول الخطة.. لقد كانت واضحة محكمة.. لكن السؤال الدائم كان الخوف من التأجيل..عندما بدأ العد العكسي بالثواني وأعلنت ساعة الحسم.. ونشرت كلمة السر المقدسة في قلوب المؤمنين.. كان جاسوس ما... قد دس نفسه بين النفوس... لكن الحاسة السادسة كشفته.. لم يعرف السر .. جاهد بكل الطرق.. لمعرفة ساعة الصفر.. كان يحاول عبثاً إجهاض الميلاد.. لكن لحظات القدر لن تعود إلى الوراء .. فكان الموعد والوعد وكان الميلاد .. وجاء الصوت ليعلن البيان.. تتويجاً لنضال وكفاح مرير.. في سبيل الحرية والكرامة... وكان إيذاناً بزمن لن يعرف الناس فيه سوى المجد..

*****

كلمات من نور ... وأحاديث الزور

في لحظة انبلاج الفجر لن تجد العتمة طريقاً إلى العين .. وتبدوا الأشياء على حقيقتها لكن الأبصار التي لا ترى النور لن تستمتع بجمال الألوان ولن تميز الأشياء.. لحظات تبدل الأزمنة وتغير الأحوال .. لن يحسها سوى أولي الألباب الذين يرون ويسمعون.. يقول بعض ممن في قلوبهم وهن أن الزمان ثابت لا يتحرك.. وأن الأحداث تكرار ممل لحدث واحد قد يكون سخيفاً.. في بعض الأحيان مع ارتفاع دوي المدافع.. وانطلاق صفارات الإنذار قد يدفن البعض رءوسهم في الرمال فيحصدهم الرصاص .. تقتلع الرؤوس مع الجثث. رغم انتشار وسائل تبادل المعلومات وتطور المعارف والمدارك لازال البعض ينظر من خلال عدسات مقعرة.. حيث تصغر الأشياء حتى لا تكاد أن تُرى .. وكأنهم في باحات قصور العصور الوسطى المظلمة .. بين جذران وفئران..ودهاليز تستخدم للسجن.. والخصى.. وأشياء أخرى..

لن يرى النور سوى المبصرين.. ولن يصنع التغيير غير مؤمنين.. يعرفون أن طريق الغد واضح المعالم رغم الشوائب والمطبات.. وأن الأكاذيب وإن كبرت.. وكثرت .. وترددت لن تصنع أي شيء .. ببساطة لأنها ليست سوى أوهام.. عندما أكتب حول أمر ما.. أمام ناظري فقط جوهر الموضوع لا تشدني الظواهر ولا المظاهر ولا أهتم ببعض التفاصيل.. قد لا أتيح الحيز المناسب لشرح المقاصد.. وقد يقع محظور ما.. اتصل صديق أعتز به أيما اعتزاز.. يخبرني أن البعض فهم أن شخصاً ما مقصود بما كتبت في أحد المقالات.. ولقد ساءني أن يُفهم ذلك في أي إطار من سياق المقالة.. خاصةً أن الشخص الذي توهم أنه معني بما كتبت أكن له ولعائلته تقديراً وحباً واحتراماً.. فمنهم من له فضل عظيم عليا أعتز به ومنهم من هو صديق حميم.. نعم ربما خانتني المقدرة على ترتيب الحروف والكلمات.. فالحرف مع الحروف يصنع كلام كثير قد يكون مختلف في بعض الأحيان إلى حد التناقض.. وربما بعض التعابير لم تكن مناسبة .. لتصوغ ما نويت أن أقول.. ولأن الكلمات مخلوق صعب المراس فإني أعتذر أمام الجميع.. فلم يكن في حسباني أن أوجه حديثي لشخص ما في

كل ما أكتب.. ولم يكن هدفي التعرض لشخص بعينه .. وإنما هي خواطر والخواطر دائماً تحفها المخاطر.. وذلك مبرر لمن يفهم السطور ولمن يحاول البحث بين السطور والكلمات.. إن أكثر الكلمات المدونة تعكس إيمان بما تحويه من معاني.. وإن كان بعض مفرداتها لا تحمل المعنى الذي تكتب من أجله .. طلب مني متصل ما أن أعلق على أمر يتعلق بالشأن الليبي.. فقلت غريب أمر المثقفين في بلادي.. قدّر لهم أن يعيشوا لحظات الأمجاد.. وهي نادراً ما تحدث.. لكنهم عنها غافلين والبعض عنها معرضين.. من لا يعرف ليبيا.. ويقرأ ما يكتب زوراً وبهتاناً عن مشاكل بلادنا الجميلة الرائعة.. يتوهم أننا نعيش في القرون الوسطى أو بين حيوانات متوحشة في غابة مخيفة .. الصورة التي تقدم عنا.. هي كذلك .. والمصيبة أن من بيننا من يعمل جاهداً على تشويه الصورة.. مع أن بلدي جميل مطهر بالثورة.. أهلها طيبون لا مغبون ولا مهضوم ولا سيد ولا مسود.. ومع أن بلدي مقارنة بما حولها وبمن مثلها نموذج في كل الأشياء.. ومع أن المساواة في بلدي قاب قوسين أو أدنى من التحقق.. فأيما أسرة ليبية في أي مكان تمارس حياتها بشكل متساو تقريباً في كل الأشياء.. لا فرق في أسلوب الحياة من الغذاء والشراب وحتى الأثاث.. وكذلك ما يمارس من عادات محمودة أو سيئة.. بين المدن العريقة ولا الأرياف ولا القرى المتطرفة... انظروا إلى قوائم الأكل في كل البيوت الليبية تقريباً لا تختلف في محتوياتها.. الإفطار والغذاء والعشاء.. في أغلب الأحيان قهوة على الريق .. خبز وبيض .. أو تن مع بعض الجبنة .. وطبق المكرونة .. أو وجبة الكسكسي .. أو الشربة مع عدد من المحاشي.. في المناسبات يضاف إلى العصبان .. وفي أحيان بازين .. لحم الضأن وإن ارتفعت الأثمان .. مع قليل من دجاج .. الشباب يفضل البيتزا المنزلية والشطائر... وانظروا العالم من حولنا هل موائد الطعام متاحة للجميع وبنفس المكونات تقريباً..راجعوا شعائر الأفراح والمآتم تحدثوا عن المناسبات الدائمة من طهور ، زردة ، عزومة وسفر وحج وعمرة وغيرها.. انظروا العلاقات الاجتماعية بين الأفراد.. هل يوجد حقاً أي نوع من التمايز الطبقي .. هل يوجد فرق في الحياة بين هذا عسكري وهذا طبيب وذاك موظف كبير أو فلاح.. وفني .. تعالوا إلى المدارس والجامعات والمساجد.. في ليبيا وحدها الناس شبه متساوون.. ينبغي أن يكونوا متساوين بالمطلق.. لكن المقارنة الموضوعية بالموجود في العالم.. توضح القفزة الهائلة التي حققها الشعب الليبي في الارتفاع المتساوي في أساليب الحياة.. وفي التوجه نحو توفير حياة كريمة متساوية للجميع..

أنتم يا كتبة السوء.. يا من تكتبون بالحبر الأسود.. يا من تتهربون من مقارعة الحجة بالحجة ومن الحوار في الموضوع بالتطرق إلى أمور شخصية مبنية على الكذب.. يا من تأكلون أعراض الناس وتتحدثون عن الشرف.. يا من تزورون الحقائق وتتبجحون بالبحث عن الحقيقة.. يا من ترمون الناس بالحجارة وبيوتكم من زجاج لا يتحمل قذف الطوب.. انظروا إلى الآخرين.. انظروا إلى أسيادكم الذين تحاولون التحلق حول موائدهم عساه يصلكم فتاتهم .. كيف يتناولون شأنهم المحلي.. العقلاء سيشعرون بالصدمة لأن بعض من أهل هذا البلد لم تعد لديه وطنية بالمعنى المبسط للكلمة... فيجتهد ليصور ليبيا بغير حقيقتها... ينظرون تحت أقدامهم.. يهولون المشاكل البسيطة لأمر في نفس يعقوب .. يتحدثون عن بعض الاختناقات وكأنها أزمة الأزمات .. لكنهم لا يتعظوا بما يفعل الآخرون.. عندما عجز المقترضون في الدول الغربية عن سداد الديون انهارت المؤسسات المالية الرأسمالية .. وأحدثت ارتباكاً عالمياً .. تحدثوا عنها على أساس أنها أزمة عابرة.. رغم أن نارها طالت الجميع.. لم يسيئوا إلى أنفسهم ولا إلى نظامهم مع أنه أساس المشكلة.. أمّا نحن.. فحدث ولا حرج.. سألني صديق من أحد الأقطار العربية كيف تعيش مدينة بنغازي دون مياه لعقود من الزمان.. كان يتصور أن الناس مقبلون على موت جماعي من العطش .. سألت باستغراب من أين له تلك المعلومات... أخرج لي مقالة.. تتحدث عن مشاكل المياه والصرف الصحي في بنغازي.. تذكرت الأيام التي كانت فيها بنغازي تستقي من ماء مالح أجاج.. وبعض من براميل المياه المنقولة من بنينة.. قلت لماذا لم يعرف هذا العربي أن بنغازي تُروى اليوم من مياه النهر العظيم العذبة التي قطعت آلاف الأميال من السرير والكفرة إلى بنغازي في أعظم تحد من الإنسان للطبيعة بفعل الثورة.. قال ذلك الصديق بعد أن تعرف على الحقيقة.. أنتم معشر الليبيين لا تحمدون الله على النعمة التي تعيشونها.. أتمنى من الله أن لا يعاقبكم على ذلك..

معذرةً أني أكتب عن أشياء تبدو متعددة ومختلفة.. لأن النور يضيء كل الأشياء .. يبينها على حقيقتها بعدد ألوان الطيف .. لكن للزور وجه واحد وأسلوب واحد إنه يعتمد الكذب.. لحجب النور.. الكذب مخلوق شفاف .. لن يصمد أمام طاقة الضوء المذهلة التي تتسلل عبر كثير الأشياء وإن امتصت... أو انعكست.. في كل الأحوال تحدث التأثير المطلوب.. يا أيها المزورون الجاحدون..

ردوا علينا فيما نقول واكتبوا إن وجدتم بياناً يفند ما نطرح.. واعلموا إنا عنكم معرضون لأنكم خبراء في التجريح الشخصي.. والكذب والنميمة وتناول الأعراض .. وتلك هي سمات المنافقين.. عليهم لعنة الله إلى يوم الدين..

*****

زحوف وأقاويل

في كل المدن الليبية الطاهرة.. وفي طرابلس عاصمة المجد.. عروس النهر والبحر.. عشرات الآلاف من الرجال والنساء.. آلاف الفرسان يمتطون صهوات جيادهم العربية الأصيلة.. يتنادون في ليلة مباركة من ليالي شهر رمضان الكريم للاحتفال بالعيد الواحد والأربعين لثورة الفاتح العظيم.

من كل أنحاء الجماهيرية جاءوا لتحية قائدهم العظيم وللتعبير له على عهدهم الدائم ووفائهم وإيمانهم المطلق بأن ثورة الفاتح العظيم كانت بكل المقاييس عملاً استثنائياً.

لم تمنعهم حالة الصيام وظروف شهر رمضان المعظم من الزحف المهيب في صورة شعبية رائعة جسدت تلاحم الجماهير مع قائدها.. واعتزازها به.

فماذا سيقول الناكرون والحاقدون الذين يتحدثون من الغرف المظلمة عن هذا الفعل الشعبي في الشارع بعد أربعة عقود من الزمان؟.. هل من دليل أقوى من هذا العمل الثوري في الميدان عساه أن يرد لهم أبصارهم التي عميت ويسمع آذانهم التي صمت، فيرون الأحداث على حقيقتها ويسمعون القول كما هو دون تحريف أو تزييف؟.

سيقول قائلهم ما جاءت الناس هكذا تلقائياً بل أجبروا على ذلك بالقوة بفعل اللجان الثورية والأجهزة الأمنية.. أي أن الناس قد سيقوا أو جرجروا إلى مواقع الاحتفالات التي عمت كل الميادين في كل المدن على طول التراب الليبي من أقصاه إلى أقصاه في ليلة الفاتح العظيم، هم يراهنون على أن بعضاً من الناس سذج وأغبياء يمكن استغفالهم بتلك الأكاذيب، لكنهم لن يجدوا من يستمع إليهم أو ينظر فيما يدعون.. إذ كيف يعقل أن يجبر مئات الآلاف من البشر لحضور حفل شعبي جماهيري في ميدان مفتوح، وكيف يجبر الفرسان أبناء المجاهدين أن يقدموا عروضهم الرائعة تلك، وكيف ترغم الفرق الفنية والصوفيون على الاستعراض أمام قائدها وضيوفه الكرام من شتى أنحاء

العالم وتقديم أناشيدها وأغانيها وترديد أهازيجها ومدائحها في مظهر إبداعي.. أزهى أنظار الجميع.. على الهواء الطلق ومباشرة وبمتابعة من الناس في كل مكان.. عبر الإذاعات والفضائيات؟.

لو صدقنا جدلاً أكاذيبهم المفضوحة، فإن ذلك يعني أن قوة الثورة هي قوة عملاقة قادرة، لها حضورها وتأثيرها وسط الجماهير كي تتمكن من حشد هذا الكم الهائل من الناس للاحتفال.. وهذا النوع المبجل من الحضور في مشهد لا نظير له في عصرنا الحاضر، لكن السؤال المنطقي الذي يتجاهله الجاحدون.. هو حول الكيفية التي يتم بها من الناحية العملية إجبار الناس على التوجه والمشاركة في الاحتفالات، هل يجرون بالسلاسل أم بتوجيه فوهات البنادق إلى صدورهم؟. لعل بعضهم لا يخجل من نفسه بأن يصف الشعب الليبي العظيم بالجبن والضعف حتى تتم قيادته بهذه الطريقة السمجة التي يدعونها متناسين أن الشعب الذي واجه قوة الاستعمار الإيطالي التي كانت تعد من أعتى الآلات الحربية في بداية القرن العشرين وهو أعزل.. وواجه الفاشية والعنصرية وانتصر عليها، وكتب حريته بالدم لا يمكن أن يقبل الخنوع ولا الخضوع لأي كان..

الحقيقة الساطعة التي لا يريد المكابرون الحاقدون رؤيتها هي أن الشعب الليبي يفتخر بثورته.. وقائده.. عندما يخرج عن بكرة أبيه لتحيته، فهو يعي جيداً الرسائل التي يوجهها لكافة الأطراف الصديقة والمعادية.

بالأمس القريب زحف مليون ليبي وليبية إلى طرابلس.. واليوم تستعرض فعاليات نوعية الشعب الليبي قوتها وعضلاتها ليرى الناس ثورة الفاتح العظيم على حقيقتها ولكي يتعرفوا على مكمن قوتها.. شاء من شاء وأبى من أبى..خطابنا إلى أولئك.. نقول يا أيها الحاقدون الناكرون أنفثوا ما شئتم من سموم.. فهنا شعب تحرر بالثورة.. رأى النور فلن يرجع إلى الأوكار المظلمة.. مهما كان حجم حملتكم الدعائية المضللة، لأن الله أراد أن يتم نوره ولو كرهتم أيها الكافرون.

*****

فلا نامت أعين الجبناء

لم تسعفني الكلمات كثيراً لأعبر عمّا في نفسي من شجون وأنا أتذكر المناسبة الحزينة.. كان صديقاً عزيزاً وكان رفيقاً يستحق أن يذكر دائماً.. هو رمز للصدق والإخلاص.. عندما سقط الفارس في وحل المرض حاول التخلص من الوهن بكل قوته.. لم تضعف شكيمة الإصرار لديه.. يزداد عنفواناً كلما ازداد المرض نخراً في جسده النحيل... ترى الشرر الثوري يشع من العينين المبرقتين بالإصرار.. فهو لا يعرف التردد.. وليس في قاموسه موطئاً للجبن.. لم تتعود أذناه على سماع كلمات تبعث على الخوار.. حتى في أشد لحظات المرض كان يصر أن يعمل طوال الوقت.. يؤمن بأن الزمن الثوري كالذهب.. إن لم تحافظ عليه يسرق منك.. شديد الحزم مع أن جوفه مليء بالعواطف.. كان يحب الجميع.. لكنه لا يظهر لحظات الضعف حتى لأقرب الأصدقاء إلى نفسه.

في لحظات الحزن تراه يصنع التحدي.. أذكره في الطائرة وبين قدميه جثمان أخيه المسجى.. كان ينظر في الجثمان يسبر غوره يقبل رأس من يحب بعمق.. أشفقت عليه من الانهيار لكن جأشه كان أكثر رباطة مني.. سبقتني الدموع وأنا أردد كلمات مواساة جوفاء.. قال بصوت فيه وعي بالأمر النافذ: الموتى لا يحبون من يبكيهم.. وإن كانوا يحبون لحظة الوداع الأخير.. وعندما حطت الطائرة.. ملأ صراخ المستقبلين المكان.. لكني أقسم أني لم أر دمعة تسقط من عينيه.. أيقنت أنه يكتنز الدموع إلى لحظة أخرى.. ربما عندما يجلس وحده فهو لا يحب أن يرى الناس عيناه مورقتان بالدمع.. لعل القدر السيئ وضعني أمام مسئولية إخباره بموت ابنه الأكبر في حادث أليم.. في ليلة كان الظلام سيد الموقف فيها.. لم يتجرأ الأهل والأقارب على الاقتراب من الهاتف.. لكن أين المفر.. عندما كان يحدثني وأنا أطلب منه العودة في الحال لأمر مهم.. أيقن أن السر يكمن في الموت.. اطمأن على والده المسن.. وقال بصوت فيه مواساة لي: مهما يكن فلا مفر من قضاء الله.. نفر كثير كانوا في استقباله في الحدود.. الأصدقاء رتبوا الطائرة.. أعرف أن للرجل بأساً شديداً.. لكني ما تصورت أن يكون عزم الرجال عند الشدائد بهذا القدر العظيم.. الموت يتحداه ثانية.. يقطف الابن الذي رأى فيه نفسه

وأخيه.. ترك الكبار المسنين والصغار واختاره بين الجميع.. لحظة دفن الفقيد أقسم أنني لم أر دمعة واحدة تسقط.. خفت عليه.. قلت له عند المساء البكاء يخفف المأساة.. والدمع يطمئن القلب.. نظر إليّ ولعل في نفسه حديث طويل وعميق.. لكنه لم ينبس بحرف واحد..

تمر السنون والمرض اللعين يقتحم كل الأنسجة ويضرب أغلب الأعضاء.. عام 2000 أيقنت حجم المخاطر التي تواجه ذلك الجسد الهزيل.. كان عليه أن يقلص من الأعباء.. لأن جسمه يحتاج إلى الراحة لكنه كان يزداد حباً للعمل.. فيمضي الساعات الطوال.. يتدخل في التفاصيل يتفاعل مع الأحداث بكل عواطفه.. عند لحظة غزو العراق رأى أن معركة الحسم بين الأمة والاستعمار قد اندلعت.. يعي أنها لن تحسم باحتلال بغداد.. تمنى أن يكون في الميدان.. يعرف أنها موقعة نموذجية للعمليات الفدائية.. تذكر أيام القتال في لبنان وتذّكر تلك القذيفة التي كادت أن تأتي عليه.. عندما تشظى الرصاص في جسده.. وأرغمه على القعود لشهور طوال.. لكن البسمة في كل الأوقات كانت العنوان الدائم.. ذلك الرجل العظيم.. البسيط.. المرح الصارم.. الصديق الصدوق.. هل تراه شهيداً بين الأبرار وإن مات في الفراش بعيداً.. لقد كان يطلب الموت في ساحات المعارك فلم يلقه.. وكان يهرب من موت الجبناء فلقيه.. محمد المجدوب رمز للثوري الصادق الذي لا يغير مبادئه كما تغير الناس الملابس.. ولا يقلب الموازين.. ولم تختلط عليه الدروب.. كان محارباً صلباً شديد المراس لم ينزل سوى منازل العز والشموخ.. لم يحمل حقداً على أحد.. حتى على أشد الناس خصومة.. كان حب الوطن لديه أقوى من كل الأشياء.. أكبر من الأحياء والموتى.. فلم تزده لحظات الحزن إلا مزيداً من العمل.. آمن بأن اليوم القادم سيكون أفضل.. وأن الناس سواء وإن كره المكابرون.. حمل رسالة الثورة يقيناً.. بشّر بها الجميع دون تردد.. وكان آخر قوله وصية للثوريين.. كتبها بقلمه لأن الكلمات هربت من لسانه.. أوصاهم بالصدق والإخلاص مع القائد.. ودعاهم أن لارجوع ولاتراجع ..لاخوف ولاتردد. فمات محمد المجدوب وعيناه تشع بالأمل.. فله الرحمة ولا نامت أعين الجبناء.

*****

حروف.. وكلمات في مشهد الغد.

دعهم ينفثون أحقادهم.. نحن ماضون في الدرب.. نعرف أنه مليء بالمتاعب.. وأشواك تنثر هنا وهناك.. لكن عودنا صار أصلب.. وهذه الصفوف المتراصة.. الرجال والرجال.. والنسوة يحملن أيضاً معاول... لن نركن للراحة حتى يكتمل الصرح.. دعهم يصبون جام حقدهم.. ستلعق ألسنتهم ما يتقيأون من قاذورات.. نحن نفحمهم بالقول والفعل.. لا تردد ولا ملل... بكل العزم ننسج خيوط الأمل.. ونكتب للأطفال قصة الغد الواعد.. لقد بزغ الفجر.. لن تجد الخفافيش ملاجئ تأوي إليها سيصرعها النور المبهر.. الموتى ينتظرون يوم البعث.. لن يخرج من المقابر من يحمل مشعل.. صاروا عظاماً نخرة.. أجساد أكلها الدود أو بضع محنطين من أزمنة القهر الأولى.. هل يمكن أن تدور عجلة الأيام إلى الأمس هذا هراء كبير.

ضعاف الحجة يركنون إلى الشتم والذم أما الحق فتدعمه الحجة والبرهان والمنطق.. من يجرؤ من أولئك النائمين في الماضي أن يخوض في بحور الفكر السمح الذي نحمل؟. لماذا يغيب السؤال عنهم؟. هذا العالم الذي يأتي إلينا يطلب النجدة.. وتلك الخيمة التي صارت فعلاً قبلة العالم.. اقرؤوا الأخبار إن كان فيكم بصيص من نظر، طابور القادة من كل الألوان والأصقاع والأجناس لا ينقطع، يمتد من أول الفجر إلى آخر الفجر.. في كل الأوقات ترى أناساً يؤمون الخيمة.

سيقول كتبة الزور: إنه مجرد طمع في حفنة زيت من باطن الأرض المطهرة بالثورة.. نرد عليهم كم تحمل خزائن أرضنا من النفط حتى يسعى إليها كل البشر؟.

هناك بلاد أكثر ثروة وأشد قوة وسطوة، كفاكم زوراً وبهتاناً.. هذا بلد النور.. صار يبهر عيوناً وعيوناً رأته فلن تغمض حتى تأتيه، تتبع خيوطه بكل شوق.. هذه ليست حكايات من ألف ليلة وليلة، بل قصة صارت أمراً وستكون أمراً واقعاً عما قريب.. من يبحث في دفاتره الصفراء عن حجة فليخرجها.. لن يجدي جمع السحرة نفعاً.. عصا موسى صارت حية تسعى.. الناس رأت النور

فهل يعقل أن تخلد إلى الظلمة إلا من عميت أبصارهم؟. الناس سمعت صدى ألحان الغد الشجية.. ستطرب لها كل الآذان إلا من كان بها صمم.

من يقرأ أخبار المنافقين سيجد اليوم من ينطبق عليهم القول بالمطلق.. فهم حالة واحدة وإن اختلفت الأزمنة، يرددون نفس الكلمات.. يعتمدون الزور منهجاً للإقناع.. لكن النصر كان دائماً حليف المؤمنين الصادقين، وهكذا سيكون.. لن يجد أولئك الأفاكون زاوية يركنون إليها لقد صدعنا بالأمر المبين.. انتهى عهد بقاء الناس مغمضي الأعين يقادون إلى حتف مؤكد.. ولن تقبل الأيادي قيوداً تشدها إلى الخلف.. هذا النفر، البشر، الإنسان، المستخلف بين الخلق لابد أن يكون له شأن أعظم.. سوف يُسأل في اليوم الآخر فيكون الصراط طريقاً إلى الجنة أو الهاوية.. شأن يمكّنه من تحمل المسؤولية المطلقة.. فالإنسان اليوم لا يمتلك من أمره سوى النذر اليسير.. أينما يولي نظره تواجهه الأبواب موصدة.. يجلس خلفها محتال ما يحمل مفتاحاً لثقب ضيق.

النفر، البشر من يوصمون بالعادية وفي بعض الأحيان بالدونية والقصور هم من يقيمون شعائر اليوم المقدس.. يوم تنكسر فيه كل القيود.. وتصبح الأصفاد مجرد أضغاث أحلام.

يا سيد هذا الركب القادم.. ها نحن ننتظر بفارغ الصبر قدومك، هؤلاء الناس تحتشد لتراها، لا قيود في يديها.. ستراها تنشد النور.. وتراها في كراها وتراها تصرخ حناجرها أن أصبح الشعب إلها.. يا سيد الركب العظيم.. جاءك الناس اليوم كافة... يوم البيعة الكبرى... سيقام العدل.. يصنع المجد.. وترى الأمل يشع في العيون.. سيكون للحياة كل معنى.. ويكون للممات كل معنى.. ويكون للحساب كل معنى.. نحن من يصنع الناس من جديد.. ننفض عنهم غبار قهر السنين.. فيقوم البشر مثلما خلقوا أول مرّة.. يا سيد هذا الركب هذا عهد وميثاق ووعد.. هذا درب اتبعناه صرنا على بضع أمتار من لحظة الفرح العظيم.. سيولد الناس من جديد.. وتصاغ حكمة الأيام الأولى من جديد... إنها لحظة النصر العظيم.

*****

إسلام بلا أصنام

كان بعض المدعين يطلقون العنان للتحليل والتحريم يتسابقون في إصدار الفتاوى التي ما أنزل الله بها من سلطان.. بعض المسلمين بالفطرة قالوا لهم مازحين نحمد الله أنكم لم تكونوا موجودين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وإلاّ لكان الدين الحنيف في أقصى درجات التعقيد.. الإسلام رسالة موجهة إلى العقول وليس إلى العواطف وركزت على معاملات وعلاقات الناس ببعضهم البعض أكثر من تركيزها على الطقوس والشعارات.. لكنها لم تسلم من سطوة المشعوذين والحذاق الذين يحاولون دائما استغلال الدين الحنيف لتحقيق مآرب خاصة بهم.. الله عز وجل يعلم مسبقاً ما هم قادمون على اقترافه من آثام فأمر بشكل واضح وجلي وبلسان عربي مفهوم بأن الدين جاء للناس كافة وأنه لم يميز بينهم ولم يختر من بينهم من يكون وصياً على الدين... فكانت كلماته واضحة إلى الرسول العظيم بأنه ليس عليهم بمسيطر ولا هاد.. لأن الله يهدي من يشاء من عباده وليس عليهم بوكيل.. واجبه ينحصر في تبليغ الرسالة التي كلف بها.. في ذلك تكمن عظمة الدين الرباني الحنيف فهو ليس من وضع البشر وليس خاضعاً لسلطان الناس يحللون ويحرمون وفقاً لأهوائهم ومصالحهم.. من يتوهمون أنهم متفقهون في الدين عالمين بأسراره وأسبابه لا يستطيعون تقديم إجابة واضحة عن جدوى الركون إلى أحاديث منسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لفهم أصول وفروع الدين.. خاصة في وجود خلاف عميق بين من يدعون رواية الحديث حول صحة بعضها وبطلان الآخر.. هل الحديث شرح للقرآن أو تبيان لمعانيه أو تتمة له.. الله عز وجل يقول "ما فرطنا في الكتاب من شيء" ويقول: "قرآناً عربياً غير ذي عوج".. والقرآن فصل بعض الأحكام بدقة متناهية وعرض بعضها الآخر في شكل عمومي شامل.. أولئك لايعلمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم منع كتبة الوحي الذين كانوا يكتبون آيات القرآن بعد أن يحفظوها عن الرسول منعهم أن يكتبوا عنه شيئاً غير القرآن... وما هي إلا سنوات قليلة حتى وجد الناس عدّة مصاحف بها بعض اختلاف.. فكان لشجاعة عثمان وجرأته الأمر الحاسم فجمعها كلها في مصحف واحد محفوظ عند الله سبحانه وتعالى ومحفوظ إلى يوم الدين في قلوب المؤمنين.. فكيف يطلب من المسلمين أن يركنوا إلى أحاديث مشكوك في أصلها وفي أغلب الأحيان هي مدسوسة من أعداء الإسلام؟ كيف يمكن أن يتفرق المسلمون حول فهم لحديث الغدير المنسوب إلى الرسول.. فيذهب بعضهم إلى أنه يعني

تعيين علي بن أبي طالب ولياً لعهد الرسول على الناس.. وتتأسس طائفة تزداد تطرفاً وغلواً إلى حد تأليه علي عليه رضوان الله.. هذه البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان في اللباس والسلوك والتي أصبحت موضة يحاول البعض فرضها بحجة أنها ركن أساسي في الإسلام.. وإطلاق اللحي وكسر السن وحرق الجبهة بالثوم.. وتقصير السراويل.. وإرغام الناس على التحرك كالدواب في أقفاص سوداء تخيف الناس.. من قال إن هذا الذي نراه من براقع وخمار ولحي وسراويل هي أصل من أصول الإسلام؟. ألا يمكن أن تكون هذه نتيجة لمخططات العدو حتى ينفر الناس من دين الرحمة والعدل والحرية والمساواة!. لماذا لا تتحدث عن الإسلام كما هو.. توحيد الله والصلاة والزكاة والصوم والحج، وعن الأهم وهو التعامل بين الناس.. التراحم والتعاطف ومنع العدوان وإقامة العدل والمساواة بين الناس رجالاً ونساء.. ذلك أنهم مسئولون يوم القيامة عن أعمالهم ولن يجدوا نفعاً ولا ضراً من أولئك المشايخ المزيفون؟. إن الأنماط التي يحاول البعض فرضها باسم الإسلام هي نوع من أنواع الوثنية.. الحقيقة المؤكدة في الإسلام هو لا رهبان في الإسلام.. ولا تكونوا كالذين فرقوا دينهم شيعاً.. اتقوا الله، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم.. كل حرف وكلمة وآية في القرآن موجهة إلى الإنسان، الفرد هو المخاطب بالقراءة وبالتعوذ من الشيطان وبتوحيد الله والإيمان بالرسل والكتب والملائكة.. وهو مسئول عن أفعاله مهما صغرت أو كبرت.. "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شر يره".. "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى" الفرد العادي يمارس الإسلام كما يعلم بعقله.. يصلي حيثما شاء.. ويحج ويصوم إن استطاع ويزكي.. الإسلام دين تقدمي يرفض التخلف والجهل.. فهل يعقل أن يقدم هذا الدين العظيم بهذه الصورة المتخلفة التي يتخيلها المتخلفون في عقولهم.. لننظر في تاريخ الدعاة الأوائل الذين نقلوا الإسلام إلى مشارق الأرض ومغاربها.. عندها سنعرف أي إثم يرتكبه البعض في حق هذا الدين.. وأي جرم يقترفون.. إنهم يصنعون أصناماً جديدة بعد أن حُطمت اللات والعزّى.

*****

Intellectual Issues

Articles on Libyan Theory

By: Prof. Mustafa M. Zaidi

هذا الكتاب

العالم يتقلب ولم يتغير.. وتزداد مشاكل الإنسان في كل مكان تعقيدًا ولا مجال لحلها باتباع الوسائل السائدة في العالم.

هذا الكتاب يتعرض لأهم القضايا الفكرية التي تضيء الطريق للناس، لكي يعبروا عن أنفسهم بحرية دون الحاجة إلى الدخول في صراع من أي نوع مع الآخرين لفرض مطالبهم، وحتى يتحقق الأمل في تحقيق مجتمع الحرية التامة.. مجتمع لا مغبون ولا مهضوم ولا سيد ولا مسود بل إخوة أحرار.

